

جبي الأول



دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس

009722340035

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

✱

سحر خليفة

حبي الأول

✱

الطبعة الثانية (2014).

✱

لوحة الغلاف: الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

رواية

حبِّي الأول

سحر خليفة

.....

المقدمة

جرت العادة أن يقدم للرواية أحد النقاد المعروفين المتخصصين في علم وفن النقد الأدبي، إمّا للتنويه بقيمتها الفنية والفكرية، أو لتعريف القارئ بكيفية قراءة الرموز والدلالات والتيّبات الأساسية، أو من باب الحث على الاهتمام بقضيتها الاجتماعية - السياسية - الإنسانية المطروحة بشكل مباشر أو غير مباشر.

لهذه الرواية في طبعها المقدسية اخترت مقدمة غير تقليدية، إذ أفسحت مجالاً لقراء قالوا رأيهم فيما كتبت، لا لأني أفضل آراءهم على آراء المتخصصين، ولا لأن فيما يقولون من العلم والدقة والحكمة أكثر مما لدى النقاد المحترفين، بل لأني أعترف وأتعلّم مما يقولون. فهم أولاً وأخيراً من أقصد، هم مرآتي. والشهادات التي وجدتها في إحدى المجلات الرقمية لبعض القراء، على اقتضاها وبساطتها، تقول الكثير وتفرحني، وتعلمني.

سحر خليفة

.....

كفاح زهرة: ويقي الوطن حي الأول! الرواية رائعة، ومن ذكاء الكاتبة أنني لم أشعر بأن شخصياتها مختلفة. لقد مزجت بين الحقائق وشخصيتها بأسلوب رائع ودخلت في كثير من التفاصيل، حقائق لم أكن أعرفها من قبل. تعمقت في «الثورة» ونفسية الثوار ونقلت تجاربهم الشخصية.

رنا: سحر خليفة ترغمني على الغوص في التفاصيل، تفاصيل الهوية والوطن. شعرت بالوطن المسلوب في هذه الرواية! رائحة الخبز والطابون واللبن الطرية والزيتون وست نضال، الست الفلسطينية. كنت أنا نضال الصغيرة مع فارق الماضي والحاضر رغم أنني لا أهوى التفاصيل الكثيرة، إلا أنني لا أستطيع القفز على تفاصيل تروي أحداثاً تاريخية، وليس أي تاريخ، عندما يتعلق الأمر بالثوار والمثمين والحجارة ومغارات الجبل. إنني لم أعيش فترة كان الناس فيها بذلك التلهف للدفاع عن الأرض وبذل الغالي والنفيس من أجلها.

صفوت سافي: رواية ثرية بمفردات من اللهجة الفلسطينية، تستذكر في بدايتها بطل الرواية، التي تشارف على السبعينات قصة حب طفولي، دارت أحداثها في نابلس وما حولها قبل قرار التقسيم وتفرق العائلة، وها هي تعود بعد كل هذا الزمان إلى بيت العائلة المهجور، والتي لم يتبق منها سواها. نهاية الرواية تحمل الكثير من الأمل عندما عثر عاشق البطلة على ما تبقى من عائلتها وهم أبناء وأحفاد أخيها الذي استشهد في دير ياسين، لتكتشف أن العائلة لم تنته وأن الأمل مازال موجوداً.

آلاء: تكتب سحر فتبهرنني، تكتب، فأجد في تفاصيلها سحراً وحبا وواقعية موجعة. تكتب سحر وأقرأ أنا، دون كلل من حكاياتها التي

لا أتمنى لها أن تنتهي. في نصها هذا، نقابل نابلس مختلفة، نابلس الحب والمقاومة، نابلس الفلاحين وأهل المدينة، التفرقة والاتحاد والجو الكئيب وسقوط فلسطين، ومسارات الثوار في الجبال البكر.

أمل السبتي: هذه الرواية عن حب تاه وذهب، رواية عن الحقيقة المرّة، عن الظروف في العشر سنوات التي تسبق عام 1948، عن كيف عاش الناس، وكيف قاوموا، وماذا حصل فعلا، رواية عن عبد القادر الحسيني، الذي تمّ تجاهله في المناهج الفلسطينية وتجاهل دوره، ورسم صورة مشوشة له. رواية تستحق أن تقرأ بشخصياتها الطريفة، وصراحتها ومحاسبتها لأخطائنا ووضعها جميعا على الطاولة بوضوح.

ربما الشيخ: عندما أقرأ شيئا يحاكي فلسطين تتضارب في نفسي الأحاسيس حتى أكاد لا أفرّق بين الحزن واليأس والأمل. الحب هنا وجه شفاف للقضية، وهل يمكن للحب في زمن الحرب أن ينفصل عن القضية؟ في هذه الرواية تقرأ القائد والقضية. تلمح بعين دامعة خذلان الأمس وضياع اليوم. أشعر بالخزي كلما قرأت تاريخا يحكي موقف العرب من فلسطين

لما ياسين: من أين أبدأ؟ من أجل ما قرأت في حياتي، كم هي مشوقة ومحزنة، أبكتني النهاية مع أنها معروفة، آه يا سحر يا مبدعة، في بدايتها شممت رائحة البرتقال، وتذوقت اللبن ثم نقلتني إلى كهوف الثوار وحزنت لخسارتهم. التفاصيل الدقيقة لساحات المعارك جعلتني أحس كأنني في المكان معهم، حقا لا يسعني إلا أن أقول بورك جهورك يا سحر، واستمري في العطاء.

أميمة: الأقوال والأحداث مأخوذة مما كتب قاسم الريماوي، أمين سر
الجهاد المقدس آنذاك، وأعادت سحر خليفة صياغتها بإضافة بعض
الشخصيات المتخيلة، ومع ذلك تبقى الأحداث الأساسية كما هي.
قراءة تاريخية ممتعة.

خلود التيم الشحي: من أجمل الروايات التي قرأتها طوال حياتي.
انغرسَت في ذاكرتي بشكل فظيع. لا أعتقد بأني سأنسى تفاصيلها أبداً.
عشقت ولأءها لفلسطين ولحبيبها. عشقت لغتها وتصويرها للأحداث
كأنها تحصل أمام ناظري. جميلة أنت يا سحر. شكراً!

لذكراه شاعرا ومناجلا،

مع كل ربيع،

وكل المواسم،

سحر خليفة

بنى خذوا منى نصيحة والد	عركت نواصي الدهر والدهر قلب
كما الدهر عبد للجلود فإنه	وإن جمع الويلات بالحزم يغلب
لئيم إذا جس الطباع ضعيفة	كريم إذا يلقاه ناب ومخلب
سلاح الفتى طيب الخصال وعزه	عفاف وبأس في الشدائد يرهب
وخير سلاح للمصائب سمعة	تفوح جليل الذكر أيا يذهب
بنى أقلوا ما استطعتم عثاركم	فرب عثار للمكارم يسلب
ولا ترجعوا صفرا ليدين مؤملا	صنيع الفتى يبقى إذا المال ينضب

عبد القادر الحسيني

1

أعود اليوم لدار العيلة لأقوم بإصلاح ما تصدع ونخره السوس، وأجعل من الدار، دار العيلة، مكانا يُسكن، شيئا يُذكر وله تاريخ. ما عدت أطيع جو الغربة والطيارات والمطارات والبدء من جديد في كل مكان أذهب إليه. هناك عمان، قبلها بيروت، ثم لندن، ثم باريس وواشنطن، ثم المغرب، وأخيرا جئت إلى الضفة. شيء مزعج أن تحس أنك طَرْدُ آدمي متنقل في كل مطار. ما أن تستقر في مكان ما حتى ترحل. تبدأ من جديد، وما أن تبدأ باعتماد الجو حتى تنتقل إلى آخر، وآخر، وإلى آخره بلا نهاية، وبلا تحديد.

عزمتني زميلة، في القاهرة، على فنجان شاي في منزلها. رأيت الكتب ورغوف الكتب وغبار الكتب وأصص المدادة والخشاش في ركن عتيق من منزلها، وحديقة صغيرة خلف الدار فيها شجرة عمرها مليون، تحتها قطة تنام بهدوء وسكينة، فحسدت القطة والشجرة وحسدت الدار. سألت الزميلة عن عمر الدار وكم سنة سكنت في تلك الدار، فقالت عشرة. عشرة؟ عشرة! عشر سنوات في نفس الدار؟ حسدت الزميلة والقطة وحسدت الدار.

في هذه الدار ولدت أنا، وأمي وداد وسَيِّي زكية. على هذه الدار مرت أجيال، ومر احتلال وعواصف وزلازل رهيب جعل مدينتنا مقلوبة، رأسها تحت وأرجلها لفوق وحولها دمار وشظايا وغبار كثيف. وكذا الاحتلال، مثل الزلازل، وكذا المهجران والوحشة، وبقايا أهل هجروها وغابوا عنها، رحلوا عنها، همدوا، ماتوا، باتوا ذكرى في زمن عتيق متقطع، مثل سفرنا، يعني رحلات، يعني مراحل، وطَرْد

آدمي متنقل عبر محطات وقطارات ومطارات، ومراحل.
أنا كنت هنا منذ التاريخ، أقصد سنوات جرارة، خمسين سنة،
سِتِّين سنة، لا فرق كبير في عمر الزمن، أما الإنسان، فأنا نقطة، بل
فاصلة في سطر جديد وفقرة جديدة. لكن ما كُتِب من الأول، في أول
سطر يبقى معنا مثل التاريخ، والذكريات، والطفولة وصورنا القديمة
قبل التجاعيد وانحدار الخطوط في سحنتنا وأفول اللمة من العينين.

أنا كنت هنا حين كانت سِتِّي في عمري، وربما أصغر، أصغر
بكثير. كانت ما زالت في الأربعين، وفي الأربعين في ذاك الوقت، أقصد
أواخر الثلاثينات، كانت المرأة في الأربعين تبدو عجوزا. نساء الأربعين
في ذاك الزمن كن بصفائر مجدولة بعضها خمرى من الحناء وبعضها
رمادي وبعضها أبيض، أبيض مصفرّ. يلبسن الرمادي أو البني أو
الكحلي، سادة بلا زهر ولا تعريق، وله قصات مستقيمة، لا تتغير، مثل
الشوال بلا وربات ولا التواءات ولا حركات ولا زينة. يعني المرأة في
الأربعين تصبح جدّة، حجة وحماة، وختيرة.

لكن سِتِّي في ذاك الوقت، ما كانت ختيرة على الإطلاق.
كانت أمي، وأمي أختي، وأنا صغيرة ووحيدة بجو مثقل بقصص
الأبطال والشهداء والمعارك، وكلمة ثورة تدور وتدور مثل الساعة،
مثل العقرب، لا تتوقف. تبدأ من فوق ثم تنزل، وتعود ثانية إلى أعلى،
إلى رقم 12، مثل العقرب، يلف ويدور ويعود ثانية إلى نفس الرقم، ثم
ينزل.

في هذا الجو من كان هنا؟ سِتِّي وأنا، وخالي وخالي، وخالي
الآخر في السعودية، وأمي وداد. من ظل هنا؟ لم يبق أحد إلا سافر،
هاجر، ولّى، أضحى ذكرى. وأنا أعود بعد كل السنين لأصلح ما اهترأ
وتصدع بعد الزلزال، وقبل الزلزال، وأعيد إلى الدار بعض الرونق،
وأزيل الغبار.

في هذا المكان، تحت النافذة الشرقية، وعلى طراحة محشوة بصوف ناعم، وجهها قطني محرز بخطوط توتية وعسلية كانت سِتِّي تجلس صباحاً أمام الكانون. مع صلاة الفجر تجلس هنا تغلي القهوة وترش على النار حبات الهال وقشر الليمون حتى تخفي رائحة الفحم. تكون قد أعدت فطوراً بلدياً معتبراً: جبنه بيضاء نابلسية وزيت وزعتر ولبنة وحلاوة طحينية. تخرج أُمِّي معكدة المزاج من غرفتها. تقول صباح الخير بصوت ناشف. ترشف رشقات من القهوة، وهي تجلس على كرسي صغير من القش قرب الكانون، وأنا أجلس عند قدميها لتمشط شعري وتشده في ضفيري خلف ظهري. تقول سِتِّي بتودد: أعمل لك عروس؟ أُمِّي لا تجيب، فأقول أنا: عروسة لبنة. ومع العروس تبدأ رحلتها مع الأحلام، ما حلمت الليلة ومعنى الحلم. تبدأ بالجد ثم أموات منسيين يأتيهم الدور فرداً فرداً، ثم الأحياء، خالي وحيد، ثم خالي أمين، وخالي سمير في السعودية، ثم أُمِّي وداد وأخيراً أنا. تسرع أُمِّي في تمشيطي، فتسأل سِتِّي: سامعة يا وداد؟ أسمعها تنفخ من أنفها وتصفع ظهري صفعة خفيفة من غير ألم، وتقول بسرعة وهي تقف: سامعة، سامعة، يا الله قومي. فأسرع أنا نحو الجدة، وتسرع أُمِّي بلبس المريول، ثم الإيثارب، وتقول وهي تتجه نحو باب الدار: اليوم وبكرة نوبتجية. وسِتِّي تنادي: لقمة صغيرة تسند بطنك، ارحمي حالك. أعمل لك عروس؟ وتكون قد عملت تلك العروس، فأكلها أنا. تنظر سِتِّي تلك النظرة عبر الشباك فوق الياسمينه وشجر الخشخاش، وتهمس بحزن: مسكينة وداد، حظها ناقص! أقول بسرعة

كي تنسى الأسى: وأنا يا سِتّي ما سأكون؟ تقول برقة وحزن شفيف:
عروس، عروس، خذي كليها. أقول بغيط: لأ يا سِتّي، أنا لما أكبر ما
سأكون؟ تبتسم لي بسمة صغيرة: عروس، عروس، كلك أبيض، من
فوق لتحت كلك أبيض. أقول بذعر: يعني المريول مثل أمي؟ لأ يا
سِتّي، أنا لما أكبر بدي أكون... وأتوقف لأنّي لا أعرف ما سأكون، ولأنّي
أرى سِتّي تدمع وتمسح عينيها وتدمدم بتلك الآيات، فأحس بثقل في
قلبي ويملأني الحزن.

في ذاك الصبح من ذاك الصيف، وبعد خروج أمي للشغل،
قالت سِتّي:

- أنا شفت بالمنام، الله أعلم.

وسرحت ثانية عبر الشباك وأنا أتابعها وأتأمل لون العينين، زمّ
الشفيتين، لون البشرة، ومفرق شعرها بين الحناء. أحيانا تهمله، فيبدو
الشيب كخط مرسوم بالطبشور. ولون الحناء شراشيب ذرة، ولون
البشرة أبيض شفاف كالمرمر، حتى الشرايين الدقيقة تظهر واضحة
مرسومة، لونها أخضر.

قالت همسا:

- الليلة في المنام أنا شفت سيدك، وقال لي أروح عند خالك

وحيد.

كنت قد اعتدت تلك الأقوال، فلم أسأل كيف يقول من شبع
موتا في قبره وصارت عظامه مكاحل افعلي كذا أو سوّي كذا. كانت
أرواح المرحومين تحوم حولها في كل مكان، وأنا أيضا في كل مكان،
أخذها معي أينما أذهب، لدروس الدين وحفظ القرآن، ودروس
الخط والخياطة، وحتى التاريخ والجغرافيا. كنت قد أنهيت الابتدائية
وحفظت كتب السكاكيني، راس روس، والولد النظيف، والشمس

الذهبية عن ظهر قلب.

سألت سِتِّي باستعطاف:

- تاخذيني معك؟

قالت سِتِّي مؤكدة:

- طبعاً، طبعاً، صرت كبيرة! نجحت بدروسك بلا إكمال.

شاطرة، ذكية، هاتِ قشرة. كان سيدك يحب ريحة الليمون.

ناولتها القشرة بسرعة وهمة حتى تظل تعتمد علي، فتأخذني إلى أي مكان تذهب إليه. وعدت أتأمل وجهها بحب وشغف وأنا أكل عروس اللبنة.

سرحت ثانية بعينها عبر الشباك، وقالت بصوت خفيض كما لو كانت تتحدث مع المرحوم:

- روحه في الدار وعيونه معي، هو شافيني.

- وشافيني أنا؟

ابتسمت وهي تنكش الكانون وتهز رأسها مرة لليمين ومرة للشمال:

- مرات، مرات.

- يعني متى؟ لما أغلط أو أعمل صح؟

حين يصل الحديث لهذا الموقع وتكون أُمِّي في الدار، تصيح من بعيد:

- شعبنا أرواح وحكي فاضي، خيلنا نعيش زي كل الناس.

تهمس سِتِّي:

- مسكينة وداد! يجعل حظك أحسن منها. حظها ناقص، الله يعينها.

ولا أسأله عن سبب نقصان الحظ؛ لأنني أعرف ما القصة من

أولها إلى آخرها. أمي المهجورة المنسية، وزواج أبي من يهودية، وهروب أمي للمستشفى حتى تنسى ما حل بها. لكن أمي لا تبدو بحظ ناقص لأنني أراها، كما تبدو، سعيدة بعملها ومشغولة. أخذتني مرة لعملها في المستشفى، لأن سِتّي ذهبت لعزاء. هناك رأيت أمي تضحك وتقفز وتطير مثل فراشة، فراشة بيضاء بلا أجنحة لكن بقبعة مثل التاج، تطير هنا وتطير هناك والكل ينادي وداد يا وداد، وطبيب كبير سأل عني، فقالت بخجل: هذي بنتي نضال. نظر إليها، وسأل بتنغيم: بنتك نضال! وكأنه غير مصدق. ورجعت للدار وأنا أسال: لماذا قال بنتك نضال، وكأنه غير مصدق أن اسمي نضال؟ اسم نضال هو اسم ذكور واسم إناث، معظم الأسماء في عمري كانت أسماء مختلطة ولها معنى، نضال وجهاد وكفاح ووسام وما شابه، فلماذا لم يصدق أن اسمي نضال؟ ولماذا أصرت أن أناديها في المستشفى باسمها وداد؟ ولماذا الطبيب قال بتنغيم وكأنه غير مصدق: بنتك نضال؟! وكأن اسمي عجيب غريب.



أسموني نضال لأن اسمي كان التعبير عن المرحلة، ثم مراحل. من أسماي؟ أمي كانت بعد صغيرة، وبعد محزونة ومشغولة بهم أكبر. سِتّي موزعة حائرة بين ابنتها وابن أخيها. خالي وحيد كان مع الثورة والثوار. من ظلّ إذن؟ خالي أمين المتعلم، قالوا "شيوعي" وقالوا "بعثي وقومي سوري". ما عدت أذكر بالتحديد، لم أعرف قط. هرب إلى الشام ثم بيروت والتصق هناك، يعني هاجر، مثلي أنا، لكنني عدت لأستقر على سكن، جزء من وطن، وأموت هنا كما يموت البعير. من

أين جاء هذا التعبير "كما يموت البعير؟" خالد ابن الوليد؟ عمرو بن العاص أم صلاح الدين؟ كل الأسماء لها تاريخ إلا اسمي؛ لأنه فعل ناقص مثل كان وما زال وما انفك، فعل ناقص. وكأن النضال لا يتأتى إلا بالعنف! وكأن العنف لا يتأتى إلا بالسيف والبارودة وزرع الألغام! أنا ما ورثت إلا اسمي، فعل ناقص، وحملت بدل البارودة وزرع الألغام ريشة صغيرة فرسمت الدار، دار العيلة، وصور الأحياء والطبيعة، وخان التجار. قالوا من الصغر أنا فنانة، فصدقت الفن واعتنقته وحملته بصمة على جبيني. باطحت الدنيا كي أحمل ريشة صغيرة فيها ألوان وموسيقى وضوء ونسائم ومواويل. رسمت الجدة ورسمت البحر، رسمت الجبل ورسمت النهر، رسمت النساء في كل وضع يخطر بالبال، نساء ورجال ومواسم من غير حصاد في أرض بور. رسمت الزرع ورسمت الزهر ورسمت طبيعة صامتة فوق أرضية لا توحى بجمال الزهر. حملت لوحاتي ودرت بها في كل مكان. أقمت معارض وأتيليهات، ورسمت للصحف والمجلات ولدي الآن لوحة ضخمة في اليونيسكو، وأخرى أضخم في اليونيفام، وثالثة أصغر، صغيرة جدا، بممر الجامعة العربية. أنا فنانة، هذا ما يقال وهذا ما صرت وعلى هذا أموت. لكني الآن، في هذا العمر، وبعد الدوران مثل النحلة، وبعد الصخب وكل الأضواء، وبعد الإعلام والمنشآت وأغلفة الصحف والإعلانات، أجد نفسي الآن بلا صاحب وبلا مأوى. بقيت مثل السيف فردا. إن كان الأهل رحلوا مثلي، وأنا رحلت مثل الباقين، من ظل هنا؟ ما ظل هنا سوى هذي الدار. لهذا عدت هنا من جديد، لأجعل من الدار، دار العيلة، بيتي الأول هو بيتي الأخير: جاليري، ومتحف، وصور ورسومات وبراويز، مثل المعرض.

جاء النجار، وقال الخشب نخره السوس، فقلت استبدله. جاء

الحداد، وقال الحديد أكله الصدا، فقلت جدده. جاء المواسير جي، وقال المواسير مخرومة، موضة قديمة، وكذا الحَمَّام والمطبخ وبيت الراحة. قلت اخلع، كَسَّر، اقدح، كل المنخور والمكسور والمعث انزله لتحت. وجاء البليط والزجاج والمهندس وبيع العفش المستعمل، فقلت احمل، لا تبقى لي إلا الهيكل ويروستي وكانون النحاس وبعض اللوحات. بدأ العمل كخلية نحل وأنا انزويت في العيلة آكل وأنام في العيلة وأرتب أوراق الأهل والرسائل في صناديق تلو صناديق. كم تركوا لي من وثائق وصور ورسائل ومفاتيح! وكم وجدت في الأدراج والخزائن صورا وبقايا وتذكارات وقصائد مخطوطة لم تنشر! بجوار اسمي، هذا ما ورثت من العيلة، قصصا وقصائد منسية ودارا وذاكرة مهجورة.

2

قالت سِتِّي:

- اليوم نروح عند أم نايف نسأل عن خالك في عصيرة.
لم أجبها لكني أحسست بمزيج غريب من فرح مكبوت
وخوف غامض. كان الثَّوَّار قد ملأوا الجبال بحكاياهم. تفجير ألغام
وخطف جنود وقنص ومشاتق ومساجين. وكانت طائرات الإنجليز
تحوم في الجو مثل الغربان تقذف قنابل ومنشورات فوق القرى في
رؤوس الجبال. وناבלس محاطة بقراها كأم الأولاد، والقرويون، أحيانا
هنا وأحيانا هناك. يبدأ القصف فأراهم في سوق المدينة وباب الساحة
معظمهم نساء مع الأطفال يحملن سلال العنب والتين واللبن والحب
والخبيزة. لكن سِتِّي قالت لي إن النساء القرويات أقوى وأجدة. أجدة
ممن؟ أجدة من نساء المدينة، لأن سلال العنب والتين تحوي أشياء
ممنوعة تصل الثَّوَّار مثل خالك. يعني خالي مثل الثَّوَّار. يعني الثَّوَّار
مثل خالي. يعني خالي في القرية هناك مع الثَّوَّار. يعني خالي في القرى
هناك بين الثَّوَّار في رؤوس الجبال بين الصخور والمغر والشوك وشجر
الصبار. وأنا وسِتِّي نذهب مشيا لأن الجبال بلا شوارع ولا سيارات
ولا حتى حمير. قصة طريفة يرددها الناس عن اعتقال البغال والحمير.
أنا ضحكت وبكت سِتِّي وأمي صاحت: يخرب بيتهم، حتى الحمار؟!
كان الإنجليز قد أوقفوا قرويا وحماره. فتشوا القروي وحماره فوجدوا
شفرة، شفرة عتيقة صدئة مكسورة إلى نصفين، فقالوا عن الشفرة
أسلحة وعن الفلاح ناقل أجهزة ممنوعة وعن الحمار وسيلة نقل. اعتقلوا
الفلاح وأجهزته ووسيلة النقل اعتقلوها. ضربت سِتِّي يدا بيد، وقالت

والدموع في عينيها: منهم لله، جاييهم يوم. وذلك اليوم جاء فوراً. في ذلك الليل هجم الثّوار على دورية وأبادوها، عشرة، عشرين، ثلاثين، أربعين، لا أحد يعرف بالتحديد، لأن الأعداد تتزايد، في كل مرة تتزايد. مع الانتقال من دار لدار، من حي لحي، ومن القرية للمدينة، تزيد الأعداد وتتوالد، تصبح أكثر، أكثر بكثير. وكذا الثّوار، أكثر بكثير. والقتل والضرب والطيارات، أكثر بكثير.

قالت ستيّ:

- اليوم نروح عند أم نايف.

أم نايف تلك بياعة لبن وتين وفقوس. في موسم الصيف تأتي بالعنب والتين والفقوس ولبن وزبدة. وفي فصل الشتاء تأتي بالحلبة والفريكة وعدس وبرغل. وفي الربيع تأتي بالخبيزة والشומר والميرمية وسلال العكوب غير المعكّب. تجلس مع ستيّ في الليوان بعد أن تنهي جولتها على كل البيوت وتأخذان بتعكيب العكوب، وتنقيب القمح والفريكة، وتحكيان قصص الدنيا. أبو حمزة تزوج على مرته، وأم جابر زارت أولادها بسجن الرملة، ودار المختار اقتحموها مع آذان الفجر وما خلوا حاجة مطرحها. خلطوا الرز والسكر والسمنة، وشقّوا الفرشات والمخدات، وقلبوا الخزائن والديبّات وجرار الزيت والمرطبات وحتى الدجاجات طيروها. شو تقولي عليهم يا حجة؟

تجيب ستيّ، وهي ما زالت تنقب وتمسح العرق عن حاجبها:

- منهم لله، ربك كبير على كل ظالم، جاييهم يوم.

تهتف أم نايف بحرارة:

- إيّمتي يا حجة؟ إيّمتي ييجي؟ لا اليوم ولا بكرة ولا بعده،

خلص زهقنا، طلعت روحنا، نفسنا انقطع وحالتنا تصعب عالكافر. هم كفّار يا أم وحيد. اليهود كفّار والانجليز أكفّر. لا دين ولا رب

ولا حتى كعبة يزورها. حتى القيامة قاموها وربك شايف وسامع
وساكت! شو تقولي عليهم يا حجة؟
تقول سِتِّي مهدئة:

- يمهل ولا يمهل. حسابه شديد يوم القيامة. جايهم يوم.
تكاد أم نايف تبكي:

- إيمتي يا حجة؟ الناس هلكوا، واولادنا شردوا في الجبال
وطفحت الحبوس، والموسم راح على أصحابه. حتى الزيتون ما غلّ ولا
حمل، ولا دار الزيت في عروقه. قحل ومحل ويهود وانجليز، شو عملنا يا
ربي وسوينا؟ وابنك وحيد شيخ الشباب شو أخباره؟
تحدجها سِتِّي بتفحص:

- أخباره عندك يا أم نايف. عندك أخبار كل الثّوار.
تضحك أم نايف وتلوح يدها المدقوقة بوشم قديم:
- لا عندي علم ولا عندي خبر. ينصرهم ربي ويجبرهم،
قولي انشا الله.

ولا تقول سِتِّي انشا الله، بل ترفع رأسها وتحقق:
- أنا بدي وحيد، خبر عن وحيد، من تحت الأرض يا أم
نايف!

تحدجها أم نايف بنظرة حذرة:
- الصبر مليح يا أم وحيد، قولي انشا الله!

3

خرجنا مع الفجر وكانت المدينة ما زالت تصحو من النوم
 ببطء وخشوع. الشوارع خالية إلا منا، والسوق العتيق بلا زبائن،
 وبعض التجار يعلقون بضائعهم أو يكنسون أمام المحال ويشطفون
 الأرض بماء أسود، فنضطر للقفز وفحج الخطوات.
 قال أحدهم بصوت مشحوط من أثر النوم:
 - يسعد صباحك يا حجة.

ولم تكن سِتِّي حجة. كانت تنوي أن تحج في كل سنة، وكل
 سنة ترجى حجتها، لأن وحيداً ولأن أميناً ولأن سميراً ولأن وداً،
 كل بدوره يشغلها بمشاكله فتؤجل حجتها وترجئها لسنة أخرى.
 لكن الناس كانوا ينادونها يا حجة؛ لأنها من بيت شريف كله حجاج،
 ولأنها بنت المرحوم فلان، وأرملة فلان، وأم واحد من الثوار يسمونه
 شيخ الشباب. وبما أن ابنها يلقب بالشيخ والحاج فلان، فهي إذن مثله
 حجة، ولولا الحياء لأسموها شيخخة على وزنه.

تخطينا السوق وخرجنا من قلب المدينة نحو المقبرة الشرقية
 في سفح الجبل حتى وصلنا الطريق الترابية بمحاذاة المحاجر وشيخ
 العماد، ثم عصيرة، قرية أم نايف والثوار. هذا ما قيل، قالوا عصيرة
 بلد الثوار. اقتحمها الإنجليز عدة مرات، لكن الثوار في كل مكان،
 أحياناً هنا، أحياناً هناك، في مغر الجبال وبين الصخور وشجر الصبار،
 وبين الناس في السوق العتيق في المدينة وخان التجار. لا أحد يعرف
 بالتحديد، هم كالأشباح.

جلسنا على صخرة لنلتقط أنفاسنا ونأكل لقمة. لم نكن قد
 أفطرنا بعد، فأخرجت سِتِّي عرائسها وفلقات الجبن وحبات خيار.

كانت تلهث من أثر الصعود، وأنا أيضا ألهث وأحك مواضع الشوك والقريص أعلى قدمي. ورغم الأشواك كنت سعيدة. بالنسبة لي كانت نزهة، أواخر آيار، بداية العطلة الصيفية، بلا مدارس، وخروج من الدار العتيقة والسوق العتيق للبرية، والجو بديع، وزهور الجبل حمراء وصفراء ونهدية، ونباتات ذات روائح بعضها للأكل مثل الزعر والشومر والسيبعة، وبعضها كعلاج للسعال وتلبك المعدة والإسهال كالباونج، وبعضها للزينة والفرجة مثل الشقيق وقرن الغزال وبز البقرة. كانت ستي تعرف كل النباتات وتقدرها وتحكي عنها بإجلال غريب كما لو كانت لها أرواح. فتقول لي: هذا الشومر الله يرضى عليه ينفع للسعال وضيق النفس، وهذي الميرمية بنت أصول، سموها ميرمية على اسم ستنا مريم أم سيدنا عيسى عليه السلام، تنفع للمغص والكلاوي. وهذي الحلبة تدر الحليب، تغليها النفساء وتشربها فيطفح الحليب من ضروعها مثل البقرة. فأضحك وأقول: مثل البقرة؟ لكن ستي لا تضحك بل تحكي عن النباتات بجدية، كما لو كانت لها أرواح.

أنظر إلى المدينة من فوق وأحس أني بطيارة. كأني أركب طيارة. أنا لم أركب طيارة. ركوب الطيارات للطيارين، يعني الإنجليز، يعني اليهود، يعني قنابل. لكن هناك في ذاك الجو بين الأزهار والنباتات والصخر الأبيض ونسيم آيار مثل نيروز. قالت ستي مثل نيروز يعني عيد الربيع والورد والزهور عند البهائيين في حيفا، لا هم إسلام ولا مسيحيين ولا حتى يهود. ما دينهم إذن؟ هي لا تعرف وأنا لا أعرف سوى أن نيروز هو عيد الربيع وهواء الجبل ورائحة العشب وزهور البرية والألوان، مثل نيروز. قالت ستي:

- هناك، بعيد، على مد النظر حفاف البحر. شايقة الأزرق؟
نظرت مليا ولم أر الشط الأزرق، ولا بحر ولا نهر ولا
سفينة. لكن سِتّي قالت لي إن أخاها، هناك في حيفا، لديه مراكب
وسفن ولنشات فيها بضائع، أغنى منّا، أغنى بكثير. لكن الحالة
مستورة، حالتنا نحن، أما سيدي، فأغنى بكثير.

التفتت إلي:

- أكلت يا سِتّي؟

نظرت إليها ونظرت إلي، وتبادلنا تلك النظرة، هي نظرة
حب، ونظرة إعجاب وتدله شبيه بالعشق. كانت تقول: أنتِ روحي،
وأنا أقول: أنتِ حياتي. وهذا فعلا ما كنا نحس. بالنسبة لها كنت أنا
أكثر من طفلة وحفيدة، كنت حب الكبر وغرام الشيب، كما كانت
تقول. كنت المتنفس لعواطف امرأة باتت أرملة وهي ما زالت في
العشرين، والآن كبرت وصارت حجة واختيارا وعلى حافة قبرها، كما
كانت تقول. أسمعها تقول حافة القبر فأكاد أجن لأن سِتّي، بالنسبة
لي، ليست ختيارة على الإطلاق. كانت ترفع شلالات الطحين
والسكر دون مساعدة ودون عناء. وتصعد على سلم الحاكورة
لتقطف الليمون والخشخاش، فتصيح وداد، يعني أُمي:

- يا أُمي ناوية على وقعة؟ تكسري حوضك تكسري
رجلك وأنا أبلش فيك وأتورط.

فتخفض عينيها عن الشجرة، وتنظر إليّ وتغمزني، وتقول

لي:

- شايقة أمك؟ مش خايقة علي، خايقة تتورط وتبلش فيّ.

إنسي الموضوع.

ولا أنسى لأنّي أحتار بين الاثنين. فأنا بالفعل أخاف عليها

مثل أمي وداد، لكنني أيضا أرى من حقها صعود السلم وقطف الليمون ورفع السحاحير على السدة ثم المشاوير الطويلة لزيارة المقبرة الشرقية والغربية، حيث أموات من سبقونا وزيارة الأقصى حين نزور خالي أميناً ثم التسكع في حارات وأسواق القدس. سِتِّي قوية. سِتِّي ذكية. سِتِّي نشيطة. أقوى من أمي بما لا يقاس، وأحلى من أمي بما لا يقاس، وأعذب وأرق، فيها عواطف. لكن عواطفها نحوي غير عن وداد، يعني ابنتها. وحين تغار أمي مني، تقول سِتِّي بلا ابتسام، وكأنها تؤكد حقها في أن تحب حفيدتها أكثر: ما أعز من الولد إلا ولد الولد. فتسكت وداد على مضض، وأبتسم أنا؛ لأن سِتِّي تغمزني وتهمس لي بصوت مسروق: أنت روحي. وأنا أقول: أنت حياتي.

4

دخلنا القرية مع آذان الظهر، ورأينا الرجال يتجهون نحو مسجد صغير وسط البلد. وسط البلد هو شارع ضيق فيه إسفلت، شبه إسفلت، مليء بالحفر والتراب والقش وبعر الغنم، ويحيط به خرفيش الربيع والخبيزة، وعلى الجانبين دكاكين صغيرة وفقيرة أمام حواكير لدور من اللبن والتبن، تختفي بين الخوخ والتين والمشمش، وخلفها حقول العدس والفول والبندورة.

التفت إلينا بعض الشباب، أما الشيوخ فغضوا الأنظار، ووقف الأولاد أمام الدكاكين وعلى البسطات ينظرون إلينا كما لو كنا من المريخ؛ لأنني أنا بشكلي المدني: فستان وضمائر بشرائط وحذاء لميع مع جرابات، بعكس الأطفال في القرية، معظمهم حفاة بشعر منفوش، بلا شرائط، ولا لميع ولا جرابات. أما ستي، فكانت بالغطوة كعادتها ومنديل كثيف على وجهها يخفي التفاصيل.

مشى الأولاد خلفنا وعلى الجانبين بصمت وفضول، ولمحت طفلة على مصطبة مدت لي لسانها تسخر مني، وصاح شاب متفاصحا: إمش ولّه إنت وهو، عيب، انضّبوا. لكن الأولاد ظلوا وراءنا وعلى الجانبين حتى وصلنا دكان بقال ينطلق منه صوت مذياع يغني أغنية مصرية.

وقفت ستي أمام الدكان، وألقت التحية مثل الرجال:

- السلام عليكم.

رفع البقال حاجبيه كما لو تفاجأ، وأجاب بفضول وترحاب

مبالغ فيه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
 والتفت إلى الأولاد من حولنا:
 - إمش وْله أنت وهو، عيب، تحشموا!
 لم يلتفت إليه الأولاد، وظلوا ينظرون ويتتظرون.
 قالت سِتِّي باقتضاب سريع:
 - وين دار أم نايف الله يخليك.
 صاح ولد:
 - أنا أعرف دارها لأم نايف.
 وصاح آخرون:
 - وأنا أعرفها.
 قال البقال وهو يشير بإصبعه نحو بعض الدور:
 - بآخر الشارع على يمينك، واجهة من طوب بين الزيتون.
 وْله أنت وهو، يا الله غوروا.
 ركض الأولاد أماننا نحو تلك الدار، ليبشروا أم نايف
 بمقدمنا، وليثبتوا معرفتهم الأكيدة بأم نايف ودارها المزروعة بين
 الزيتون.
 خرجت أم نايف لتعرف من جاء لزيارتها. كانت مشمرة
 الذراعين وتضع طرف ثوبها في زنار عريض من الصايا ومن تحت
 الثوب، بدا لباسها الطويل حتى القدمين مثل السروال، أبيض كامد
 بلون مغبر. أمَّا رأسها فظهر مفرعا من دون غطاء، فبدت جدائلها
 النخيلة سوداء بلا شيب رغم كبرها، فقد كانت بعمر سِتِّي أو أكبر،
 وفي فمها بعض الأسنان فيها فجوات وتعاريج وعلى ذقنها وشم
 أخضر.
 وضعت يدها فوق عينيها من ضوء الشمس لترى من

نحن، وكان الأولاد حولها ينتظرون قدومنا بفارغ الصبر. هي تريد أن تعرف من القادم لزيارتها، وهم أيضا. وحين رأتنا وعرفت من نحن صفقت بيديها، ووضعت يدها فوق فمها وأطلقت زغرودة خافتة، قصيرة جدا، لتظهر فرحها ودهشتها وكتعبير أكيد عن شرف عظيم ألم بها، فها هي سيدة مدنية، بنت الأصول، تأتي إليها لزيارتها، وهي القروية الفقيرة، بياعة اللبن والفريكة، فهل هناك شرف أعظم؟ في تلك الأثناء، أحسست بيد تمتد إلى ثوبي وتشده. ضمنت ثوبي إلى ركبتي بسرعة وإجفال، والتفت لأرى ما الأمر، فرأيت الطفلة الصغيرة، من مدت لسانها تسخر مني، صغيرة جدا، أصغر مني، وأقصر بكثير، شعرها منبوش بلا تمشيط، ووجهها كالح من غير لون، وإن كان أميل إلى السمرة، ثوبها مشرشر بلا أزرار، لونه توتي بزهرة أصفر، وبدون حذاء في قدميها. التقت أعيننا بنظرة جامدة حذرة، أنا خائفة جفلى، وهي بلا خوف ولا تعبير في عينيها، ويدها ما زالت تمسك بثوبي وتشده. لهذا أحسست براحة غريبة وأنا أدخل دار أم نايف، لأختبئ من الطفلة الصغيرة وجوقة أولاد.

دار أم نايف غرفة واسعة معتمة فيها طراريح على الأرض، وزير ماء في زاوية أقرب ما تكون إلى مطبخ، وباب يؤدي إلى حظيرة فيها غنمات ودجاجات وأرانب.

جلسنا على الأرض فوق الطراريح، وشربنا الشاي بالميرمية، وبدأ الهمس بين الاثنين وأنا أسمع وأحاول أن أفهم وأتابع. لكن أم نايف قالت لي إن العنزة، واسمها وضحة، قد ولدت بنتا صغيرة بحجم القطعة، فهل أحب أن أراها؟ التصقت بسّتي وهزرت رأسي بخجل وفضول، لأنني أريد أن أسمع على ما يقال. لكن أم نايف ألحت أن أخرج لأشاهد الأولاد وهم يلعبون «دقة واجري» فلم

أتجاوب والتصقت أكثر بحضن سِتِّي.
 قالت سِتِّي: طيب خليها مش مشكل. فبدأت أم نايف
 تتحدث بلغة الألغاز. جاءوا، ذهبوا، طلعوا، نزلوا، أكلوا، شربوا،
 وعملوا العرس بين الزيتون وأكوام القمح، حرقوا القمححات.

سألت سِتِّي بدهشة وفضول:

- مين يا سِتِّي حرق القمححات؟

لكزتني سِتِّي كي أسكت، وقالت لأم نايف باهتمام: آ،
 وبعدين؟ وأكملت أم نايف حديثا لم أفهم منه إلا شذرات.

كنا ما زلنا نشرب الشاي حين تدفقت النساء على أم نايف.
 هذه تقول أنها جاءت لاقتراض بيضتين، وأخرى جاءت لشراء لبن،
 وثالثة جاءت لأنها مشتاقة لأم نايف وتريد الاطمئنان على أخبارها،
 ورابعة وخامسة حتى امتلأت الغرفة والطراريح بنساء من كل
 الأعمار. وكلما ازداد العدد، ازدادت التصاقا بحضن سِتِّي، وسِتِّي
 بدت كمديرة مدرستنا الابتدائية، لأنها تجيد الحديث بلغة القرآن
 وأمثال وتعليقات تجعلها تبدو كمديرة مدرسة بين النساء القرويات.
 لكن لم تمض سوى دقائق حتى انقلبت الآية واختلف الوضع. إذ
 أخذ السباق على البطولة يحمى ويشدد. هذه تقول خبأت البارودة
 والديناميت تحت الزبل، وثانية تقول في فرش العجين، وثالثة قالت
 إنها وضعت المسدس في جونة اللبن، وحين مر الانجليزي انشقت
 الأرض عن الفدائي وسحب المسدس من تحت اللبن وقتل الضابط
 وأعاد المسدس لموضعه فأخذت تنادي: لبن يا لبن، مين بدّه لبن؟

أخيرا قالت كبيرتهن، وهي كما تبدو ذات صول وجول في
 القرية ومع الثَّوار:

- يا أم وحيد، ابنك ما شا الله شيخ الشباب، والله الناس

يحكوا عنه ويقولوا بطل، لكن شفناه؟ لأ ما شفناه. مرات يقولوا
اشتبك مع الانجليز، ومرات يقولوا قطع الطريق وقتل عشرة ويمكن
عشرين، الناس يقولوا وإحنا نسمع. لكن شفناه؟ لأ ما شفناه. لكن
تكرمي، لك عندي أسأل وأدور حتى ألاقه. مليح يا حجة؟
هزت سِتِّي رأسها بيأس وقنوط. وفي تلك اللحظة، بدت
أبعد ما تكون عن مديرة مدرسة، أو حتى معلمة مستورة وعلى قد
الحال.

5

ناداني الدهان:

- يا ست نضال، هذي اللوحة لازم تنزل.
دخلت الغرفة، غرفة خالي، خالي أمين المثقف، ابن الأحزاب،
شراء الكتب والمجلات، فوجدت الأرض مليئة بالكتب والجرائد
والمنشورات، وقصاصات من تلك الصحف القديمة: صور ورسوم
ومانشيتات. «الانجليز ينوون الرحيل»، «لجان التحقيق فشلت
وخابت»، «المفتي صرح من منفاه»، «والنشاشيبي ينفي التصريح».
قال الدهان وهو يرمقني بملل وفضول وبيده مجرود ضخم
وعلبة معجون:

- يا ست نضال، هذي اللوحة، وهذي الكتب وهذي
الأوراق، بدنا نشتغل!

ناديت شابا كان يقتلع الأعشاب من ساحة الدار، وقلت له:
تعال احمل. لكنني حملت تلك اللوحة، وذهبت بها إلى العليّة حيث أنام
وأقوم وأعيش الزمن من الأول، من خلال أوراق ورسائل ومقالات لم
تنشر بعد.

وضعت اللوحة فوق صناديق الأوراق والصور والتذكارات،
وجلس على السرير ثم تمددت، وسرحت بنظري في اللوحة، لوحة
عيبال، وحرش الصنوبر في القمة فوق المحاجر وشيخ العماد. حين
رسمت تلك اللوحة كنت في الحادية عشرة، وقد أصبحت فنانة، بل
هاوية، برعم هاوية، أرسم لوحات بالطبشور وألوان الماء. لم أكن بعد
قد تمرست بخلط الألوان. لم أكن انتقلت لدهان الزيت. تلك اللوحة،

لوحة عيال، كانت مرسومة بألوان الماء، وكانت ألوانها قد بدأت تخبو وتغيم، وكأن الزمن فعل باللوحة ما حل بنا، بدأنا نخبو والثورة تغيم. لكن هل غامت أو غابت؟ مثل الساعة، تبدأ من فوق، ثم تنزل تحت، وتعود ثانية للأعلى، وبلا توقيت!

خالي أمين رأي أرسم صورة فنان من مجلة، محسن سرحان. كنت أحب محسن سرحان! كنت مراهقة صغيرة أحلم بشاب جميل لطيف، يكبر ويصير رجلاً قويا يحميني، يأخذ بيدي ويقبلني ويحملني ويطير فوق عيال وقمة جرزيم، ويقول لي إني حلوة وإني بريئة، وإنه جاء ليخلصني من ذاك الجو، جو الخوف والتوتر، ودموع ستي. نظر إلى الصورة المنقولة وضحك علي، وقال مقهقهة: محسن سرحان! ما زلت ترسمين محسن سرحان! أهذا ذوقك؟ محسن سرحان؟

كنت قد رسمت محسن سرحان عدة مرات، في كل مرة أنقل صورته مكبرة أكبر وأكبر، وفي كل مرة أخطئ في نقل عينيه أكثر وأكثر. عين واضحة صحيحة، وعين عوراء أو حواء أو مطفية، بؤبؤها يخرج عن المركز فتبدو حواء أو عوراء أو مطفية. لكنني واطبت على نقله حتى أحظى بمحسن سرحان، الرجل الشهم المخلص، حبيب النساء. خالي المثقف لم يقنع بمراوغتي. قال الأحلام والأفلام ونقل الصور من المجلات شيء لا يغني ولا يثمر. هل هذا فن؟ هل هذا حياة؟ هل هذا جمال وعواطف؟ الفن عمق وتجلي. محسن سرحان؟ أين حياتك؟ أين الواقع؟ أين التاريخ؟ أين الرؤيا؟

لم أفهم ما قصده بالتاريخ وبالرؤيا، لكنني فهمت أن ما أقوم بنقله ليس حقيقة وليس الواقع، وأهم من ذلك ليس جميلاً، لأن خالي

فسر الأمور بشكل ساخر جعلني أقرف من رسمي ومحسن سرحان. قال بجدية وتفلسف: كأنك تحلمين كما نحلم بشيخ يخلصنا من الواقع ومن هذا الهمّ. فبدأت أتخيل محسن سرحان هو ذاك الشيخ، بلفة بيضاء وجبة طويلة ولحية كثة وصوت مليء بالتهديد.

توقفت عن الرسم عدة أسابيع حتى ضبطني، وقال بعتاب: يا محسن سرحان يا إمّا بلا؟! أهذا هو الفن؟ وأعطاني كتباً لرسامين رسموا الواقع، ورسموا الأفكار، ورسموا خيالات عن الجنة أو جهنم، رسموا الموناليزا وأفروديت وكيوبيد الحب ويسوع المسيح. وعشت مع دافنتشي ورفاييللو وبوتشيلي وسيزان وفان خوخ وبيكاسو. بدأت أفهم معنى الرسم. بدأت أفهم أن الرسم يعني الواقع، واقع معجون بالرؤيا وحركة تاريخ فغاب عن عقلي وخيالي محسن سرحان كما غاب الشيخ بلفته بلفته تاريخ.

بدأت أرسم من الواقع، سِتّي، أمي، شجر الخشخاش والياسمين، وقطة بيضاء تنام بهدوء تحت الشجرة، ثم عيال، وحرش الصنوبر في القمة، حيث التقينا أنا وسِتّي بخالي ومجموعة من الثوّار، كما التقيت بحبي الأول، الولد الشاب ابن القرية بقمة عيال. في ذاك الوقت، كانت الثورة قد هدأت، أو انهدت من داخلها، ومن الخارج. بدأت حلوة، قوية، نقية ثم اندثرت. وفي ذاك الوقت، حين كانت ما زالت نقية، التقينا في الحرش، فوق القمة، خالي ومجموعة من الثوّار، وحبي الأول.

أراها الآن فوق الصناديق المحشوة بأوراق العائلة والرسائل، وقصائد خالي المنسية، فتمثل لي زمناً ولّى وما زال يدور عقرب ساعة، يبدأ من فوق وينزل لتحت ثم يرتفع إلى القمة، إلى رقم 12، وأنا أنتظر وأتأمل وخيالي يدور وذاكرتي تجعلني أغوص وأتوغل في ذاك الحرش، قبل أن أوغل في الذكرى، والحب البعيد، حبي لأول.

6

في ذاك الحرش التقينا، أنا في بداية مراهقتي، وحبي الأول أكبر مني، أكبر بقليل. في ذاك العصر لدى أم نايف، وبعد الغداء، سمعنا انفجارات بعيدة. هرعنا إلى الخارج كي نعرف وِسْتِي تتلو سور القرآن. رأينا شابا يأتي من الغرب، يركض ركضا، والخطّة تموج وترفرف حول رأسه، وحين وصلنا سمعنا لهائه وكان مخيفا، يلهث ويزجر مثل الثور ويلوح بيديه ويقول كلاما لم نفهمه. كل ما فهمناه كان شذرات: روحوا، الإنجليز، يا الله روحوا!

كان الأولاد قد توقفوا عن اللعب ووقفوا على بعد مسافة أمتار، وقد علت وجوههم سياء الجد، بدت وجوههم مثل الكبار، جامدة خائفة تترقب. ولم تمض سوى دقائق معدودات حتى رأينا طيارة، ثم اثنتين، ثم ثلاث، تحوم وتدور فوق الجبال المحيطة، ثم تصلنا فتدور وتلف حول عصيرة وكروم العنب والزيتون.

رأيت ولدا يمسك بحجر يصوبه لفوق، للطيارة، وهو ينادي كما لو كان يزجر قطة وهي تفهم عليه: يا الله امشي، يا بنت الكلب. روحي من هون، امشي، روحي! ودب الحماس بين الأولاد فأخذوا يرشقونها وهم ينادونها بأقذع الألفاظ. كانت الحجارة ترتفع لفوق ثم تهبط فوق رؤوس الأولاد، فيقفزون ويتطايرون هنا وهناك وهم يضحكون. بدت المسألة أقرب ما تكون إلى لعبة، لكن اللعبة صارت خطرة حين اقتربوا منا وبدأوا يرشقون قريبا منا وحجارتهم تعلو أمتارا عن الأرض ثم ترتد إلينا، تهدد رؤوسنا ورؤوسهم على حد سواء. كان الأولاد أسرع منا وأقدر على الهرب من وابل الرشق والحجارة،

فأخذت أم نايف تنهرهم وتهدهم لكن صوتها ضاع مع أزيز الطيارة وصخب الأولاد. فاستدارت إلينا وطلبت منا الدخول إلى الدار كي نحتمي من الطيارة والحجارة، فابتعدنا قليلا ووقفنا عند العتبة نحتمي بواجهة اللبّن، نراقب الطيارة والأولاد حتى ابتعدت وبدأت تلقي بقذائفها قريبا من الحرش وشيخ العماد، فركض الأولاد خلفها وهم ما زالوا يقذفون الحجارة وينادونها: يا بنت الكلب.

حين ابتعدت وخلفها الأولاد وخفتت الأصوات والحركة، بدت القرية شبه خالية من السكان. كل الرجال المسنين توجهوا نحو الجامع، والنساء دخلن بيوتهن، وأبواب الدكاكين أقفلت ولم يبق أحد في وسط البلد وأمام الدور والحواكير، وبدت القرية أشبه ما تكون بمقبرة هامدة تخلو من الحركة والسكان.

أطلّ ولد طويل نحيف، أكبر من ولد، وأصغر من شاب، ووقف في الباب ونادى: سِتّي! وحين رأنا فوق الطراريح أجفل وارتد خطوة إلى الوراء، فصاحت تناديه:

- تعال يا ربيع، ادخل سِتّي.

أسرعت سِتّي تلف رأسها بمنديلها الأسود؛ لتغطيه فقالت أم نايف مبتسمة:

- هذا ربيع، يخلي حبايبك، ابن ابني نايف يا حجة. ادخل سِتّي ما حدا غريب.

رفض الدخول وظل واقفا في العتبة خلف الباب، وقال بصوت بدا أقرب إلى صوت النساء المدخنات:

- الرجال في الجامع يقولوا لك خلي ضيوفك الليلة عندك، فرضوا الحصار.

كان وقع الخبر على سِتّي مثل الزلزال. جمدت وصفنت ثم

حكّت بعض الكلمات، وهي تلتفت إليّ وكأنها تستنجد بي:

- أمك وخالك، الليلة الخميس!

وفهمت سبب مخاوفها. كانت خائفة على وداد أن تفتقدنا،

وعلى أمين ألا يجدنا، لأنه اعتاد زيارتنا كل يوم خميس، فماذا تفعل؟

همست سيّتي، وهي ما زالت تلتفت:

- لو فيه تلفون!

قال الولد - الشاب وراء الباب:

- عند المختار.

قالت أم نايف مؤيدة كي تهدئ من روع سيّتي:

- فيه تلفون عند المختار. قومي نروح عند المختار.

أسرعنا نلبس أحذيتنا ومشينا بسرعة خلف الولد - الشاب،

وكان سريعاً فاستوقفته أم نايف وهي تلهث:

- ولّ يا سيّتي، مفكرنا شباب!

كنت ما زلت صغيرة، وأقترّب بخطى سريعة نحو

البلوغ، لكنني أحسست لأول مرة، أن هذا الولد، أو هذا الشاب، أهم

بكثير من محسن سرحان، أحلى وأروع، أقرب وأبعد، أكاد ألمسه بيدي

هذه وهو عني بعيد، فبدأت أعي حرقه الإحساس بالرغبة في عمر

صغير.

وصلنا دار المختار، وكانت خالية إلا من زوجته المريضة،

كانت تجلس عند الشباك على طراحة. مدت يدها تشير إلى التلفون،

وهي ما زالت جالسة تحديق فينا تتأملنا من غير كلام. كانت عجوزاً

ومريضة. قالت أم نايف إنها خرساء وطرشاء من نقطة نزلت على

رأسها، وهي الزوجة الأولى، أم الأولاد، لأنه تزوج عليها.

حكّت سيّتي بالتلفون. اتصلت بوداد في المستشفى، وكان

الصوت بعيدا يعلو ويهبط ويتقطع، وسِتِّي تصرخ: سامعتيني؟ أنا مش سامعة! وتلتفت وتقول: الصوت واطي، كأنها تحكي من اسطنبول! وأنا أحدق بوجه سِتِّي وأسترق النظر إلى المرأة زوجة المختار المريضة، ذات النقطة، وأحاول أن أتبين النقطة تحت اليانسن، وكذلك أحس بوجود الولد الشاب، الولد ربيع.

كان خلفي، قريبا من الباب، وسِتِّي وأم نايف في المدخل عند التلفون، وأنا بالقرب من أم نايف، وربييع خلفي. لكنني أحس بوجوده وأكاد أسمع أنفاسه، وقلبي يدق وأنفاسي تعلو وتهبط على أنفاسه. هل كان يحس بوجودي كما كنت أحس؟ أنا لا أعرف. أنا حتى الآن لا أعرف. أنا لم أسأله. لكننا قلنا ما يكفي بعد ذاك الحصار، أي بعد سنين، وكأن السنين ترجع للخلف. وكأنني الآن في تلك السنين! وكأن من كان هو الأول سيكون الأخير!

خرجنا من الدار ونحن ما زلنا نتساءل إن كانت سمعتنا وداد أم لم تسمع، وأم نايف تؤكد بحرارة أن التلفون فعل فعله وأن مفعوله شبه أكيد، لأنه دوما يتقطع ويخشخش، لكنه دوما يُسمع. هذا ما يحصل في العادة. يظنون السامع لا يسمع، وإذا به يسمع جدا، يسمع بلا ريب، يسمع ويفهم، ويصله الكلام بوضوح تام رغم التشويش والتقطع ورغم الإنجليز. فهدأت سِتِّي، وقالت: إنشا الله وعلى واه ويا ريت، لأن وداد كالمجنونة، إذا افتقدتنا ولم تعرف أين غبنا ستصاب بسكتة أو نقطة. كما أن أمين - الله يرضى عليه - اعتاد زيارتنا كل خميس. ينام الخميس ويقضي الجمعة ثم يتسهّل بعد العصر، يوم الجمعة.

سألتني أم نايف باستظراف:

- مين تحبين، خالك أمين أو خالك وحيد؟

التفت إليه، وكان يمشي بعيدا عنا مسافة خطوات، لكنه

يسمع ويراقب ويتسمم بسمّة خفيفة. أحسست بالخجل والخرج، لأن السؤال يجعلني أبدو صغيرة، ولست صغيرة. أنا ترفيع على السادس، وأمي وعدتني بصدرية مع أن صدري بالكاد حبة حمص، أكبر بقليل، بحجم الخوخة، خوخة هرمية مبرومة من نوع أبو زقم، تكاد تحترق صدر الفستان، فأهدّل كتفيّ حتى أخفيه.

أعادت السؤال:

- خالك وحيد أو خالك أمين؟

أردت أن أقول «خالي وحيد» لأنني أعرف قيمته وأهميته لدى الثّوار والفلاحين، ولأن اسمه كان يتردد طوال زيارتنا للقرية بدون انقطاع، ولأنني أعرف أن الولد، الولد - الشاب، من اسمه ربيع، لا بد قد سمع عن خالي وحيد، وربما يعرفه، أو يعرف عنه. لكنني تذكرت أن خالي أميناً هو من يدلّني ويحضر لي في كل خميس قصص الأطفال والمنفلوطي وكعك بسمسم من كعك القدس، كل يوم خميس. خالي أمين هو من أعرفه، هو من أراه، هو من أتمنى أن أكبر وأصبح مثله، مثله بالفهم والعلم والمحبة؛ لأنه محبوب من قبل الجميع. لكن وحيداً هو الأشهر، هو الأهم، شيخ الشباب وأبو الثّوار.

أعادت أم نايف السؤال:

- طيب بلاش، مين تحبين، أمك أكثر ولا ستك؟

نظرت إلى ستيّ ونظرت إليّ وتبادلنا تلك النظرة، نظرة الحب المعهودة، لكن عيني المسحورة بجانب رأسي كانت تراه وتتجاوب مع أنفاسه. ولأول مرة أحسست بنظراتي تتذبذب وتفلت مني، ولم أحس أنني بحاجة لأن أقول: «أنت حياتي» حين تهمس «أنت روحي»، لأنني ضائعة، غائبة، قلبي يدق، وركبي تسيل.

7

الولد الشاب طير عقلي، استولى علي. ما عدت أرى إلا خياله
ولا أسمع سوى رنة صوته. أوصلنا الدار وفارقنا، لكن عيونه ظلت
معي كغمامة بيضاء ترافقني وتحاصرني وتجعلني أهييم كالمذهولة. ما عاد
في الدنيا ما هو أهم من رؤيته والتنفس مع أنفاسه. هكذا فجأة، انقلبت
الدنيا وانقلبت أنا وما عدت أفهم عن الرحلة وسبب الرحلة سوى
أن سرا إلهيا جاء بنا إلى هذا المكان، قمة عيبال، فوق الأشواك والطرق
الوعرة والصبار، حتى التقي بمن أيقظني كما أيقظ الأمير الجميلة النائمة
في بيت الزجاج وجعل منها مليكة قلبه وعروس الجن. بت أنا هي ست
الحسن، ملاك يطير، جنية زرقاء سماوية تعيش في دنيا وردية بعيدا عن
الآخرين بمشاكلهم ومآسيهم وتنأى عنهم كي تحظى في خلوتها بخيال
يتراءى خلف السور، من بين الشجر، من الشباك، من خلف الباب.

تركت الدار وخرجت إلى الشارع أبحت عنه بين المارة، بين
الأولاد، تحت الشجر أو هناك في البعد عند المسجد ودار المختار. ولم
أجد في الشارع المحفر والمترب إلا الهدوء والسكينة وقد خلت الأماكن
من الحركة بسبب ما حدث في المدينة، والطيارات، وغروب نزل على
القرية وألبسها غمامة سحرية فيها ظلال وروائح تنز وتثال من الطابون
والزبل الحار ورذاذ الغبار. كان الأولاد قد تركوا خلفهم حجارة
مرصوفة على شكل أعمدة صغيرة وكرات صنعت من القماش، وآثار
لعبتهم مع الطيارة اللعينة، وما خلفته تلك اللعبة من رشق وتراكض
ونعف غبار. وبدا المكان موحشا حزينا، لكنني كنت مأخوذة بإحساسي
ومخيلتي ونظرة عينيه.

خرجت أم نايف تناديني من أجل العشاء والتهيؤ لنوم مرتجل فوق الطراريح، فجلست بعيدا عن سِتِّي مسافة أشبار، فنظرت إلي بعينها تسأل ما بي أو تزجني وقد ظنت أني آنف من النوم على طراحة، أو من أكل شحيح لا يعجبني، فاستدرت بعيني أهرب منها حتى لا تحترق ما في صدري وتعرف سري. لكنها فاجأتني بقولها: وداد أكيد سمعت صوتي. تعالي يا سِتِّي، بكرة انشا الله البلد تفتح. فأحسست بقولها يزعجني ودعوت الله ألا تفتح.

في ذاك المساء، في عز النوم، أحسست بيد تربت كنفني وسِتِّي تقول بصوت هامس: قومي يا سِتِّي، قومي بلا صوت وبلا حركة. فتحت عيني ورأيت خيال أم نايف يتحرك بعيدا عني، قريبا من الباب ورأس سِتِّي القريب من وجهي ملفوف بيانس أبيض كالفلاحات، وقد سقط عليه نور شاحب من نافذة فوق رأسي. قالت همسا: خالك وحيد، يا الله قومي.

اعتراني الخوف، لأنني أعرف من هو خالي وما أجواؤه، وودت لو تركتني نائمة فوق الطراريح وذهبت وحدها وأبقتني هناك، في ذاك الجو، جوه هو من أيقظني وجعلني أطيّر فوق سحابة. لكنني سمعت رنة صوته، أو خيل إلي، فهبيت بسرعة وارتطمت بها فقالت سِتِّي: اسم الله عليك، على مهلك، مع الآذان نسري سروة عند خالك وحيد.

سمعت صوته يستعجلنا: يا الله يا جماعة تأخرنا!

صوته هو، أنا لا أخطئه حتى ولو بعد مليون سنة، غُتته هو، نغمته هو، وبعض الحروف من أنفه. فقمّت بسرعة كالملدوغة ونفضت ثوبي المجعد وشرائط شعري المدعوكَة وتحسست شعري وعيني من بعد النوم، ثم الطراريح، شيء مخجل، شيء مذهل، هو من يأخذنا إلى خالي في هذا الليل! أخذت أفحج فوق الطراريح.

مشينا في الليل، والقمر يضيء مسالكنا، والحصى يجرش تحت أقدامنا يחדش الصمت، وبعض الديوك تكاكي للفجر وأنا وسَيِّي، يدا بيد، وهو أمامي، يمشي بسرعة ويتلفت، يستعجلنا، ثم يعود لنفس السرعة، من غير صوت، وكأن الحصى يتقصدها وينسأه هو، والقمر يضيء يانس سَيِّي ولون قميصه، وأنا أسير كالمأخوذة في ذاك الجو، وذاك الإحساس باللهفة والانتظار لما سيأتي، فإلى أين نسير؟ ومتى سنصل؟ وهل يظل ربيع معنا؟ وهل ربيع هو مع خالي؟ وهل ربيع مثل الثوار؟ وأحسست بشيء من الاعتزاز وكثير من الخوف، لأن وجوده مع خالي يعني أقرب، أقرب مني، أقرب من خالي ومن سَيِّي، وفي نفس الوقت يعني أصعب، لأنه محفوف بالأخطار وعمل الثوار، وهذا الجبل. بعد نصف ساعة أو أكثر وصلنا الحرش. كانت سَيِّي ما تزال تتلفع باليانس كالفلاحات وثوب طويل لا أعرفه ولا أدري من أين اقترضته أو جاءت به. كان جديدا، أشم رائحة القماش وأنا ألمسه وأحتك به. هل جاءت به في كيس الأكل أم اقترضته من أم نايف، وأنا غافلة ذاهلة أحلم بخيال الولد ربيع؟ المهم في الأمر أن شكلها اختلف عن السابق، باتت واحدة من القرية، وأنا ظللت بنت مدينة في ذاك الجو. أما هو فقد بدا أقرب إلى المدينة من سَيِّي في ذاك الثوب. كان يرتدي بنطالاً كاكيا وقميصاً أبيض، وحول عنقه، حطّة منقطة بالأسود. كان يبدو مختلفاً عن يوم الأمس، بدا أكبر، حركاته فيها جدية وصوته في الصباح بدا أخشن. فأحسست بغربته عني واعتراني الخوف من ألا ينتبه إلي أو لا أعجبه.

وصلنا الحرش، وكان محاطاً بسلسلة حجارة مقتلعة من أرض الجبل، أي كالسلاسل المعهودة التي تحيط بكروم العنب وتحدد أراضي الفلاحين. وخلف السلسلة رأيت رجلين ملفعين بحطط الثوار، أو هكذا بتنا نتعارف على الحطّة، أن الحطّة رمز الثوار، فاقتدى الناس

بالحطة واعتمدوها بدل الطربوش، وبات الإنجليز لا يعرفون من الثائر من بين الناس، لأن الجميع هجروا الطربوش.

صاح أحدهم فدوى صوته في سكون الجبل: «مين أنت مين؟» وسمعت سكيك البارودة وكلمة «استعد»، فسقط قلبي ووقفت مكاني وتسمّرت، فشددتني ستي، وقالت لي بلهجة غليظة: يا الله، امشي. فانصعت للأمر لأنني سمعت ربيع يصرخ: الدار أمان، معنا الزوار. والآخر يرد: أهله وسهله شرفتوا الدار، من باب الشرق. فالتفت ربيع إلينا وقال بجدية وصوت مشقوق: من باب الشرق. وكأننا نعرف أين باب الشرق! ثم تقدمنا بعدة خطوات ومشى يلتف حول السلسلة الشرقية حتى وصلنا بابا من سياج حوله أكوام التتش وشجر الصبار. دخلنا ممرا تريايا بين الصخور وشجر الزاب، وكانت أشجاره عالية تحتها بلوط وفستق حلبي وجففات عنب بين الجذوع وأعشاب البر. وكانت رائحة الشجر ونثيث الصنوبر والطّيون تملأ الجو بعطر مسكر جعل الدنيا تبدو أحلى من واقعها. فها نحن ندخل في القمم، عرين الثوار، حيث الإنجليز ضربوا الأشجار وحرقوها بحثا عنهم. ورأينا أشجارا محروقة وأخرى مخلوعة ومرصوفة بشكل حواجز، ورجالا متورين بين الصخور وتحت البلوط. وكانوا جميعا بحطّات بيضاء أو منقطة وملابس كاكية أو سوداء.

بين الأشجار، تحت رف حجري على هضبة صغيرة صخرية تعشش فوقها أغصان المدادة البرية، رأينا مغارة مربعة الشكل، مما ورثناه عن الرومان أو اليونان، ومما نراه في كل مكان في البرية، وعلى باب المغارة وقف اثنان بالحطّات والكاكي وأحزمة الرصاص. قال أحدهم دون أن ينظر إلينا: تأخرتوا. فلم يجبه ربيع، والتفت إلينا، وقال لنا وهو يطاقى: وطواروسكم، فطأطنا ودخلنا المغارة بصمت تام.

المغارة واسعة كغرفة كبيرة، سقفها عال، أرضها ملساء، وجدرانها تبدو منحوتة كما لو كانت مصنفة لتصبح سكنا شبيها بالبيت. وكان في السقف قنديل لو كس أبو طربوش مما نضيء به دورنا، وبجوار الجدار فراش ملفوف ومكوم وإبريق شاي وأواني طعام، وكلها سوداء مشحرة بشحار الحطب وبابور كاز معطوب الرأس. أما الرائحة فكانت مزيجا من الميرمية والنوم والعفن والطحالب وأحذية الرجال. جلسنا على كوم الفراش بانتظاره، وجلس ربيع على الأرض بعيدا عنا مسافة خطوات قرب المدخل، وعقد ذراعيه على ركبتيه. كان النهار قد بدأ يضيء في الخارج ويجعل من باب المغارة طاقة نور. لهذا حين دخل خالي لم نتيين إلا شبحا كأشباح الرجال، دون تمييز، لأنه بالكاكي والخطّة وجاكيث منفوخ جعله يبدو مربوعا بدون ملامح. وقفت ستيّ لأنها عرفتة رغم شكله، ولم تقل شيئا بل فتحت ذراعيها ولفتهما حول عنقه فبدت أقصر، وبدا أطول، وظل الاثنان بلا حركة سوى صوت النفس واحتكاك القماش ونحنة الرجال من الخارج.

حين افترقا، قالت ستيّ: هذي نضال. فقال مرددا: نضال؟ نضال! ومد يده وداعب رأسي وأمسك ذقني يرفعها إليه فرأيتة عن قرب، رغم الخطّة، تحت الفانوس، وبدا وجهه غريبا عني لا يشبه ما اعتقدت أنه خالي، لأنه كان أبعد ما يكون عن خالي أمين. خالي أمين كان أبيض الوجه بشعر أملس وذقن مخلوقة وشارب رقيق ومحدد. أما هذا، فوجه أسمر لوّحته الشمس وربما حرقته، ولحية كثة وشارب منفوش بلا تشذيب.

سمعتة يقول فوق رأسي: كم كبرت نضال! كما لو كان يتأسف، لأنني كبرت بعيدا عنه. فقالت ستيّ بصوت مبحوح: ونحن كبرنا!

لمحت ربيع ينزل رأسه على ركبتيه كأنه يحمي وجهه، وربما
عينيه حتى لا تريا ما نراها فيتأثر.

8

قالت سِتِّي إنها ستطبخ للثَّوار أكلة بيتية محترمة، فقال خالي إن الحال لا يسمح بالأكل والشرب والتنعُّم، لأن الأوضاع صعبة جدا فما زال الانجليز يلاحقون الثَّوار في كل مكان. بالأمس فقط ضربوا رويين وبلعا وطولكرم وذنَّابة، ونسفوا الدور واعتقلوا المثات، فلماذا جاءت في هذا الوضع للبرية، لرؤوس الجبال، ومعها طفلة، (يقصدي أنا) لتثير اللغط بين النساء في القرية، وبين الرجال في المسجد، فتلفت الأنظار إلى مكانه، لأن الجواسيس في كل مكان.

زعلت سِتِّي لأنه لم يقدر مشقتها في الوصول إليه، كما لم يقدر عواطفها كل هذي السنين، ربما لأنه لم يجرب قلب الأم، ولا قلب الأب. وعادت للقول كعادتها لو كان له ولد، لو كان له بنت، لخاف عليه وعليها مثل روحه، لأن الولد أعز من الروح ومن نور العين. لو كان له ولد، لو كان له بيت، هل كان يعيش بهذا الشكل؟ ثَّوار كثر تزوجوا ولهم أولاد، لهم بيوت، لهم زوجات، وهو بلا بيت ولا زوجة وبلا أولاد. لهذا يظل في البرية وفي هذا الحرش بلا نظافة ولا لقمة حلوة ولا سرير مريح ولا زوجة، ولا مرآة ينظر فيها فيرى نفسه كم تغير وكيف شاب، وهو ما زال ابن ثلاثين!

لم يجبها رغم عبوسه والتفت إلى ربيع وطلب منه أن يأخذني ليريني الأرانب وعش العصافير. تلكأ ربيع في القيام من جلسته عند المدخل، ربما لأنه مثلي يريد أن يستمع إلى رد خالي وما سيقول بعد ذاك الهجوم، فقد كان الوضع يثير الفضول. فقال خالي بفراغ صبر:
- قم يا ابني، يا الله تحرك.

ثم نظر إلي، وقال بجدية وغيظ مكبوت:
- وانت يا نضال، يا الله قومي. أنا عندي كلام لازم أحكيه.
لازم أنفاهم مع ستك. يا الله قومي.

قمت بتلكؤ أنا الأخرى حتى لا أبذو متلهفة على الخروج من
المغارة إلى نور الشمس ومع من؟ مع من استولى على عقلي ومخيلتي
وجعلني أحس أني بطلة في كتاب جديد للمنفلوطي أو قصة شبيهة
بقصة سنو وايت أو ماجدولين.

مررنا بالرجلين عند المدخل فلم يلتفتا إلي، كما لو كنت بعد
صغيرة! وأغلب الظن أن خالي أيضا، حين أسلمني للولد ربيع، كان هو
الآخر يعتبرني طفلة صغيرة لا تستحق الخوف عليها من عيون الرجال.
فمشيت بخجل خلف الولد الشاب وأنا أراه خجلا مثلي، يمشي
بسرعة، كما فعل بالأمس، وما بين الفينة والأخرى يتوقف كي ألحق
به دون أن يلتفت ولو مرة! مشى بامتداد الممر الترابي ثم بدأ الصعود
بين الصخور نحو قمة الهضبة التي تغطي سقف المغارة، حيث المدادة
والأعشاب تصل خصره، فكان يميلها بيديه حتى اخترقها ثم يواصل
السير والتسلق معتمدا يديه، وأنا مثله، من أجل الوصول إلى القمة.
أعلى القمة كانت هناك صخرة رهيبة، كبيرة جدا، تقف ممدودة فوق
المكان كلسان يمتد في وجه الأفق، ونرى منها كل الدنيا وحدود البحر.
فوق الصخرة رجل يجلس ناداه ربيع بعمي أبو طير. فوقف
الرجل ومدّ لنا يديه الاثنتين ليساعدنا كي نصل إليه فوق الصخرة،
حيث يتمركز لكشف المكان مستخدما منظارا ضخما قال إنه من مخلفات
الجيش العثماني، يعني قديماً مثل سلاحه وسلاح الآخرين، لكنه نافع
جدا، أحسن من بلاش! بهذا المنظار يكشف المنطقة بأكملها، من وادي
البادان والفاعرة حتى الساحل وحدود البحر. يكشف الوديان من

أولها إلى آخرها، كما يكشف أعشاش الحساسين والعصافير والسلاحف وبيوت النمل والثعابين. «خذي شوفي.» فحملت المنظار بحذر ورهبة خوفاً عليه من سقوطه، وكان هو الآخر يمسكه بيده ويساعدني كي أنظر من خلاله، فرأيت العصافير كل واحد منها بحجم النسر ورأيت الحمام كل واحدة منها بحجم الفيل. ورأيت أطفالاً فوق أسطح الدور في المدينة، ونساء ينفضن الفراش وينشرن الغسيل، ورفّ حمام اقترب منا، وكاد يصطدم بالمنظار ثم اكتشفت أن الحمام في أعلى السماء وأن النساء فوق الأسطح نقطاً سوداء لولا المنظار.

قال ربيع موجه الكلام إلى أبو طير: خليها تشوف عشّ الشنار. قلت بانفعال: والأرانب. ضحك الرجل، وقال إن الأرانب لا تستقر في أي مكان، وإن على من يريد رؤيتها أن يظل يراقب في المنظار مدة طويلة حتى تخرج من جحورها المحفورة بين الصخور. لكن العشّ هناك، بين الأغصان. نظرت ورأيت عشا ضخماً فيه عدة فراخ تفتح أفواها واسعة كي تلتقط الحب من فم الأم. وبدت الفراخ كطيور الرخ وما أراه في كتب الأطفال وكتب خالي. كانت أفواها مفتوحة مثل الكهوف وأفكاك الثعابين التي تستطيع ابتلاع إنسان كبير أو بقرة. فأبعدت المنظار عن عيني، وقلت برعب: طيور الشنار هذي مخيفة. فضحك ربيع لأول مرة، وقال موجه الكلام لرجل المنظار: بنت مدينة! وكأن بنت المدينة شيء معيب أو مخجل! فشعرت بالغيط وخيبة الأمل، لأنني أحسست أنني بنظره بنت مدينة، يعني دلوعة وخويّفة، يعني تافهة وسخيفة، يعني لا يحس بأهميتي ولا يشعر بي! احمرّ وجهي، وقلت بغيط: ماها المدينة يا أستاذ، مش عاجبتك؟ لم يجيني بل استدار بوجهه نحو الأفق، وقال بجدية رجل كبير، كما لو كان يتحاشاني:

- أنا شايف هناك حركة غريبة، شايف، شايف؟

أمسك أبو طير بالمنظار وتفحص المكان وهز رأسه، وقال
موجها الكلام إلى ربيع:

- عيونك ما شا الله زي الصقر، مضبوط، مضبوط، الجيش
يتحرك براس العين، روح قول للشيخ، قل له التفتيش براس العين.
انزل، طيران، انزل قل له.

بغمضة عين كان ربيع قد قفز عن الصخرة وبدأ يطير بين
الصخور وفوق الأعشاب وأنا أراقبه وقلبي يخفق. كنت ما زلت أشعر
بالغيط لأنه أهملني ولم يرد علي حين تحديته وقلت له: ما لها المدينة يا
أستاذ؟ ولأنه بالأصل قال عني بنت مدينة، وكأن المدينة شيء مخجل،
وكان الفلاحين أحسن منا، وكأن الفارق بين المدينة والفلاحين شيء لا
يمكن نسيانه. وهذا ما كان، شيء لا يمكن نسيانه، على الأقل في ذاك
الوقت.

جلست على طرف الصخرة وأنزلت رجلي كما فعل أبو طير
وأنا أفكر ما سأقول حين يرجع وهل هذه نهاية الحب؟ وانتبهت كيف
صنفت إحساسي أنه حب، وأنه من طرف واحد، وأن هذا الحب انتهى
نهاية مفاجئة أليمة، كما حدث لما جدولين، وأناي سأتألم أبد الدهر!

سألني الرجل:

- الشيخ خالك؟

سألت بدهشة:

- الشيخ؟ أي شيخ؟

ابتسم لي، وبانت أسنانه مسودة من أثر التبغ، وغارت ندوبه في
وجهه حرقته الشمس، لكن عيناه كانتا حنونتين كعيني الأم، بل الجدة:

- الشيخ قحطان قائدنا.

لم أجب عن السؤال، لأنني اعتقدت أنه يسخر من اسم قحطان،

فعلق مجاملا:

- الشيخ قحطان، والله سيد الرجال.
قلت بسخرية لئيمة:
- الشيخ قحطان من المدينة.
قهقهة لتعليقي كأنه نكتة:
- من المدينة؟ مالها المدينة يا بنية؟ على راسي وعيني المدينة،
كلها بكوات وأفندية.
قلت بسخرية مفتعلة:
- يعني خالي أفندي وأنا بيكة؟
قال بسرعة:
- استغفر الله! الشيخ قحطان سيد الرجال، معقول أغلط
بحقه وحقك!
- لازمني الشك من أن يكون هذا المسمى أبو طير، الذي يبدو
لطيفا وطيبا وبعينين مثل عيني الأم أو الجدة هو الآخر يسخر مني كما
سخر ربيع، فقلت بحدة:
- الشيخ قحطان مات من زمان.
قال بدهشة:
- الشيخ قحطان قصدك الكبير أيام زمان؟ مالنا وماله؟ احنا
يا بنتي أولاد اليوم، واليوم والله حالنا ما يسر. الله يلعن الزمن المرّ.
وربما شعر أنه استطرد بكلام أكبر مني، فقال باسمًا ليلطف
الجو ويلاطفني:
- وبأي صف أنت يا شاطرة؟
قلت بكبرياء:
- أنا أمهيت الابتدائية.

- ما شاء الله! وبتقري مليح؟
- قلت بجدية واستهجان:
- طبعا أقرأ.
- وتكتبي مليح؟
- طبعا أكتب.
- وصمت لحظات، ففاجأته:
- وأنت تقرأ؟
- قال بحسرة:
- أنا أقرأ؟ الواحد مثلي كيف يقرأ!
- ولا تكتب؟
- بزamani كنا على البركة. لا فيه مدارس ولا كتاتيب.
- طيب وربيع؟
- ربيع يقرأ، يقرأ الجريدة ويفهمها. لكن مسكين من بعد أبوه
- تغير حاله.
- يعني أبوه مات؟
- لا يا بنتي، راح بحاله، ما لنا وماله!
- إذن ربيع كيف تغير؟
- مالك يا بنتي بهالسيرة، ما لنا وماله.
- وكان شاطر ربيع؟
- قال بحماس، ربما كي يبعدي عن ذكر أبو ربيع:
- ربيع كان شاطر بمدرسته، من الصبح يروح على المدينة،
- يمشيها مشي، ولا يوم قصر.
- سألت بفضول لأستدرجه:
- واليوم قصر؟

رفع يده يستوقفني وأنصت باهتمام، فسمعت الأعشاب تتقصف. التفتُ لأرى من جاء، فلمحت خالي وخلفه ربيع يقتربان من موقعنا. وحين وصلا، تناول خالي المنظار من يد أبو طير ونظر فيه وهو ما زال واقفاً فوق الصخرة يراقب ما يجري في الجبل المقابل. وحين تأكد قال لربيع:

- انزل يا ربيع نادي أبو عارف وأبو صايل. وأنت أبو طير خلي عينك على طريق دير شرف، أوعى تغفل، يمكن يغفلونا بثاني هجوم.

وسمعت خالي يوجه إلي الكلام فوق رأسي:
- وأت يا نضال، صرت كبيرة. بكرة من الصبح أنت وستك ترجعوا للدار.
قلت بارتباك:

- بمنع التجول كيف نرجع؟
- أنا تفاهمت أنا وستك. يا الله، تعالي.
وأمسك بيدي يساعدي على النزول عن الصخرة. وكان ربيع قد سبقنا واختفى بين الأعشاب وجذوع الشجر. وحين وصلنا المغارة كانت سِتِّي ما زالت مكانها فوق كوم الفراش وهي مقطبة الجبين بلا حركة.

بعد دقائق، رجع ربيع ومعه رجلان دخلا المغارة مترددين، فصاح خالي بصوت آمر: ادخل. فدخلا وعيونهما مغروسة في الأرض لا يلتفتان، بل تقدما من خالي الذي انتزع اللوكس من سقف المغارة وتوجه وهما خلفه إلى المؤخرة القصوى للمغارة وجلسوا على الأرض وهم يشيرون بأيديهم ويتهامسون بتعليقات غامضة أقلقتنا، فقد كانت أصواتهم تنم عن القلق، وكان ربيع يركع على الأرض خلفهم يراقبهم،

وقد بدا هو الآخر مشدودا يتنفس بسرعة، ربما لأنه ما زال يلهث من أثر الركض، وربما لأنه كان قلقا مثلهم، فأحسست بخوفه ينتقل إلي، وبحزن عليه وعلى وضعه، لأنه مثلي بلا أب، ولا مدرسة، ولأنه يعيش في هذا الجو، ونسيت زعلي، لأنه قال بنت مدينة.

9

مع آذان الفجر، وحين سمعنا الساعة تعلن رفع حالة منع التجول، نزلنا إلى المدينة كما جئنا، وهذه المرة يتقدّمنا ربيع. أصرّ خالي على مرافقة ربيع لنا حتى يضمن سلامتنا، وربما كي يضمن عدم رجوعنا وتشيت نواياه. كانت نيته أن يهجم هو ومجموعته ويفجروا شاحنة للجيش في رأس العين حتى يخففوا الضغط عن المجموعة المحاصرة في مغارة في جبل الطور. كنا سمعناه أنا وسَيّ وهو يخطط مع رجاله، وسمعنا أيضا أنهم سيغيرون مواقعهم وينتقلون من ذاك الحرش إلى مكان آخر لا نعرفه.

ربيع كعادته يمشي بسرعة، يقفز قفزا، ثم يتوقف لنلحق به. لكن سَيّ كعادتها لا تخضع لأمر ولا تحذير. صحيح أنها وافقت على الخروج من المغارة ومغادرة الحرش والرجوع إلى نابلس بلا تأخير، كما أمر ابنها، إلا أنها لا تريد تنفيذ الأمر على طريقته هو، بل على طريقته هي. لهذا أصرّت على زيارة ضريح شيخ العمد والصلاة ركعتين عن روح الشيخ المبارك حامي الجبلين. وحين اعترض ربيع، قالت بغضب: - أنا لا يمكن أمر عن شيخ العمد من غير ما أسلم على روحه وأصلي ركعتين في مقامه. هذا وَليّ، هذا مبارك، شيخ العمد وَليّ مبارك. نظر إليها وقال بجديّة وتحفز:

- لأ يا حجة، شيخ العمد لا شيخ ولا وَليّ ولا مبارك. كان قائد جيش.

حين قال ذلك كنا نقف أمام المدخل ولا يفصلنا عن المقام إلا خطوات، وكانت الشمس قد بدأت تطلع لكن ضباب الصباح يغطي

نابلس ببخار كثيف مثل الوشاح ومروج القطن، فلا نرى من المدينة إلا الجبال المحيطة، وزرقة الأفق، واللون الذهبي الساطع لأشعة الشمس، وهي تنعكس على الصخور البيضاء وقمم الجبال. رأيته تدخل المقام رغم التحذير ولا تستمع إليه، فتلفت حواليه وقد أسقط في يده، وقال بحيرة وهو ينظر إلي كما لو كان يفسر فكرته وأقواله:

- كان قائد جيش مع صلاح الدين. درست عنه في التاريخ؟
هزرت راسي نفيا لأنني لم أصل بدروس التاريخ إلى ذلك ولم أعرف عن شيخ العمد إلا ما قالته ستي وما يردده الناس. طبعا أعرف عن صلاح الدين والصليبيين وما شابه، لكنني لم أسمع ولم أعرف سوى أن شيخ العمد وليّ مبارك وحامي الجليلين.
قال مؤكدا وهو ينظر إلي:

- عماد الدين زنكي هو شيخ العمد.
هزرت كنتفي ولويت شفتي لأنني لا أعرف، ولا يهمني أن أعرف إن كان شيخ العمد هو عماد الدين زنكي أو صلاح الدين. كل ما كان يهمني في ذاك الوقت هو أن أتأمله وأحس به وألفت نظره. كنت أتحرق على نظرة أو لفظة تشعرني أنه يهتم أو يشعر بي. لكنه كان يقف أمامي حرنا مغتاظا ومتوترا لأن ستي تعطل مسيرتنا وما أوكل إليه. فاقتديت بستي وتركته واقفا لا يتحرك، ومشيت خطوات كي أجلس على صخرة بعيدة عن المدخل مسافة أمتار. رأيته أبتعد، فقال بدهشة:

- على وين؟!
أشرت إلى الصخرة ثم جلست وتجاهلته، أو ادعيت أنني أتجاهله، وقلت ببرود:
- أنا تعبانة.

صمت على مضض، وعاد يتلفت حواليه ويراقب المدينة

المختبئة تحت الضباب، وقال بحيرة:

- الدنيا ضباب!

لم أجه، وادّعت أني لا أسمعه، لكنني كنت أفكر بما قاله أبو طير عن مدرسته وعن أبيه والأمر الغامض حول أبيه، فأين أبوه؟ أهو مسجون مثل الباقين؟ أهو فار ومختبئ من الإنجليز؟ أهو مخطوف أم ميت؟ وما هي علاقة ربيع بخالي وكيف وصل إليه؟ وماذا يعرف عن خالي؟ وهل يحبه؟ وماذا حدث لأبيه ولماذا ترك مدرسته.

قلت محاولة استدراجه:

- قال لي أبو طير عن مدرستك.

رأيته ينتبه ويحدق لكنه لم يعلق. فقلت وأنا أمضغ عشبة خضراء قطفتها للتو:

- كل يوم أمر بمدرستك وأسمعهم ينشدوا النشيد ويقرأوا

القرآن.

استدار بوجهه ومشى خطوات ليخفي توتره أو يبتعد عن سماع ما أقول فأهملته، وقمت من مكاني ودخلت المقام، ورأيت ستي تصلي أمام قبر مغطى بقميash أخضر ونور شحيح ينز من نافذة صغيرة في صدر الجدار، ورائحة البخور والرطوبة وصمت رهيب يلف المكان، فأحسست بالرهبة تملأني وخفت من القبر. أسرع خارجة من حيث أتيت ووجدت ربيعاً يجلس على صخرة بجواري، أي حيث كنت، ويمضغ عشبة مثل عشبتي، فأحسست بالفرح والإثارة ودق قلبي. جلست مكاني بعد أن قطفت عشبة أخرى وأخذت أمضغها مثله. قلت بعد فترة صمت وأنا ألوح بالعشبة:

- هذي اسمها رجل الحمامة.

لم يعلق، فأشرت إلى نبتة أخرى قريبة منه:

- وهذي اسمها قرصنة وناكلها.
- التفت إلى النبتة، وقال مؤكداً:
- آ، قرصنة وناكلها.
- قلت مستعرضة معلوماً كي استدريج وألفت نظره:
- وهذي فجيلة وطعمها حار مثل الفجل، وهذا شومر.
- توقف عن المضغ والتفت إلي، وقال بدهشة:
- وكيف عرفت هذي الأسماء؟
- أردت أن أقول «سَيِّ قالت» لكنني قلت بلؤم ساخر:
- بنت مدينة!
- ابتسم ابتسامة صغيرة شبيهة بابتسامته يوم خرجنا من دار المختار بعد التلفون، فتشجعت، وقلت بجرأة استغربتها لكنها خرجت مني بلا تحضير:
- أبو طير قال لي انك كنت شاطر بمدرستك وكنت الأول.
- قال بتجهم:
- مش الأول.
- قلت بفضول:
- يعني الثاني؟
- ولا الثاني.
- إذن الثالث.
- استفزّ، وقال محتداً:
- مالك ومالي؟ إن كنت الأول أو الأخير مالك ومالي؟!
- قلت بغیظ:
- طيب بلاش، الحق علي!
- واستدرت بكتفي حتى يفهم أنني زعلت، أو على الأقل، أنني

-
- مستاءة من جموده، ولزمت الصمت.
- قال بعد فترة صمت:
- بأي صف؟
- سألت ببرود:
- أنا والا انت؟
- انطلق فجأة فأدهشني:
- أنا كنت ترفيع على الثانوي وخلص، خلّصت. اليوم لا مدرسة ولا تدريس.
- لم أعلق، لأنني خفت إن أنا سألته أن يغضب. عاد ليسأل:
- بأي صف؟
- قلت بلهجة مفخمة حتى يفهم أني كبيرة:
- طالعة ترفيع على السادس.
- ابتسم لي، وقال مغيظاً:
- ومعك إكمال؟
- صحت بانزعاج مفتعل وأنا أضحك، لأنني شعرت أنه يريد
- مماحكتي:
- أنا معي إكمال؟ لا أنا شاطرة.
- ابتسم بخبث:
- يعني الأولى؟
- حاولت تقليده بصوتي وحركات وجهي:
- مش الأولى.
- يعني الثانية؟
- ولا الثانية.
- إذن الثالثة؟

ضحكت، وقلت بصوت حاد:

- مالك ومالي؟ إن كنت الأولى أو الأخيرة، مالك ومالي؟ !
قهقهنا معا ولم نتوقف حتى سمعنا سَيَّي تقول، وهي تقف عند

باب المقام:

- خير انشا الله؟ إنجليزي مات وإلا يهودي؟
ولم تنتظر الإجابة، لأنها توجهت مباشرة نحو سلة الأكل،
وقالت بارتياح:

- صليت ركعتين ودعيت لكم. يا الله نفطر.
وأكلنا الفطور، ونحن نختلس النظرات، ونتبسّم، ثم نحمرّ.

10

فتحت عيني على صوت حسون يغني لشقشقة الفجر. شيء غريب، نفس الحسون؟ بل ابنه أو حفيده أو حفيد حفيده أو من نسله. هذا الحسون، أقصد ذاك الحسون، كانت له قصة قديمة مع أهل الدار. كان يجيء قبل الشروق ليوقظنا ويحيي ثانية مع الغروب ليودعنا. يملأ الدنيا بأغنية ذات مقاطع ولها سلم. يبدأ من فوق ثم ينزل لتحت ويتموج ثم يقرقر كما لو كان في أرجيلة، وينهي الوصلة بالرجوع لفوق، مثل الساعة. كل شيء هنا مثل الساعة، يدور ويلف ويعود ثانية من حيث بدأ، مثل كل الناس ومثلي أنا وهذي البلد والمدينة وباب الساحة. حتى الأغنيات تتكرر وتظل في البال نغمة حزينة كنسيم الصيف وغروب الشمس وأذان الفجر، تبعث فينا ذكرى وحنين للماضي والأهل والناس والشوارع وروائح تنقلنا بغمضة عين لما عشناه ويظل في القلب وجعا فينا.

فتحت الشباك على مصراعيه، وكان مفتوحا أصلا، لكن الليل يرخي برودة تنخر في العظم فأردُّ الدرفات مواربة ولا أغلقها. حاولت أن أرى ذاك الحسون، على أي غصن، على حافة السور، أو بين ثنايا الياسمين، فهبَّت رائحة الياسمين وزهر الليمون وسمعت أغنية قديمة من راديو بعيد في الحارة تغني لبيت العز والعريشة والحب والأمان وجو العيلة. وتذكرت فيلما مصرية كنا رأيناه في الستينات، قبل النكسة، بعد النكسة، أو ربما ما بين النكسة والنكسة، وعشنا قصة الفيلم مع زكي رستم وبناته وفائزة أحمد تغني لبيت العز والعريشة وحنان الأهل وجو العيلة. وانتهت القصة بفاجعة، ككل الأفلام المصرية في ذاك الوقت،

بضياح العزّ وشرف البنت وشرف العيلة. في ذاك الوقت، في كل فيلم، كل البيوت تتحطّم بسبب البنت وشرف البنت وشرف العيلة. قصة مكرورة حفظناها نحن البنات وساهمت في خواتنا وتفرغنا حتى بتنا مثل الخشبة وإبريق الزيت. إبريق الزيت حدوتة قصيرة أو نكتة تبدأ بسؤال: هل تعرف قصة إبريق الزيت؟ وتنتهي بسؤال مكرر يثير الأعصاب: إن أنت عرفت أو لم تعرف هل تعرف قصة إبريق الزيت؟ ونظل نكرر ذاك السؤال حتى تصاب بالاختناق من الملل وفرطة الروح. هذا ما كان في الخمسينات والستينات قبل النكسة. وبعد النكسة صارت لنا قصص أخرى مع بيت العزّ والعريشة وشرف العيلة. ما عادت البنت هي المحور، صار الاحتلال والجرفاة والنسف والخلع والبلدوزر، وشرف العيلة! نسينا قصة زكي رستم وبيت العزّ وتمحورنا في بيت خراب متآكل، كيتي هذا، لكني أحاول إصلاحه.

سمعت طرّقا على البوابة الحديدية في ساحة الدار مع أن الجرس الكهربائي بدأ يعمل. يوم الجمعة، وكل الناس يوم الجمعة يظلون بقمصان النوم والبيجامات حتى صلاة يوم الجمعة. وعمال الترميم لا يعملون يوم الجمعة. كل الأدوات مركونة، منشار النجار وحديد الحداد والألمنيوم وزجاج الزجاج وسطل الدهان وفرشاته، كلها مكومة مركونة لصق الحائط، فمن يجيء لزيارة دار مهجورة وأنا بلا أهل ولا صاحب ولا أحد يعرف عن رجوعي إلا العمال والياسمينية وحسون الصباح؟!

ناديت: مين؟ وأنا أسرع بارتداء الروب فوق قميصي وأكاد أتعثر بسطل الدهان، فسمعت امرأة تناديني: افتحي يا نضال!

شيء غريب، من يعرفني؟ من سمع بي؟ من يرصدي؟ فتحت الدرفة فتحة صغيرة تكفي للنظر من شق الباب فرأيت امرأة بعمرى،

ربما أصغر، وهي أيضا بقميص النوم تحت روب بيتي من المخمل ويدها صينية فضية عليها إبريق وفنجاني قهوة وأزرار فل في كأس ماء. فاحت القهوة مع عبير الفل وابتسامة جميلة وضّاء من وجه أبيض مثل الفل، وأسنان بيضاء لؤلؤية، وشعر أملس ملفوف برولات وينزل حلقات على الكتفين. قالت بلهجة طبيعية وبسمة حلوة:

- نحن جيران الحيط بالحيط، أنا جئت أسلم وأبارك وأقول يا جارة نورِ الدار.

هذا إذن هو حبس الدم، حوش الأغنياء حين افتقروا! إن أنت غبت، أو حتى مت، يظل من يعرفك أو يعرف عنك أصلك وفصلك ومن أين جئت ومتى ولدت وأين دفنوك. شيء جميل يرد الروح وينعش القلب وأنت على باب الستّين أو السبعين، لكن ما قبل، وأنت شاب أو صبية، فأمر مفزع كالزنزانة وظلام القبر.

فتحت الباب، وقلت بفضول:

- أنت عليا؟

ضحكت مني، وقالت برنين:

- حرام عليك، أنا بنتها. وأنت أمك وداد. كنا جيران من سنة سيدي وكنا حبايب. أمك وأمي كانوا صديقات الروح بالروح. أُمّي كانت تعرف ستك، وتعرف أحوالك وقصصكم وكل العيلة. معقول نظل واقفين في الباب؟!

جلسنا عند الياسمينه نشرب القهوة ونشم الفل ونتذكر ما كان وما صار وما صرنا وما حل بهذا وما حل بتلك، وعرفت منها أن أمها صارت كركوبة ومريضة تجلس أمام التلفزيون طوال النهار بعد أن عادت من الشام بسبب الرملة وميراث دار مثل داري، لكنها جاءت قبلي، قبلي بسنين، وأصلحت الدار، وهي الآن ختيارة لا شيء في حياتها

إلا ابنتها والتلفزيون.

جارقى البيضاء الثرثرة اسمها ياسمين. تزوجت وهي صغيرة من رجل كبير متزوج وله أولاد. زواجها فشل ولم تنجب، وها هي الآن تعيش مع أمها الكبيرة وترعاها وترعى شؤون الدار والأقارب وشؤون أخرى تتلخص بشؤون الغير وما يدور من قصص وفصائح في الحارة. يعني باختصار، تتلصص على الناس وتراقبهم من العليّة وشبابيك تطل على الرائحين والغادين في حبس الدم وخان التجار وحتى الجامع، وكل الجيران يعرفونها بالست ياسمين بنت اللبان. صحيح أنها ليست بنت اللبان لأنها بنت الحموي من قاع الشام، لكن بما أنها تعيش بدار اللبان، وأمها ورثت دار اللبان، وسترث هي من بعد أمها دار اللبان، فهي إذن الست ياسمين بنت اللبان، وهي أيضا مخزن أسرار كل الحارة، لأنها كما قالت وهي تكشف عن أسنان بيضاء طبيعية دون تركيب، مع أنها في مثل عمري أو أصغر، أصغر بقليل، فاضية أشغال بلا ولد ولا تلد ولا شيء في حياتها إلا أمها وقصص الحارة. لهذا فهي تعرف عن كل الناس وكل العائلات وكل الدور، من دار رئيس البلدية حتى الفران وشيخ الجامع والولد الأهل الملقب مجازا بأبو مقرف. فهي إذن الست ياسمين بنت اللبان، كما أنني أنا الست نضال بنت القحطان. أمها تعرف أمي، وهي أيضا بحكم الجيرة والعلية وشبابيك تطل على داري تعرف عن داري وأسراري وتعرف عن أمي وأخوالي وتعرف أي رسالة، لكنها لم ترأيًا من رسوماتي كما أنها لا تفهم شيئًا بأمور الرسم، لكنها تفهم بأمور أخرى وقصص الدور، وإذا كنت أرغب ستحكي لي عما كان يدور في هذه الدار أثناء غيابي، منذ الانتفاضة الأولى ثم الثانية وحتى الآن.

بدأت قصصها عن نزاع القيادة على السلطة وضياع الناس، ثم الحواجز والإغلاقات، والفقر والهّم وإسرائيل. دار أبو حمدان نسفوها،

ابن البقال مرمي في السجن من عشر سنين، بنت المعتوق اعتقلوها مع جوقة شباب معهم ديناميت، نسفوا دار أبوها ونسفوها، يعني حبسوها عشر سنين، ونابلس صارت غير عن نابلس، نابلس صارت قرية كبيرة، لأن العائلات وأولاد العائلات، مثل حكايتك، هجُّوا من البلد وتركوها. أولاد العائلات، مثل حكايتك، تعلموا في أميركا وأوروبا ولزقوا في أميركا وأوروبا وخلُّوا البلد للجوعانين والفجعانين وزعران السلطة ولفات حماس. صارت البلد مثل الحسبة، مسلخ، مزبلة، ومطرح ما شخَّت شنقوها.

استوقفني التعبير الفظّ، فسألت باسمّة أستوضح:

- مطرح ما شخَّت شنقوها؟!

صاحت ضاحكة هي الأخرى:

- آ، والا كيف؟ لو كان فيه ناس، لو كان فيه شعب، لو فيه أخلاق ممكن نصير بهالالة؟ لكن وحياتك يا جارة، لا دين ولا رب ولا إنسانية، ضاعت البلد وضيعونا، بكرة تشوفي.

- قصدك عن مين؟ عن إسرائيل؟

قالت بسرعة، وهي تلوح فوق رأسها بحركة عصبية وابتسامة:

- عن إسرائيل وغير إسرائيل، بكرة تشوفي، لأ يا جارة، اليوم،

اليوم، أنت عارفه؟

وتلفتت حواليتها، لتتأكد من أن أحدا لن يسمعها:

- أنت عارفه أن هذي الدار صارت مسلخ؟ كانوا يحاكموا

فيها العملاء ويسحلوهم، هنا، بداركم.

اقشعر بدني وتلعثمت:

- في دارنا هذي؟ في داري أنا؟

- دارك أنت. كانت مهجورة ومفتوحة. شباب الانتفاضة

كسروا الشبابيك ونزعوا الحديد ودخلوها. نزلوا في القبو يناموا هناك ويحاكموا هناك ويعذبوا هناك. بأول الانتفاضة كنا نبعث لهم بيض وجبنة ومرات صينية مقلوقة ومرات كفته. لكن بعدين لما صاروا يحاكموا فيها خفنا منهم. صرنا ما نقرب عليهم ولا نتجرأ نحكي معهم، لكن نسمع، نسمع صياح، نسمع كرايح ومسبات ونسمع الجيش يقتحم الدار. اقتحموا داركم ثلاث مرات. لكن ربك عمى عينيه وما شافوهم، ما شافوا شيء إلا بابوج وتنس شوز. أمني اتصلت بأبوك ثلاث مرّات، وأبوك صلح الدار ثلاث مرّات، يعني الشبابيك والأبواب والبوابه، وسكّرّها بالقفل وبالمفتاح. لكن الشباب رجعوا احتلوها كمان مرّه، كسروا الشبابيك وكسروا الأبواب ورجعوا يناموا ويقوموا فيها ويخبوا أشياء، الله أعلم. وبكل مرّه، كل مرّه، أمني تتصل بحضرة أبوك، ويرجع يصلحها كمان مرّه. لكن لا الشباب ولا اليهود حلوا عنها. لو كانت مسكونة وفيها ناس ما كانوا الشباب احتلوها ولا اليهود اقتحموها. وأنا يا جارتى، بيني وبينك، أنا قلبي ناقر من هالدار، يمكن فيه شيء تحت الحشخاش. أنا شفتهم مرّه حفروا الحوض ودفنوا أشياء، الله أعلم. الدنيا ليل وما شفت مليح. لكن كمان في قبو الدار، يمكن، يمكن، الله أعلم، ويمكن كمان بأرض المطبخ وتحت المجلى وتحت البانيو وتحت البلاط بأرض الحّمّام. أنا كنت أتلصص عليهم. أغافل أمني بعز الليل وأشوف أشياء تقشعر البدن وما أعرف أنام. مرّه شنتقوا واحد جندي، هنا عالشجرة، ومرّه ذبحوا واحد عميل، هنا قدامك على درج الدار، ومرّه شفتهم حاملين صناديق، صناديق خشب وصناديق كرتون وصناديق حديد، ونزلوها بعز الليل على قبو الدار. وأنا يا جارتى بيني وبينك قلبي نفر من هذي الدار. قبل ما تصلحي شبابيكك وتبضي سقفك وحيطانك وتزرعي الورد بساحة الدار،

انبشي أحواضك وانكشيها، يمكن فيه عظام أو فيه ديناميت، يمكن الجندي اللي شنقوه، يمكن فيه عميل، يمكن جنازير، أول تتأكدي يا جاره، وبعدين الورد، ملحقة عالورد. وكمان في القبو يمكن صناديق، يمكن جنازير ومشانق، يمكن ألغام. أنا نبهتك. أنا كنت أشوفهم بنص الليل وأراقبهم. مرات شباب ومرات جنود ومرات جرازين كل واحد منهم قد القُطَّ ينطوا في الساحة ويركضوا فيها كأنها ملعب، ومرات يتشعبطوا عالمواسير وعلى المزاريب ويصلوا دارنا. أمي اشترت سم وزرنیخ ورشته على السور بیننا و بینكم. ماتوا الجرازين من أكل السم لكن المدفون تحت الخشخاش وتحت المجلى وفي قبو الدار، الله أعلم. أنا نبهتك، خطيتك برقبتي يا جارة. واوعي تقولي أنا قلت لك، أوعي تقولي قدام أمي، أمي عصية ونرفوزة ومرات تقول أنا بتخیل لأنني فاضيه ومجنونه. أنا مجنونه؟ اسم الله علي ما حدا قدي. بكرة أعمل لك عزيمه تطنّ وترنّ وتشوفي طيخي ونفيخي وتذوقي الكنافة من أيدي. قال مجنونة! لكن الجار أمانه وحرمة. وأنا نبهتك. أمي خويفه ومريضه، ست كبيره، خايفه على حالها وعلى دارها، خايفه من السلطة ومن حماس، وخايفه من اليهود ومن العملاء، وخايفه كمان ينسفوا داركم، لأن داركم، بعيد الشر، يمكن مسكونه وملغومه، وإذا نسفوا دراكم ولغموها، يمكن أساس دارنا يهتز، ويمكن ينهدّ، لأن أساسها مثل أساسكم، عتيق وتعبان وحالته بالويل. أمي خايفه، لكن أنا، والله ما بخاف لا من اليهود ولا من القروود. أنا شفت كثير بزمان، وعلى شو أخاف؟ لا عندي فاطمه ولا محمد، لا ولد ولا تلد يشغلوا بالي ويكسروا راسي. وأنا زبي زيک يا جاره، ويمكن أنا أصغر شويه، بس مش مهم، المهم أنا وأنت على إيش نخاف؟ لا عندك ولد ولا عندك تلد، زبي زيک، وعلى إيش نخاف؟ إذا بدك أساعدك بساعدك. نبش الدار

ونفتشها، تحت البلاط، تحت المجلى وننزل للقبو بين الكراكيب يمكن فيه شيء هنا والا هناك، لازم ننبش. لكن العمال ممكن يشوفوا، وممكن واحد يطلع جاسوس. يمكن عميل. يمكن مدسوس أو حرامي. أنا من رأيي أول ننبش، من أول الساحة لآخرها وتحت البلاط وتحت المجلى وتحت البانيو وننزل لتحت ننبش القبو حتى نتأكد وترتاحي، ولما تتأكدي وترتاحي ويرتاح بالك تبضي وتدهني على كيف كيفك، معقول هالكلام؟ والله وأهلين. نورّ الدار. نورّ الحارة يا جاره.

11

بدأتُ النهار بصوت الحسون ورائحة الياسمين وزهر الليمون
وأغنية قديمة لبیت العزّ، وما أن جاء الظهر وبدأت صلاة يوم الجمعة
ودوّى الهدير في السماعات حتى أحسست أني محاطة بأشباح المدفونين
والمشبوحين والمشتوقين والمشبوهين. لم يبق شيء في هذه الدار إلا متهمها
مشبوها. حتى المجلى وبانيو الحمام وبلاط المطبخ ودرج الدار والقبو
العتيق صاروا مدافن، وأنا أقف فوق سبخة دم فيها عظام وجاجم
وآهات رجال مكتومة ماتوا يوماً تحت التعذيب. أمن المعقول داري
هذه، دار العيلة، دار سِتّي وسيدي، وكانون النار والأرجيلة وعقد
الياسمين، وكتب خالي وزهر الليمون وشجر الخشخاش وحسون
الصباح ورسوماتي، وأنا طفلة، وأنا صبية، وأنا شابة قبل نزوحي،
ونسيم الفجر وليالي الصيف والأغنيات المشحونة بالحب والوجد
والتجلي والذكريات والأمنيات والبطولة وقصص الثوّار وغرام الصبا
في ذاك الحرش، كل ذاك ينقلب إلى مسلخ؟ أنا عدت هنا حتى أرجع
للذكريات وحنان الأهل وتراب الأرض وقصص سِتّي وكانون النار
وقشر الليمون والأرجيلة وإذا بي أقف على أرض مليئة بالألغام وجثث
وعظام وجاجم، بعضها ليهود، وبعضها لعرب، وبعضها لمن تابوا
ومن خانوا، وبعضها لمن نصب من نفسه حكماً ومحام ومحاكم! أهذا ما
انتهت إليه قصص الثورة، ثورة خالي، والحب المراهق والأحلام في أعلى
الحرش؟ أهذا ما أتيت لاسترجاعه؟ كنت آمل، في هذا العمر، أن يعيد
الوطن وتعيد الدار إحساس الحنين لماضيها والذكريات وربيع الأرض
والبرية وزهر الليمون ونوّار اللوز والحب المراهق للثورة والولد ربيع.

كنت آمل. كنت أحلم. هل كنت أهيّم وأتخيّل؟ هل توهّمت؟
أذكر يوماً من بعد الصيف، وكان الشتاء على الأبواب، وكانت
سِتّي في صحن الدار، أي الليوان، تقمّر الخبز على الكانون ورائحة
الجبنة المشوية تعبق في الجو وخشخاش الساحة يلمع ويهتز تحت أمطار
فجائية، في ذاك اليوم عند المغرب اندفع الباب ودخل خالي وفي إثره
ربيع. كانت أشهر من بعد رحلتنا الجبلية في ذاك الحرش، وكنت ما
زلت أحلم بربيع. أراه أمامي في كل مكان، وأنا في طريقي إلى المدرسة،
وأنا أمر بالسوق العتيق، وأنا أقرأ المنفلوطي وأرسين لوبين، وأنا أسمع
أشعار خالي وهو يقرأها في أمسيات ليالي الخميس أمام سِتّي وأمامي أنا
ليؤثر بي ويعلمني ويجعل مني فتاة عصرية مختلفة، كما كان يقول، وفي كل
شعر، في كل بيت لقصيدة أراه أمامي وأرى خالي، خالي الآخر، وأجواء
الحرش ورجل المنظار فوق الصخرة وعش الشنار والأرانب، والولد
ربيع. في ذاك اليوم دخل خالي وقال الثورة بدأت تنهار. ثم جاء أمين،
خالي الآخر، وجلس الاثنان قبالة سِتّي حول الكانون، وأنا وربيع على
الطرايح، هو في جانب، وأنا في جانب، نأكل بحياء ونسترق النظرات
وندعي أننا نسمع. وكان الاثنان، خالي وخالي، يتحدثان بلغة غامضة لا
أفهمها، وما كنت أريد أن أفهمها، لأنني أتصيد نظراته وقلبي يتقمّر على
الكانون كالجبين المشوي وخبز الطابون.

قالت سِتّي: وما الفائدة؟ لا أنت استفدت، ولا أنت استفدت،
ولا أنا استفدت. ولا واحد منكم تزوج وهذا بالي وخلاقي أفرح بولد أو
بنت. لا أنت ولا أنت ولا حتى وداد، وسمير تغرّب للسعودية واشتغل
هناك ونسي أهله، مثل خاله، والست وداد الأفندية صارت تحكي مثل
البكوات، وأنا ونضال في هذي الدار مثل الأيتام. استحووا، ذوقوا،
خلوني أموت وأنا مرتاحة. وأنت يا كبير، أنت يا شمعتنا يا نؤارة،

بعدين معك؟ متى تهدأ وتهدئنا؟ الكل تزوج وتأهل وصار عنده أولاد
وبيت وعيلة إلا أنت. وأنت يا أفندي يا متعلم تبع الأحزاب، ساعة
شيوعي، وساعة بعثي، وساعة قومي، وساعة سوري. قلنا الكتب
طيب آمين، والاجتماعات والمؤتمرات والإضرابات! طيب وبعدين؟
على مين الدار؟ على مين العيلة وطلباتها؟ على مين الشجر والحاكورة؟
أنا صرت كبيرة واختياره وقربت أموت، والبنت الصغيرة عم تكبر.
أنا رجل على الأرض ورجل في القبر وكفني جاهز من ثلاث سنين.
استحوا، ذوقوا، فكروا بهمي. أشعروا معي، ارحموا هالبنت وارحموني.
أحسست بالحنج وأنا أسمع مثل هذا الكلام أمام ربيع،
وخالي وحيد نفخ واحمر، وقال بحسرة:

- طب والمطلوب؟

قاطعه أمين محاولاً تلطيف الجو:

- من يغلي الشاي؟

نهرته بغيط:

- اسكت أنت.

ابتسم وحيد، وقال مناكفا:

- طيب وأنا؟

- أنت تزوج. لازم لك ولد يحمل اسمك واسم أبوك يا شيخ

قحطان.

- تسخري مني؟

- أبدا، معقول يا شيخ الشباب، أنا أسخر منك؟

- طب والمطلوب؟

- ولد، ولد، لو تفتة ولد.

مد يده وربت على كتف ربيع، وقال باسمًا:

- أنا عندي ولد.
- وخالي أمين مد يده وربت كتفي، وقال مغیظاً:
- وأنا عندي بنت.
- نهرته ثانية:
- اسكت أنت.
- تلفت وحيد وقال بحشرة كالمنخوق:
- من يغلي الشاي؟ يا الله يا ربيع، فرجينا شطارتك يا بطل.
- ربيع يغلي شاي بالميرمية على كيف كيفك.
- قال أمين محتجاً:
- بلاش ميرمية.
- طيب، بلاش، بالعطرية، يا الله يا ربيع، يا الله، تحرك.
- ابتسم ربيع بحيرة وخجل:
- كيف أغلي الشاي؟ أنا لا أعرف أين الأغراض؟
- قومي يا نضال، يا الله يا شاطرة، قومي ساعديه.
- قفزت عن الأرض، وأنا أنظر لربيع بتحد على أمل أن يلحق بي، وكان المطر ما زال يزخ ورائحة الشواء، ورائحة الجبن، والخبز المقمّر وقشر الليمون تعبق في الجو وتجعلنا نحس لأول مرة منذ أشهر بجو العيلة ودفع الشتاء وكانون النار وشعور بالأمان كنا افتقدناه بتشتنا. خالي وحيد في مغر الجبال، وخالي أمين بأجواء القدس، وخالي سمير في السعودية، وأمي وداد في المستشفى، وفي ذاك المساء تجمّعنا حول الكانون واستبدلنا خالي الغائب بالولد ربيع.
- دخلنا المطبخ، والمطبخ معتم كعادته بأيام الشتاء، ويدي قنديل الكاز أبو فتيلة، وربيع خلفي يتحسس بحذر مواقع قدميه، وأنا أضحك، لكن بصمت. كنت سعيدة، كنت صغيرة، لكن كبيرة

في ذاك الوقت، وأقرأ أشعاراً وكتب خالي، وأحلم أن أصبح مختلفة، كما كان يقول، أقصد خالي، وأردد عبارات أسمعها عن الثورة وعن الثوار. بالنسبة لي كان خالي الكبير رمز الثورة، وخالي أمين رمز الأفكار والتحرر وأجواء القدس، والولد ربيع هو امتداد للإثنين، كيف؟ لا أعرف. هكذا أحسست، ربما لأنه يعيش في ذاك الحرش، وربما لأن أبو طير قال عنه أنه شاطر في مدرسته، وربما لأنه سخر مني وقال عني «بنت مدينة»، وهذا معناه أنه يتفوق على المدينة ورخاوة المدن، لأنه يعيش في المغارة بين الثوار، ولأنه يقول إن الثوار هم القادة ويرسم فوق وجهه تكشيرة توحى للآخرين أنه قائد مثل خالي، ولأنه يقول عن خالي الكبير إنه أحسن رجل في الدنيا وعلى وجه الأرض، وأنا أوافقه، لا لأنني أعرف عن خالي ما يؤهلني لأن أقول إنه أحسن رجل في الدنيا وعلى وجه الأرض، بل لأن ستي تقول، وأم نايف تقول، وكل النساء في عصيرة وكل الرجال. يعني خالي كان الأفضل، وربع ابنه، كما كان يقول يعني مثله وامتداده.

وضعت القنديل على المجلى، فارتسم خياله على الجدار ووصل السقف. لفتُ نظره لخياله كم هو طويل ويصل السقف، فلم يتحرك ولم يتنفس، وكأن الطبيعي والمألوف أن يصل السقف. في ذاك الوقت شعرت أنه كبير، لأنه جاد لا يتنفس ولا يلتفت لرعوناتى وخيالتي، لأن لديه مسؤولياته مثل الكبار، ولأنه يقوم بما تصورت أنه خارق، وما كنت أعرف أن تكثيرته وجوده بسبب الخجل والارتباك، وربما الخوف من المدينة وجو المدن والدار الكبيرة وأخوالي وذاك المطبخ. وحين اقتربت من البريموس حتى أشعله، قال بجدية رجل كبير: هات، اعطيني الكبريتة. وكحت العود بطريقة سريعة كلمح البصر جعلتني أتصور أنه يشعل النار في شاحنات الجيش ومستعمرات اليهود ويطلق الرصاص

ويقذف القنابل بنفس الطريقة السريعة، يعني شاطر، يعني بطل مثل خالي، يعني مجاهد. فوقفت أتأمله وهو يشحن البريموس بضربات سريعة أخاذة أخذت عقلي، وجعلتني أتعثر وأتلعثم وأنا أناوله الشاي والعطرية وأعد الكاسات والصينية. وحين انتهى قال بلهجة جادة شبيهة بالأمر: احمل القنديل وأنا أحمل الصينية. ومشى أمامي. فحملت القنديل ومشيت خلفه، وأنا أشعر أنني بطله في مشهد درامي من رواية تشبه ماجدولين، وأنا سأتعذب كما تعذبت ماجدولين من فرط الحب والتعاسة، لأن الأقدار ستعاندي وتأخذ مني حبي الكبير وتذهب به لأعالي الجبال وتحبسه في مغارة معتمة معزولة بعيدا عني، بعيدا عن الناس والدنيا، وبعدها يستشهد أو يُشنق ككل الثوار وسأعيش العمر من بعده أندب حظي. لكن للغرابة أنني نسيت ذاك الإحساس بمجرد أن هتفوا مهللين: أهلا بال حامل والمحمول، والله أبطال! وابتسموا لنا وأثنوا علينا كما لو قمنا بمعجزة الشاي واستحققنا كلمة «أبطال». فابتسم هو بسمه صغيرة، وابتسمت أنا بسمه كبيرة، وقالت سَيِّي وهي تربت بيديها الاثنتين فوق الطراريح: تعالوا يا سَيِّي، يرضى عليكم. فأحسست بالرضا والتفاؤل، لأنني ظننت أن الله سيرضى علينا، لأننا كنا بقلب طيب ونحب الخير، فخالي الكبير كان يجاهد، وخالي الأصغر كان يدافع عن العمال والفلاحين بكتابات، وسَيِّي صلوية وتقية وتحلم أحلاما لها معنى وتفتح بالقمر، ويقول الناس عنها حجة ودعواتها دوما مقبولة. لماذا إذن لم يقبلها؟ لماذا إذن لم تتحقق؟ ولماذا اللعنة حلت بالدار؟!

12

لم يحضر العمال صباح السبت كعادتهم، فبدأت أقلق وأتكهّن وينخرني الشك. هل يكون واحد منهم جاسوسا ووجد شيئا أثناء الحفر في ساحة الدار أو نُقر الحيطان المهلهلة وزوايا القبو؟ أو أن واحداً منهم بلّغ عني وسيأتي الجنود لنسف الدار واعتقالي كما حدث ويحدث في كل قرية ومدينة. الإنكليز اخترعوها وجاء اليهود وورثوها وأبدعوا فيها أساليب النسف والتعذيب لإفراغ البلد وتوطين البيض من أوروبا وضحايا الغرب والنازية! من ضحى بهم؟ من أحرقهم؟ من عذبهم؟ من كذب علينا وعليهم؟ من جعل منا كبش الفداء لماضيهم؟ ما ذنبنا نحن؟! الحرب قامت في أوروبا، فلبسنا الأسود على أوروبا، وأقمنا الجنائز لقتلاهم ونسبنا شهداءنا والثوار! من وقف هنا ليعاتبهم؟ يعاتب من؟ يعاتب ما بقي من التاريخ؟ وأين التاريخ؟ هل كنا فيه؟ ما علينا، لن أبدأ بالنذب كما اعتدنا. أنا جئت هنا لترميم الدار. سمعتها تصرخ:

- يا ست نضال، يا جارتنا.

كنت أفتل في الساحة وفي يدي ترانزستور صغير أستمع منه لأخبار الشؤم من محطة محلية اسمها - للمفارقة - طريق المحبة، وطريق المحبة تتحفنا ما بين الخبر والآخر بأغان حلوة تعزينا. أغاني فيروز والصافي وملحم بركات، ورعيل كان في السبعينات والثمانينات يهّب علينا من جبل الأرز والصنوبر كنسيم الصيف ويحيينا. وما بين الأغنية والأخرى، طريق المحبة تنقل لنا أخبارا مكررة ومعادة عن حاجز هنا أو حاجز هناك، عن نفس هنا أو نفس هناك، عن منع

التجول والإغلاقات والإضرابات وما شابه. وما بين الحاجز والحاجز، أو نسف الدار ونسف الدار، تطل علينا الست فيروز لتقول لنا حلوة ضيعتنا حلوة كلاً عشايش عصافير... فنحس بالثلج وماء بارد ينزل على النار يطقيها ويداوي الجرح ويشعرنا أننا ما زلنا محظوظين، لأننا لم نكن بنهر البارد وعين الحلوة، لأننا ما زلنا ننعم بوطن ونام على أرض صلبة لا تلفظنا بل تحضننا وتغطيها بدفء المواسم والحواكير وبيوت العز لمن كانوا ثم تلاشوا وظلوا معنا وجعا في القلب، يا ضيعتنا!

عادت تصرخ:

- يا جارتنا!

رفعت عيني فوجدتها تتدلى من أحد شبابيك العليّة، وتطل علي وتكشفيني في ساحة الدار. وهذا ما يؤكد إدعاءها بأنها كانت ترى ما حدث هنا في قلب الدار. لكن بالعقل وبالمنطق، كيف استطاعت رؤية ما حدث في الحّمّام تحت البانيو وما حدث في المطبخ تحت المجلى؟ كيف ميزت في ظلام الليل نوع الصناديق؟ صناديق خشب وصناديق حديد وصناديق كرتون، كيف رأتها؟ وأمها تقول هي مجنونة، فهل صحيح هي مجنونة؟ وهل صحيح أن داري كانت وما زالت ملغومة؟ قالت بانفعال:

- سمعت الأخبار؟

هززت رأسي كي تسكت، فلم تسكت وأخذت تنهمر بدون

انقطاع:

- الليلة اشتباك عند الجامع. دخلوا الزقاق بالجرافة وبعدين لحقتها المركابا. المركابا يا جارتنا أعلى من الدار. عمرك شفتيها المركابا؟ المركابا لما تمرق أشوف الجندي راسه براسي، راسه أعلى من العليّة، يعني المركابا يا جارتنا أطول من الدار، أطول وأعرض، وتهذ الدار. عمرك

شفيتها المركابا؟

هززت رأسي ثانية مع أني لم أر بحياتي المركابا، لكنني رأيت المركابا في التلفزيون وصور المجلات والجرائد وتقرير عرضته الجزيرة بين الأخبار. لكنها ظلت تحكي بهستيرية وتشير إلى أعلى العليّة، عليتها وعليتي أنا حيث أنام وأقوم وأتفرج على الرائحين والغادين في حبس الدم، مثلها هي، ورأيت السوق مغلقا بلا بياعين ولا مارة بسبب الإغلاق والاشتباكات والمركابا. كما أني سمعت أخبار طريق المحبة وسمعت فيروز تغني للقرميد والعصافير وضيعتها وصورا بثتها الجزيرة في التلفزيون عن ضيعتنا وضياع العرب في سوق الغرب، فلماذا تصر على إخباري بما أعرفه؟ لماذا نصر على إخبار الآخرين بما يعرفون؟ بالأمس الدهان حكى لي قصصا أعرفها، لا أعرفها، لكن من التكرار أعرفها وأحفظها عن ظهر قلب، كما أحفظ قصص الجدة وإبريق الزيت، لكن الناس في حبس الدم، وفي كل مكان ذهبت إليه، في القدس والخليل ورام الله وحتى جنين، يعيدون عليك نفس القصص، حتى لو كنت تعرفها. هم يعرفون أنك تعرفها وتحفظها، عن ظهر قلب، لدرجة أنك ما عدت تخاف ولا تحزن ولا تشمئز ولا تتأثر، يعني تمسحت، وكذلك نحن. فإن كنت تمسحت من أخبارك، فما بال الآخرين في الخارج، يعني عمان والسعودية وتونس والمغرب وشرم الشيخ؟ لماذا نصر على الإخبار؟ لماذا نصر على الإزعاج؟ أنت تمسحت وهم مثلك، لماذا تعتب؟ تعتب على من؟!

قالت بهستيريا فجائية:

- مالك جارتنا زي الحيط؟ ولا كأنك حاسة ولا شايقة؟! مش خايقة على حالك وعلى دارك؟ هذي المركابا يا حبيبتني تدخل في الدار وتفرمها، تطحنها طحن زي البسكوت. فاهمة شو بقول؟

وضعت يدي على فمي وربت بها عدة مرات حتى تسكت ولا تنهمر وتحكي عن الدار وما فيها ويسمعها الناس. لكنها بدت كالمجنونة، تلوح بيديها وتحملق عينيها وشعرها منبوش من أثر النوم أو لأنه وقف من الانفعال والتشنج، فتذكرت قولها بالأمس أنها لا تخاف من اليهود ولا من القروود لأنها بلا فاطمة ولا محمد، ولأنها مثلي بلا ولد ولا تلد ولا مسؤولية، فلماذا إذن تصرخ وتنهر كالمجنونة؟ ومم تخاف؟ من المركابا؟ وتنبهت إلى نفسي وردود فعلي وتساءلت: من منا مثل المجنونة، أنا أم هي؟ هي تخاف من المركابا ومن الأغلام لأنها تحس، أما أنا، هل فقدت الحس؟ أم أني لكثرة ما رأيت وما سمعت ما عدت أحس؟ أم لأني عشت سنوات صباي في ذاك الدير في درب الصليب خلف الأقصى ما عدت أحس؟ أم لأني أحمل جوازا غربيا منذ الغربية، غربة بدأت في ذاك الدير ثم ترسخت مع أول حب وثاني حب وثالث حب وعاشر حب ثم الشهرة، وما عدت أحس. هي قصص العزلة والغربة، غربة عن الأهل، غربة عن الوطن، غربة عن الناس، وغربة في الحب. اتصالي الوحيد بهذا الواقع كان اللوحات. أنا أرسماها وأحس بها. من خلال الرسم أحس بهم، أحس الواقع، لكن واقع محسن سرحان! رجل قوي، رجل جبّار، رجل ممتلئ بالعافية وله عضلات، يضرب بوكسات، يهزم الشر ويتنصر عليه، رجل مفتوح على الدنيا ويعرف ما يريد وكيف يصل. لكن خالي المثقف سخر مني، وقال لي وهو يضحك: محسن سرحان؟ هذا ذوقك، محسن سرحان! أين الواقع؟ أين الرؤيا، أين التاريخ، محسن سرحان؟! فعدت أنبش في الواقع ورسمت الحرش. لكن الحرش كان بداية، ثم زواتا، ثم صانور ومن بعدها جنين ثم غزة، فلماذا أحس. كان الأجدى، كان الأفضل ألا أحس، حتى لا أغيب عن اللوحات وعن الرؤيا وعن التاريخ. فلماذا

.....

أحس؟ لا شيء يعوض عن الإحساس وفقدان الحس إلا اللوحات،
هي تاريخي. هي كنزي أنا. هي للتاريخ.

13

قالت سّتي:

- اليوم نروح عند خالك وحيد.

رحلتنا السابقة إلى ذاك الحرش وما تلاها من منع تجول وإضرابات لم تشنها عن القيام برحلة جديدة، وعتاب أمي لم يردعها، ودهشة خالي أمين وخالي الكبير، وهو يقول لها بوجه عابس: بكرة على بيتك بلا تأخير، وهي تشير إلى صدرها، وتقول له: لو عندك ولد، لو عندك بنت، كان هذا حس، كان تحرك. وكانت تشير إلى قلب الأم.

سألني ثانية، وهي تلف عروسة لبنة عند الكانون، وتبتسم بخبث طفلة شقية في عمري أنا وتريد اللعب مرة أخرى:

- ها، شو رأيك، نروح عند وحيد؟

سألت بفرح:

- ونزور الحرش؟

قالت ساهمة بجدية:

- لا، زواتا.

سألتها عن زواتا، فقالت لي إنها قرية صغيرة، صغيرة جدا، فيها تفاح وعنب وorman ونبع ماء كنت أراه في ذاك الوقت مثل الشلال. لكن الآن حين زرته بعد كل السنين لم يبق منه إلا البعوض والمحاجر ومستنقع ماء.

لبستُ ثوبها المستعار الفلاحي مع اليانس، وحملت سلة فيها أقراص كبة وسمبوسك ومناقيش فبدت مختلفة عن السابق، كما لو كانت أم نايف، أو أم نشأت أو أم حكمت، جارات أم نايف في عصيرة،

وخرجت من الدار وأنا معها. وهذه المرة ألبستني ثوبا لا أعرف من أين حصلت عليه أو فصلته أو اقترضته، ثوب يشبه قماش الطارايح، وربما بالفعل من الطارايح، وسرّحت شعري بصفائر ربطتها بقطع من المطاط، وألبستني صندلا شبيها بصنادل أولاد الفلاحين. أنا لم يعجبني ذلك الثوب، ولا الصندل، ولا المطاط، لكنني أحسست أنه المدخل للولد ربيع حتى يكفّ عن تسميتي «بنت مدينة».

قطعنا زقاق حبس الدم دون أن يلتفت إلينا أحد، لا المنجّد ولا البقال ولا حتى أجير الفرّان، ربما بسبب الزحمة وامتلاء السوق في ذلك اليوم بالقرويين من عصيرة ورويين وزواتا، لأن الزقاق بدون إضراب ومنع تجول يغدو مليئا بالقرويين من قرى الشرق وقرى الغرب وحتى الشمال، يعني عصيرة قرية أم نايف والثّوار. لكن الثّوار في ذلك اليوم كانوا قد انتقلوا إلى زواتا واختفوا بين الشجر والمحاجر والبيّارات. هذه المرة ركبنا الباص، باص القرية، وكان مليئا بالشباب والعجائز ونساء بيطون منفوخة وسلال مملوءة وسحاحير.

أوقفنا الباص على الإسفلت، واستمر في طريقه إلى طولكرم ثم نتانیا مستعمرة اليهود، لكن المستعمرة الكبيرة أمام زواتا كانت منتشرة كالجذري فوق الهضبة من جهة الغرب، فاستغربنا كيف أن خالي والمجموعة قصدوا زواتا وهم يعرفون أن مستعمرة كريات أهرون قريبة جدا، أقرب عليهم من حبس الدم!

حين نزلنا من الباص نزل معنا عدد من الرجال أغلبهم شباب. واحد فقط بدا عجوزا يستخدم عصي ويحمل صرة. قالت ستي: تعالي نسأل هذا الختیار. فأسرعنا الخطو لنلحق به وبالأخرين الذين بدأوا الصعود إلى زواتا ومشوا في طريق ملتوية غير معبّدة، ولكن ممهدة مرصوفة بشكل بدائي بحجارة غارت في الأرض لكثرة الدعس ومشى

الآقدام.

كان الجو صيفيا، أول تموز، والشمس بدأت تتوهج، لكن النسيم كان طريا يأتي من الغرب محملا بأبخرة البحر، وأعشاب البر الجبلية تنفث رائحة حشيشية توحى بالحرّ والحرارة وجفاف النباتات الطرية، وهي تتحول إلى أعواد يابسة وأشواك تنش.

اقتربنا من العجوز ونادته سِتّي: يا حاج، يا حاج، عدة مرات قبل أن يتوقف عن المشي ويلتفت إلينا وعلى وجهه علامة سؤال وابتسامة شبيهة بابتسامات الخرس أو الطرشان. وهذا ما كان، إذ وضع يده على أذنه مثل المحققان وصاح بصوت سمعه الجميع، فالتفت البعض إلى الوراء رغم بعد المسافة بيننا، إذ كانوا قد سبقونا بما لا يقل عن عشرين خطوة أو أكثر. صاح العجوز يرد على سلام لم نطلقه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فالتفت سِتّي وابتسمت لي وابتسمت لها، لأنني فهمت أن الحوار مع ذاك العجوز سيكون كما يقول المثل: حوار الطرشان، وربما يلفت أنظار كل المارة فيراقبوننا، وقد يكشفون غايتنا. وهذا بالطبع تفكير ساذج من جانبنا، أو بالأحرى جانبي أنا، لأن القرى في منطقتنا صغيرة جدا، وأهل القرية يعرفون أصل وفصل كل مواطن في قريتهم، من أصغر طفل إلى أكبر عجوز. ووجود سيدة غريبة مثلها وطفلة مثلي لا بد سي جلب الانتباه مهما حاولنا التخفي والتمويه أو التواري عن الأنظار. لكن سِتّي مدنية، ومثل كل نساء المدن كانت معتادة على الغطوة والتنقلات المحدودة. وحتى زياراتها إلى حيفا كانت كما اعتادت واعتدنا، من باب الدار لباب الدار. وربما كانت زيارتها السابقة إلى عصيرة هي الاختراق الأول لحظر مفروض عليها بحكم العادة وحكم التقليد، وبالتالي، فإن زيارتها لزواتا هي الثانية في سلسلة زيارات لقرى كثيرة متلاحقة في ملاحقة مستمرة لابنها الأعزّ

والأقرب من كل من أنجبت من الأولاد. كان زميل الشقاء والتدين ورفيق العمر. كان الوحيد الذي لم يعص لها أمراً، ولا ناقشها فيما ترغب، وشاركها الإيمان بما تؤمن، ورافقها في جولاتها الروحية عبر القمر والمندل وصلاة الجمعة والتراويح. وأنا أعتقد أن تعلقها بي في ذلك الوقت كان البديل عن غيابه. ولطالما تساءلت طوال سنين ما إذا كانت تحبني بذاك الشكل وذاك العمق لو كان وحيد ظل قريباً ولم يتعد بسبب الثورة. وربما كان انخراطه في الثورة، وبذاك الشكل، أي الجهاد في سبيل الله، هو التطبيق العملي لمعتقدات آمنت بها أو لميل طبيعي في بنيتها التي تميل إلى تحدي المصاعب والأخطار.

ردد الرجل ثانية:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فرفعت يدها إلى رأسها بالتحية كما يفعل الرجال، وقالت بجدية وعدم ابتسام وهي تشير إلى الصرة في يده:

- وعليك السلام، نساعدك يا حج؟ نحمل عنك؟ البنت قوية ومعتادة على حمل الثقيل. روعي يا نضال احملني عن الحج.

تقدمت خطوة فإذا به يشد الصرة إلى الخلف ويخفيها وراء ظهره فسقطت عصاه. انحنيت لألتقط العصا، فانحنى قبلي وألتقط العصا بدون صعوبة ثم عاد وانطوى وقوس ظهره. نادتنني ستي وقالت بجفاء:

- تعالي يا نضال احملني عني. الحج قوي وما شا الله عليه. خذي

مني.

أخذت السلة من يدها، لكنني التفت إلى الصرة لا أحميد بنظري عنها حتى أعرف ما بداخلها. كان من الواضح أنها ثقيلة وتزن الكثير، لأنه كان ينقلها ما بين الفترة والأخرى من يد ليد. وحين رأي أن تأملها

نقلها ليده اليسرى بعيدا عني، واستأنف حديثا كان قد بدأه ونسي
طرشه، أو استفاق من ذهوله. سأل سِتّي:

- جاية معنا عند المختار؟

لم تجبه على أمل أن يقول شيئا آخر يشير لشيء تفهم منه سر
المجيء عند المختار، وهذا ما كان، إذ قال لها:

- شايفة الشباب؟ كل الشباب جايين مثلك عند المختار.

شايفه أرضي؟ الأرض هناك على طرف الواد، شايفه الأسلاك وشايفه
الشجرة؟ هذي أرضي. لكن من شجرة البلوط وأبعد منها وعينك وما
تمدّ، أرض القرية والفلاحين. هي أرض مشاع، لكن للقرية وأهاليها،
وكان أهل القرية يزرعوها قمح وشعير، ويزرعوها بطاطا وبندوره
وياكلوها منها. كل القرية تاكل منها. أنا كنت أشوفهم مع الغلة والقمح
ما شا الله اكوام اكوام! والخوخ والمشمش والزيتون، اكوام اكوام!
كان خير كثير والحال مستور. لكن بعدين بعيد عنك راحت الأرض
وصاروا بلا شغل وجوعانين. الأرض غالية، أعزّ من الروح، وأنت يا
حجة كبيرة أرضك؟

قالت بغموض:

- أنا أرضي وسط، لا هي صغيرة ولا كبيرة. لكن مضبوط

الأرض غالية، أغلى من الروح.

- والله الواحد صار مخرفن، صرنا بلا عقل. طيّروا عقلي وساعات

أكون زي الأهل.

وسكت فجأة واعتراه الصمت، فظلت صامتة تدور بعينها

هنا وهناك وتستكشف أو تبحث عن أثر لابنها أو أي رجل من طرفه.

وأنا أيضا كنت أدور بعيني بحثا عن أثر للولد ربيع.

وصلنا ساحة القرية أمام حاكورة دار المختار، وكان رجل

يدور بعريضة وعلبة حبر كعلب السعوط على تجمع للقرويين ويطلب منهم أن يوقعوا أو ييصموا على ورقة، قالوا إنها للاعتراض على مصادرة أرض المشاع والأراضي الملاصقة لأرض المشاع.

حين وصل الدور إلى سِتِّي رأيتها تبصم كالأخرين، مع أنها لا تملك أرضاً ولا دخل لها بأرض المشاع أو غير المشاع. ولم تكتفِ بذلك، بل طلبت من رجل العريضة أن يجعلني أوقع، لأنني أعرف كيف أقرأ وأكتب، فابتسم وقال: «بعدها صغيرة»، فأحسست بالخجل، ودغرت سِتِّي في كتفها تعبيراً عن ضيقي من الموقف. لكنني كنت أتلقتُ هنا وهناك وبين الوجوه وخلف الصخور وتحت الأشجار، ولم أجد أثراً لخالٍ ولا لربيع.

كانت الساحة الترابية أمام دار المختار تعود بملكيتها للمختار. قيل إن الإنجليز لم يرفقوها بأرض المشاع، ولم يلحقوها بمستعمرة اليهود رغم أنها كانت ملاصقة لأرض المشاع التي أصبحت بحكم القانون كريات أهرون. قالت سِتِّي وهي تسحبني من يدي وتجبرني حيث السياج من جهة الغرب: تعالي نشوف ونتفرج. فتبعتها وأنا ما زلت أتلقتُ بحثاً عن خالي وعن ربيع.

وقفنا خلف السياج نتفرج، ورأينا تراكتورين يحرقان الأرض ويقلбан ترابها الأحمر بصخوره وشاحنة أخرى لها أسنان كالمشط تمشط الحجارة وتسحبها جهة القرية حتى تصبح حاجزاً حجرياً بين المستعمرة والفلاحين، ورأينا أنابيب ماء مسحوبة من عين الماء الذي رأيت في تلك الزيارة كالشلال ثم رأيت من بعد سنين، أي حين رجعت من الغربية، وكان مرتعاً للبعوض وأفواج القوارض والدبابير.

قالت سِتِّي حتى أفهم: هذي هي الأرض. شايقة اليهود؟ شايقة الإنجليز؟ وكانت تقصد أن الإنجليز هم من أخذوا الأرض

وسحبوا الماء وأعطوها ليهود جاءوا من أوروبا بحجة أن الأرض هي أرض مشاع، أي ملك عام للدولة. وبما أن الإنجليز انتدبونا وصاروا الحكومة والدولة، فالأرض إذن هي أرض الحاكم لا المحكوم. لكن الأرض كما قال الناس هي أرض القرية وأهلها أبا عن جد. هم من زرعوها ومن حصدها وعاشوا فيها منذ أجيال وطوال قرون. فلماذا إذن يأتي الأغراب من أوروبا ويحولونها إلى مستعمرة كريات أهرون؟ ولماذا يأخذون ماء النبع من القرية ويعطونها لكریات أهرون؟ ألا يكفي أنهم أخذوا أرض المشاع، والآن يأخذون نبع القرية؟ من أين يعيش الفلاحون؟

وقفنا نتفرج على التركتورات والمشط الضخم والسائقين البيض - الحمر بالقبعات القماشية وشورتات بالكاد تستر عوراتهم، وظهورهم عارية حمراء من حم الشمس، فقالت ستي لتوعيني وتلفت نظري: شايفة اليهود؟ شايفة الإنجليز؟ شوفي، شوفي!

سمعنا لغطا خلف ظهورنا، فرأينا الرجل بالعريضة يقف على عتبة دار المختار، ويقول للقرويين المقرفين والجالسين في الساحة: - يعطيكم العافية يا جماعة. والله كفيتوا ووفيتوا. خلص وقّعوا وبصمتوا. وهذا العريضة ياخذها جناب المختار ويقدمها للحكومة. يا الله بلا زغرة فضوها.

وقف شاب من الشباب الذين رأيناهم ينزلون من الباص، وقال صارخا:

- كيف نفضها؟ بدنا المختار. بدنا نفهم إذا هو معنا والا معهم؟ وإذا كان معنا، خليه يتفضل ويقول بصريح العبارة انه معنا. نادي المختار.

قال الرجل بلهجة فخمة حتى يشعر الآخرين بأهميته وأهمية ما

يقوم به من أعمال، وأهمية من وظَّفه للقيام بتلك الأعمال:

- جناب المختار مشغول مع ناس الحكومة. قالوا ناويين بينوا جامع ويبينوا مدارس هنا في زواتا.

قال أحدهم ساخرا:

- ما شاء الله! يعني أولادنا يصيروا دكاترة!

وقال آخر:

- وجامع كبير يسعنا ويسع جيراننا بكريات أهرون!

ضحك البعض وظل الآخرون ينظرون بعيون فارغة مذهولة، وهم يضعون أكفهم المكورة تحت ذقونهم، ويقرفصون أو يجلسون على الأرض بوضع بائس ولا يعرفون إن كان مجيئهم لدار المختار سيأتي بجديد، أو أن العريضة الموقعة والمبصومة سيكون لها أي تأثير. لكن الشباب الداعين للاجتماع قالوا لهم إن الاجتماع عند المختار سيكون له أكبر تأثير، لأن المختار حين يراهم مجتمعين ويسمع منهم بصريح العبارة أنهم لن يغادروا أرضه وسيظلون مرابطين أمام داره سيقنع الحكومة بإرجاع الأرض كما أرجع أرضه. سيقولون له ما يحرك مشاعره وكرامته حين يذكره أن اليهود ليسوا منا وطباعهم غريبة عنا، فهم طوال النهار بالشورتات وظهورهم وأفخاذهم عارية مكشوفة أمام النساء وأمام البنات، وهذا ما لا يرضي الله ولا يرضينا، ولا يرضي كذلك جناب المختار. ألا يخاف على عرضه؟ ألا يخاف على أرضه؟ من أخذ أرض المشاع سيأخذ أيضا ما يحيط بها، فمن يضمن له؟ وأرضه هو كأرض المشاع هي لزواتا وأهل زواتا، وكذلك النبع لأهل زواتا، والآن يجيء العراة من أوروبا ويأخذون الأرض ويقلعون الشجر ويشربون الماء ونحن نظل بلا أرض ولا ماء ولا حرمة نساء، أهذا يُرضي جناب المختار؟

صاح أحدهم قرب السياج:

- شوفوا، شوفوا، قلعوا الزيتون.

رأينا العجوز من صادقته سَيِّي وتحدثت معه طوال الطريق،

وكان يجلس على صخرة قريبة منا، يقف ويصيح:

- هذا الزيتون في أرضي أنا، أرض الزيتون هي أرضي أنا،

والزيتونات زيتوناتي.

أسكته رجل قريب منه:

- أقعد يا زلمة يا ختیار، صلي على النبي، كلنا مثلك. اسكت

خلينا نتفاهم ونلاقي حل.

لم يقعد العجوز ولم يسكت، بل ترك عصاه وهرول خطوات

باتجاه الغرب ونسي صرته عند الصخرة، لكنه استمر في المشي كعادته،

بخطوات ثابتة وظهر مقوس، حتى وصل عند السياج، ورأى التراكتور

يسحب شجرة من جذورها ويلقي بها بجانب أخريات ممددات على

الأرض كجثث هادمة وجذورها تتجه نحو السماء، وبعض الأغصان

المكسورة ملقاة على الأرض بورق يللمع تحت وهج الشمس.

أخذ العجوز يلطم رأسه ويندب بصوت متحشرج:

الزيتونات، الزيتونات! لكن الجميع كانوا ما زالوا يناقشون رجل

العريضة ويطالبونه برؤية المختار والتفاهم معه. والرجل يكرر ما قاله

بأن المختار مشغول مع ناس الحكومة، لأنهم يخططون لبناء مشاريع فيها

مدارس وجامع كبير لأهل القرية.

صاحوا بشكل متناثر: نادي المختار، نادي المختار. لكن رجل

العريضة وقد بدأ يخاف، رفع يده وضم أصابعه مثل الكوز، ويده

الأخرى تشد العريضة إلى صدره، وحرَّك أصابعه المكورة لفوق وتحت

ليهدئهم، لكن الأصوات أخذت تعلو والعجوز يصيح ويناديهم: تعالوا

شوفوا المصيبة، الزيتونات، الزيتونات. لكن الجميع كانوا مشغولين عنه بما هو أهم، أي بكامل الأرض، ونبع الماء، واليهود العراة من أوروبا الذين لا يستحون ولا يخافون الله ويقلعون الشجر ويجرفون الأرض ويسرقون الماء، وهم يعرفون أن هذه الأرض ليست لهم، ونبع الماء ليس لهم، بل للقرية، قريتهم الصغيرة المنسية من الانتداب والحكومة، والآن يجيء هذا المختار وأذنا به ليقول لهم إن الحكومة ستبني لهم جامعا كبيرا ومدارس! فما نفع المدارس والجامع لمن ليس له أرض يأكل منها، وليس له نبع ماء يشرب منه، وليس له مختار يدافع عنه؟! أين المختار؟

صاحوا ثانية بصوت أعلى: نادي المختار، نادي المختار، فخاف الرجل أكثر وأكثر وادعى أن الأصوات تصم أذنيه، وتجعله يعجز عن السماع وفهم الأقوال والمطالب، فوضع كفيه على أذنيه فاستقرت العريضة فوق رأسه ونزلت ترفرف على عينيه.

صاح شاب ممن كانوا معنا في الباص:

- هذي العريضة انقعها واشرب ميتّها مع المختار. نادي المختار.

وصاح آخرون: نادي المختار، نادي المختار. وأخذ الجميع يصرخون بصوت واحد: نادي المختار، نادي المختار. وبدا أن الموقف يتحول إلى اشتباك قريب، لأن عددا من الحراس خرجوا فجأة من حاكورة المختار، ووقفوا خلف رجل العريضة، ليسدوا الطريق ويمنعوا الناس من اقتحام المكان.

كنت أقف بعيدا مسافة أمتار من البوابة والحراس وقلبي يدق من الانفعال حين أحسست بيد تربت كتفي. التفت لأرى من يلمسني فرأيت ربيع. أردت أن أرمي نفسي عليه من الانفعال أو من الخوف وعدم التوقع واللهفة، لكنني ظللت أنظر إليه ودموعي تسيل

على وجهي، وفمي مفتوح لا ينطق حتى باسمه. كنت قد حلّمت بذلك الموقف طوال أسابيع، ربما أشهر، أن أراه أمامي مجسدا وليس خيالا، أن أنظر إليه وينظر إلي، أن أراه أمامي واهتف باسمه ويهتف باسمي، ثم أعانقه وأقبل عنقه فيقبلني هنا وهنا ثم يقول لي إنه مشتاق مثلي وأكثر، ويكاد يموت من الأشواق. لكنه حين تجسد، ورأيتُه أمامي في الواقع، وليس خيالا، لم أهتف باسمه كما تحيّلت، ولا ارتعيت على عنقه كما تمنيت، ولا قلت له إني سأموت من الأشواق. كل ما فعلته هو أني وقفت مذهولة، ودموعي تسيل على وجهي وفمي مفتوح.

سمعته يقول وهو يسحبني من ذراعي:

- يا الله نمشي. تعالي معي. يا الله تعالي.

لم أشأ أن أذهب، لأنني أردت سماع المزيد ورؤية ما سيتمخض عنه الوضع، وفي الوقت نفسه كنت خائفة من الحراس الذين سحبوا البنادق عن أكتافهم وشدوها إلى صدورهم في حالة استعداد واستنفار. شدني ثانية من ذراعي، وهو يقول بصوت آمر:

- تعالي معي، الدنيا غيم، يمكن تشتي.

فهمت منه أن الموقف أصبح خطرا وأن الغيم ونزول الشتاء يعني حتمية وقوع اشتباك بين الحراس والفلاحين، أو بين الثوار وحرس المختار، فوجود ربيع في ذاك الجو دليل على وجود مجموعة أو أكثر من الثوار.

شدني بعنف، وهو يصرخ بين الأصوات المرتفعة وحركة غريبة بدأت تدب خلف الحراس:

- يا الله من هون، حضر الزيبق، يا الله، يا الله!

ولم أكن أعرف من هو الزيبق، لكنني تخيلت شخصا كالغول أو تراكتور يهود يجرف الأرض، ويقلب الشجر، ويدوس الناس

ويسحقهم تحت الدواليب. أصابني الرعب فتلفتُ أبحت عن سِتِّي، لكن سِتِّي كانت هناك عند السياج بجوار العجوز المقعي خلف السياج ينظر إلى التراكورات والزيتونات، وسِتِّي فوقه بوجه كالشمع تتمم بكلمات غامضة لم أسمعها، ربما صلوات، أو تعويذات، ويدها ممدودة، على رأسه.

شقت طريقي بين الناس أرطم بهم وربع في اثري يناديني: يا الله نمشي، تعالي معي. وحين رآني أقرب من سِتِّي، عاد يردد: يا الله نمشي، تعالوا معي.

نظرت إلي سِتِّي بحيرة ثم نظرت إليه، وقالت ببطء وهي تشير إلى العجوز المقرص خلف السياج:

- وهذا المسكين؟

صاح بها:

- الكل مساكين، يا الله يا حجة، يا الله تعالوا.

رمقته بنظرة غريبة، وهزت رأسها عدة هزات كما لو كانت تتأسف أو تتحسر، ثم استدارت للعجوز ووضعت يدها فوق رأسه وعادت تقرأ.

اقرب شاب ملثم وصاح بالعجوز:

- هات الصرة.

أشار العجوز إلى الصرة عند الصخرة، والتفت إلى سِتِّي، وقال

لها:

- كتر خيرك، هذا ابني، يا الله روجي.

التفت سِتِّي إلى ربع ثم إلي، وهمست بأسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه المرة أحسست بالخوف يفقدني السيطرة على نفسي،

فأخذت أصبح وأنا أرحف:

- مشان الله يا ستي خلينا نروح.

نزعت نفسها وتحركت، وهي تتكئ على كتف ربيع، وهو يدفعني من ظهري حتى نخترق جموع الناس حتى وصلنا فوهة زقاق بين الدور. توقفت ستي ونظرت للخلف فتوقفنا، ورأينا الأجساد تتدافع وأحد الحراس يضرب أحدهم بكعب البندقية على رأسه، وآخر يطلق رصاصة في الهواء لإرهاب الناس. ثم سمعنا انفجارا مجلجلا من جهة الغرب، ورأينا أحد التراكطرين يطير عاليا في الفضاء ويتناثر وتنزل قطعه المحترقة في عمق الواد. فعاد ربيع يلح علينا:

- يا الله، يا الله، قبل ما الجيش...

ولم يكمل جملته، لأن انفجارا آخر وقع ثانية في عمق الواد. وكان الناس قد انتشروا يتراكمون هنا وهناك، وصفارات الحرس تزعق بصفير يصم الأذان. ازداد الناس رعبا وارتباكاً فأخذوا يتطايرون مثل العصافير، وكبار السن يقعون على الأرض، فيزحفون على ركبهم، وآخرون يشدون بهم حتى يهربوا قبل مجيء الجيش.

أسرعنا نركض خلف الحواكير، ثم بين الصخور في سفح الجبل، وهناك رأينا في فجوة بين الصخور وأشجار الحور نبعا يتدفق كالشلال، وقريبا منه يرتمي حطام أنبوب ضخمة والماء يسيل من فوهته وينساب كالنهر فيستقر في بركة كبيرة كالمستنقع، وأحد الشباب المثلثين يقف قريبا فوق المنبع وييده بلطة ضخمة وييده الأخرى يشير لنا حتى نسرع، فأسرعنا نندارى بين الصخور وتحت الشجر، حتى وصلنا مغر المحجر وأكوام الحصى والرمل وفتات الصخر. وهناك، قريبا من المحجر كان خالي وبعض الثوار.

فتح ذراعيه وتلقانا، وعانق ستي، وقال لها بصوت منفعل:

.....

- سلامتك يا حجة، شو جابك عندنا؟
 لم تجبه، بل أبعدت وجهها عن وجهه ونظرت إليه حتى تشاهده
 وتتأمله وتطمئن عليه، ثم التفتت للخلف حيث زواتا، وقالت همسا:
 - جايهم يوم.
 وما هي إلا دقائق حتى سمعنا الطيارات تحوم في الجو فوق
 زواتا وقمم الجبال، فدخلنا المحجر كي نختبئ ونسمع ونرى باقي
 المشهد، وما حل بزواتا والمختار، وبقايا الثورة والثوار.

14

مغر المحاجر هي ما تبقى من حفريات قام بها حجّارة وكسّارات لانتزاع الصخر والحجارة لبناء الدور والمساجد. لكن انتشار الثّوار ومطاردات الفرسان جعلت الحجّارة يهجرون المكان تاركين وراءهم الأنفاق والحفريات، وأمامها فتات الحجارة المفرومة تبدو على البعد كتلج أبيض، وتدفق الرغبة في شلالات. وظلت المحاجر بمغرها والأنفاق مرتعا خصبا للثّوار ينسحبون إليها ويخرجون منها أثناء المطاردات، وأحيانا يستخدمونها كأسطبلات لبغال النقل ومكان آمنٍ لتحضير الألغام.

دخول المغارة جعلني أحسّ كما لو كنت أليس في بلاد العجائب. لكن العجائب في ذاك الكهف كانت تجاويف معتمة وحفر تبدو كأفواه وحوش خرافية ورائحة لازدة للرطوبة وبقايا البغال. خالي وسّتي جلسا أمام إحدى الفتحات، وغير بعيد عنهما جلست وربيع نراقب طريق زواتا وكریات أهرون وبقايا الجلبة في الساحة وهروب الناس. كان خالي مكتئبا وسّتي مطمئنّة وتسري عنه. لم تكن تعرف ما يحدث. كانت سّتي، وأنا معها، متفرجات على ما يدور في القرى والجبال كما السياح، ولم نر من الثورة والثّوار إلا مجموعة فدائية ذات أخلاق تؤمن بالجهاد في سبيل الله، وتتبنى الدفاع عن حقوق الناس. لم نكن نعرف عن الجواسيس والعملاء وتفشي الفوضى بين الثّوار. لم نعرف عن الزبيق وأبو ساطور وأبو جلدة وما كان يقوم به بعض المخاتير. سمعنا عن كل هؤلاء مجرد سماع وما قال الناس وما أشاعوا، لكن تفاصيل الأحداث والخلفيات وما يدور خلف الكواليس، فمن

أين نعرف كل ذاك ونحن محتجبات عن الواقع وعلى الهامش. هي ربة بيت وأمية، وأنا طفلة، مجرد طفلة، وكل ما رأيته من الثوار والثورة هو خالي المجاهد والولد ربيع وأبو طير ومنظاره وعش الشنار. صحيح أننا رأيناهم في وضع قلق وتنقل مستمر بين المغرب في رؤوس الجبال، لكن ما رأيناه، أو على الأصح، ما رأيته أنا كان أشبه بقصيدة رومانسية، أو حكاية من حكايات البطولة والفروسية. وتلك المغرب والأحراش وقمم الجبال مجرد لوحات جمالية تضيفي على الثورة والثوار لمسات ساحرة أخذة، تبهر أطفالا مثلي لا يرون من الواقع إلا قشوره، أما الداخل، أما النواة واللب المر، فذاك يستعصي على الأطفال وعلى كبار كانوا مثلي، رغم فارق السن والمسؤولية، بدليل أن الجميع كانوا قد انساقوا وراء الحلم، ثم اكتشفوا أن التحرير كان بحاجة لأكثر من بندقية وعبوة ألغام ورجال تقاة. وربما كانت سِتِّي تحسّ أو تتوقع ما سيحدث لنا، لأنها كانت تستيقظ من النوم وهي تهذي وتقول رأيت، وتقول حلمت، وتقول سيكون بلهجة قاطعة أكيدة أن ما رأيته هو الواقع وهو المكتوب، وأن المكتوب ليس جميلا، بل أبشع من أي كابوس عشناه أو تخيلناه. قال خالي وهو يستند إلى صخرة، وسِتِّي تجلس بجواره تمسك بيده وتستمع إليه وهو يرنو إلى الأفق باتجاه الشرق:

- شفقوا أبو طير، راح، استشهد. وأنا يا أمي إذا استشهدت أو شفقوني لا تبكي علي ولا تحزني. إذا هزمونا وتشتتنا قولي للناس حاولنا، لكن الأقدار أقوى منا. كل الدنيا اجتمعت علينا حتى الأهل، وحتى الأحباب!

ضربت يده كأنها تزجره:

- حتى الأهل؟ من من أهلك؟ كلنا نحلف بحياتك. أنت الشمعة والنّوّارة.

عقب وكأنه لم يسمعها:

- لكن إذا حصل، ربيع يا أمي كأنه يتيم.

- ربيع يا وحيد بمعزة نضال.

ظل صامتا فقالت بحزم:

- مالك متشائم يا ولدي؟ ارفع راسك.

سمعته يبكي ويقول « أبو طير، » وسِتِّي تبكي، ورأيت ربيعاً يبكي أيضاً، فأخذت أبكي مثل الجميع. تذكّرت أبو طير فوق الصخرة يحمل المنظار ويقدمه لي حتى أرى عش الشنار. تذكّرت حديثه عن خالي. تذكّرت لطفه وحنانه على الولد ربيع، وفوق كل ذلك، أحسست أني على وشك أن أفقد خالي بعد أن أحببته واعتدت عليه. صحيح أني ما كنت أراه إلا مرة في الشهر أو في الشهرين، وأحياناً يغيب عدة أشهر، لكنه حين يحضر أو نذهب إليه كنت أحس أنه كريم وقلبه طيب ويحب الناس. والأهم من ذلك، أنه قوي ومتناسك. وإذا بي أكتشف أن خالي يبكي مثل كل الناس، وأيضاً ربيع، مثل كل الناس.

بعد فترة صمت وكانت سِتِّي قد عادت للحديث في العموميات وخالي هدأ وأنا تناسيت، سألت ربيع بحزن مدفوع بفضولي:

- يعني أنت يتيم؟

رأيته يمسح وجهه من أثر البكاء حتى أظن أنه أكبر، أقوى وأكبر، وقال بحدة:

- مثلي مثلك.

عقدت الدهشة لساني فاستطرد هو كما لو كان يشمت بي:

- أبوك تزوج يهودية ونسي أمك، وأبي تخلى عن خالك وتبع

الزبيق. مثلي مثلك؟

أحسست بلطمة على رأسي فتحدثته. مسحت دموعي، وقلت

بتحدٍ واستعلاء:

- أنا خالي أبي، الشيخ قحطان.
- التفت إلي كأنه فوجئ بردة فعلي فلزم الصمت، لكنه بعد دقائق عاد ليسأل وهو يمد يده إلى فستاني ويلمسه بحذر:
- من أين لك بهذا الفستان؟
- قلت بتحدٍ وجلافة:
- ماله الفستان؟
- قال همسا لكنني سمعت:
- فستانك القديم أحلى بكثير، كان يلبق لك!
- أردت أن أصبح بأعلى صوتي وأقول للعالم وكل الناس: هذا الولد بدأ يراني، هذا الولد بدأ يكبر، هذا الولد قد بدأ يحسّ!

15

أجلس الآن أمام اللوحات وأتذكر. لوحة الحرش وشيخ
العماد، لوحة زواتا وكريات أهرون، ثم صانور ومرج الزنبق. كنت
قد بلغت وأصبحت صبية، وربيع مثلي كبر وامتلاً وأصبح يقول أحلى
الكلمات. صار يقول إني حلوة. صار يقول إنه مشتاق حين نفترق أكثر
من شهر أو من أسبوع. صار يقول: إذا انتهت الحرب وخلصنا أخطبك
من أهلك ومنتزوج، معقول ستك ترضى عني؟ معقول أمك؟ معقول
خالك؟ معقول نابلس وعيلة قحطان؟ فأقول له وأنا أضحك: ول
يا زلمة!! (يكون سعيداً حين أناديه يا زلمة أو يا ختيار.) أقول له وأنا
أضحك: ستي تقول بمعزة نضال، وخالي يقول أنك ابنه، وخالي أمين
يقول البلد للفلاحين. يضحك ويقول: وتكوني فلاحه يا مدنية؟! لا
أجيب، لكنني أحس أن الدنيا ربيع بربيع.

أنظر في عينيهِ الخضراوين وأرى حقول القمح والبابونج،
رائحة الزعتر والطيبون، عطر الميرمية والريحان، غيوم الصنوبر واللزاب
وأعشاش الدوري والشنار تحتبى عميقاً بين الغيوم. غيوم خضراء
كقطن مندوف لونه أخضر على خلفية مثل الساتان. يقول بدهشة:
غيوم خضراء والسماتان؟! أما غريبة! فأقول لنفسي إن الحب أغرب
الأشياء على وجه الأرض. لماذا أرى الدنيا حلوة رغم الأحزان وآفات
الحرب؟ لماذا أحس أني سعيدة مع أن الناس في أبأس حال؟ لماذا أنسى
أنه مسكين بلا تعليم ولا شهادة وبلا مهنة، وأيضا بلا أرض يزرعها
ولا حاكورة، مع أنه فلاح ابن فلاح وأمه تعيش كالفلاحين في بيت من
لين وتبيع العلت والحبيزة؟ أمه تقوم بترويب اللبن وحلب الغنم وتبيع

اللبن بالقلولة، وأنا سأكون مثل أمه، ومثل سته أم نايف، أروّب اللبن وأحلب الغنم وأخبز عجيني بالطابون؟ لكن الحب شيء خارق، وكذا الثورة شيء أحرق! على مر الأيام والمراحل كنا نظن أن الثورة كلهيب الحب، ستجعل منا أحلى وأحنّ. لكن الحب شيء آخر، فيه أنغام، فيه انسجام وتحلي ما بين الجسم وحنان القلب.

قال ربيع إن الثورة أحلى من الحب، فغضبت منه، لأن الحب لا شيء في الدنيا يعلو عليه. الحب جمال، الحب دفء، الحب نسيم في عز الصيف، الحب قدرة على الأحلام. قال بعناد: وكذا الثورة. قلت الثورة تبعدي عنك. قلت الثورة تبعد خالي عن خالي أمين، وتبعد الاثنين عن سيّتي وعن أمي وداد. قلت الثورة بَعَدَتِ القدس عن نابلس. زعماء القدس قالوا ثورة، وزعماء نابلس قالوا ثورة، واحترنا يا ناس بين الثوّار! من منهم ثار، ومن منهم فرّ، ومن منهم تحلّى عن الثوّار؟ سألت بتكشيرة ووجه مقلوب: قصدك أبي والابوك؟ فتخاصمنا.

غاب عنا عدة أسابيع حتى أقنعت سيّتي وأمي بزيارة خالي في صانور. قلت لسيّتي الدنيا ربيع وبركة صانور صارت لوحة فيها زنبق كنجوم السماء ومروج القطن، والفرس الشهباء ولدت مهرة، والناس هناك في هذا الجو صاروا أكرم؛ لأنّ الطبيعة والأعشاب والخبيزة وحليب النعاج وفقس الصيصان جعلوا من الناس أغنى وأكرم، يعني مسخن، وجبنة طرية وزبدة بيضاء وخبز الطابون. فقالت سيّتي، آ والله صحيح، الفرس الشهباء ولدت مهرة، والدنيا ربيع، يا الله نسرح. وانت يا وداد يا الله معنا. لكن وداد كانت حرّة، مزاجها سيء ودوما صافنة وتفكر، وتهرب من نابلس إلى جو القدس تبحث عن عمل لتظل هناك، وسيّتي تتهم ليزا بما يحدث لأمي من تغيير وتردد كل يومين أو ثلاثة: متكّ الله يا ست ليزا، أنت السبب بخراب البيت.

وصلنا صانور، فرأينا البحيرة كما وُصفت. مرج من الزنبق الأبيض على وجه الماء تمتد لمئات الدونمات. الأرض سهلية وغروية، تتجمع الأمطار في شبه بحيرة شتوية تصبح مرتعا للزنبق البري والسوسن ورفوف الفراش. من البعد ظنناها مرجا للقطن، لكن ربيع كان قد وصفها وأجاد الوصف. فنبهت سِتِّي إلى أن ما نراه ليس قطنا، بل هو نعمة من نعم الطبيعة على بلدنا وتشيع الأرض بماء السماء.

سِتِّي تفهم لغة النباتات والطبيعة وتفسر الأشياء بمنطقها، فتجعل من الزهرة معجزة ومن النباتات أعجوبة، بعكس أُمِّي التي ترى الأشياء بحسّ عملي جامد. لكنها في ذاك اليوم فاجأتني، إذ وقفت مبهورة مسحورة تتأمل المنظر بإحساس يبلغ حد الدمع، كما لو كانت في حالة حب. تذكرت ما كانت سِتِّي تردده وتهجس به. كنت أسمعها تدعو الله أن يرزق وداد ويعوضها عما فقدته. كنت أسمع ذاك الدعاء، وأنا طفلة ولا أفهم معنى المقصود. وحين كبرت بدأت أفهم وبدأت أشكّ. وحين سألت سِتِّي، قالت بصريح العبارة إنني كبرت وسأ تزوج في يوم ما، وخالي وحيد سيتزوج، وخالي أمين سيتزوج، وخالي سمير في السعودية، وهي كبرت وغدا ستموت، فمن يبقى لوداد ليملاً عليها وحدتها؟ فكري بالعقل، قالت سِتِّي: وداد صغيرة ومحرومة ومن حقها أن تعيش مثل كل الناس. فكّرت بالعقل، لكن عقلي لم ينفع، لأنّي أحسست بالتهديد. وبدأت أراقب وداد وألاحق ما تقول وما تفعل حتى سمعتها تقول: أنا بدي أعيش! فأحسست بنفور وتمرد ودعوت الله ألا تفعل. لهذا شعرت بالتهديد وأنا أراها تنفعل أمام المنظر، لأنّي اكتشفت أن لديها إحساس وعواطف، وهذا يعني أنها ستعيش!

لم تطل وقفنا أمام بحيرة الزنبق، إذ لمحننا على البعد خالي وحيد وبرفقته خالي أمين كلا منهما على ظهر حصان. هلّلت سِتِّي حين رأت

الاثنين، لأنّها لم تتوقع مجيء أمين. أسرعت الخطو باتجاههما وأنا لحقت بها، لكن وداد ظلت مكانها لا تتحرك. عدت لأقف بجانبها من منطلق الإحساس بالواجب، وربما الإحساس بالتعاطف. في تلك اللحظة الغريبة تغلبت حساسيتي على خوفي، فعدت إليها ووقفت بجانبها هادئة صامتة، وما كنت أعرف ما المخبوء.

أقبل ربيع فطلب منه خالي أن يأخذنا إلى بيته. هلّلت سِتّي لسماعها كلمة «بيت» بدلا من مغارة أو حرش أو محجر لأن ذاك دليل على أن ابنها قد بدأ يعيش، ينام على سرير حقيقي، ويأكل طعاما مطبوخا ويستحم ويخلق ذقنه. لكنها فوجئت بالشابين يتحدثان بجدية ويتصرفان بطريقة أبعد ما تكون عن الفرح بلقائنا في يوم ربيعي مشرق يصلح للنزهة والانبساط. والغريب في الأمر أن الاثنين واصلا طريقهما وابتعدا باتجاه القرية من جهة الشرق.

أدخلنا ربيع دارا ريفية وسط مزرعة تبدو مهملة مهجورة، أرضها مليئة بالعوسج وأعشاب البر. الدار الريفية، وكما قال لنا، فقد كانت لثري لبناني باع أرضا لمستعمرة اليهود وهرب من فلسطين خوفا من ملاحقة الثوّار. مجموعة خالي استولت على مزرعة اللبناني وبيوت المزارعين وإسطبل الخيل. الرجال أقاموا في بيوت المزارعين، وخالي أقام في الدار وبدأ يخطط للاستقرار بشكل دائم.

دخلنا الدار، فوجدنا امرأتين إحدهما عجوز، والثانية شابة طويلة عريضة وبوجه جميل اسمها حَسْنا. العجوز انشغلت بمؤانسة سِتّي وأمي وداد، وحَسْنا خرجت إلى الحديقة لخبز العجين في الطابون، وأنا تسلفت أبحث عن ربيع. وجدته في الإسطبل الضخم يرفع الشهباء ومهرتها مستبدلا الماء بماء نظيف ومضيفا للجرن مزيدا من العلف وأوراق الخضار.

لم يد على ربيع الفرح بلقائي وأنا التي حلمت بذاك اللقاء طوال أسابيع. كان مذهولاً متكدرا يجيب عن أسئلتى بشكل مقتضب فاتر ولا يكف عن الحركة بين أكياس العلف وجرن الماء. كان يبدو منشغل البال بأمر مقلق، وهذا ما جعلني أتذكر موقف خالي حين استقبلنا بفتور وجدية، بعكس المرات السابقة حين كان خالي وحيد يلاقينا بالأحضان والقبلات وسلامات وأشواق لا حد لها. كما أن وجود أمين غير المتوقع جعلني أشك أن في الأمر سرا غريبا جعلهم جميعا جديين بذاك الوجوم.

حين واجهت ربيع بشكوكي لم يخف الأمر. قال إنهم جميعا ليسوا على ما يرام، لأن الأوضاع العامة جعلت مجموعة خالي تفكر بالاندثار. بعد استشهاد أبو طير، وهو الخامس من استشهدوا في المجموعة، وآخرون هربوا لقراهم أو التحقوا بقطاع الطرق أمثال أبو جلدة والزبيق، لم يبق من الرجال إلا نفر قليل غير مؤهلين لمواصلة القتال، بل أصبحوا عبئا على خالي، فمن أين يطعمهم ويزودهم بالذخيرة والسلاح؟ معظمهم قرروا الرحيل إلى قراهم، ليقوموا بأود عائلاتهم لأن الفقر ضرب الجميع والخسائر المادية والبشرية جعلت العائلات تضج بالشكوى وتطالب بتهدة الوضع. وعليه فإن خالي يمر بوقت عصيب، سيتخلى عن الثورة والثوار ويستقر هنا في صانور وأغلب الظن سيتزوج.

ماذا؟ خالي يستقر ويتزوج؟ ومجموعة خالي تتلاشى وكأن كل ما قاموا به وضحوا وماتوا من أجله بات سرا با؟! وكأن ما كان في قمم الجبال والطيارات والمطاردات والقناصة وكلاب الصيد والاعتيالات وما خلفته العمليات والاشتباكات من قتل ودمار وكوارث ونسف أحياء بأكملها، كل ذاك صار هباء، تخلوا عنه مقابل لا شيء؟

بصوت خفيض أعدت عليه ما كان الناس يقولونه عن تدهور الأوضاع، وما كان خالي أمين يكتب عنه ويقول إن الثورة عادت لتكرر نفس الأخطاء. خالي أمين كتب وآخرون كتبوا وقالوا إن ما حدث في ثورة 29 أعيد ثانية في ثورة 36، وها هو يعاد في نهاية 39. وأنهيت كلامي بأن تساءلت عما إذا كان صحيحا ما كتبوه، وما إذا كان صحيحا أنهم عادوا يكررون نفس الأخطاء!

صاح في وجهي لأول مرة، وقد احتقن وجهه بالانفعال:

- أخطائي أنا؟ أنا المسؤول؟ من المسؤول؟

فهمت أنه يشير إلى خالي بشكل غير مباشر، فغضضت الطرف وأحسست أنني مسؤولة، لأن خالي هو المسؤول. ثم تساءلت وقد عز علي أن اعترف وأصدق ما يحدث:

- يعني خالي هو المسؤول؟

نفض يده، وقال بحسرة وهو يستدير بوجهه عني:

- خالك مسكين، خالك عاجز.

لم أطق سماع كلمة عاجز عمن اعتبرته أكبر مثال للفداء ونكران الذات، فهو الأكرم، وهو الأصدق، وهو الأحن والأحسن. بالنسبة لي، كما للجميع، كان الأفضل والأشجع. وها هو ربيع، من أحبيته وحلمت به، يسقط من رفح رأسي عاليا ويلقي بصورته على الأرض، من تمنيت لو كان أبي، ومن تمنيت لو كنت ولدا لأتشبه به. فأحسست بكرامية لذاك الولد، وما عاد كبيرا في نظري.

نظرت إليه بطرف عيني، وكنا نجلس على طرف مقعد خشبي خلف الإسطبل نحدق في الأرض ونسأل عما حل بنا وماذا سيحل؟ وهل ضاع الحب؟ من ناحيتي، كنت أحس أن دنياي قد انهارت لأنني أضعت الإثنين معا، خالي وربيعة. وربيعة آنذاك، وأنا أراه ولدا صغيرا

مهزوما، ما عاد قريبا من قلبي. ما عدت أحنّ. حتى في القرب ما عدت أحنّ. ألاّته انكسر في نظري أم لأّته كسر تمثال خالي ورماءه على الأرض؟ أم لأّته أنزلني إلى الواقع وجعلني أرى أن خالي ومجموعته وأجواءه، وكل القصص والتضحيات والبطولات وأمانينا، ومن عشنا السنين المظلمة على نورهم صاروا مساكين، صاروا عجزة؟

التفت إلي. نظر إلي نظرة طويلة أبعد ما تكون عن الحنان والمحبة، كما لو كان يكرهني، كما لو كان يتهمني، كما لو كان يتألمني لأول مرة ويرى في وجهي ما لا يعجبه. أخيرا قال باقتضاب شديد، وكأنه يسمّع درسا، إنه حين التحق بالثورة كان يظن أن خالي سيكون بديلا عن أبيه وأمثاله، وأن مجموعة خالي ستكون بديلا عن أهله وعن عالم القرية وذل الفقر، وأن الثورة ستحرر البلد من الانجليز ومستعمرات اليهود وسيعيش الناس في بحبوحة، فيتمكن هو من شراء أرض يزرع فيها ويبني بيتا ويكون نفسه ويصبح رجلا. لكنه الآن وفي هذه الحال، وخالي سيتزوج ويستقر وينسى الثورة، وأيضا ينساه، وأفراد المجموعة كل سيعود إلى دنياه وعائلته، قد بقي وحيدا منسيا، من أين يعيش وكيف يعيش؟ ما المستقبل؟ أهنالك أمل في مستقبل؟

قام عن المقعد من جانبي ودخل الإسطبل واختفى فيه، وسمعتة يتلهى بحمل أكياس العلف وأكوام القش وينظف المكان من بقايا الدواب.

رفعت نظري عن الأرض ونظرت بعيدا فوق الأشجار وتحت الأشجار حيث الأعشاب وأشواك البر، وهناك رأيت الشهباء وابتتها. المهرة ترضع من أمها، والأم تأكل باطمئنان ثم تلتفت بعنقها الطويل إلى ابنتها كما لو كانت تباركها وتبتسم لها. شدي المنظر وذكرني أن المشهد يصلح للرسم. ولو كنت في وضع طبيعي لهرعت إلى الدار

أطلب ورقا لأرسم عليه لوحة جميلة توحى بالأمل والأمومة والجيل
الجديد والمستقبل. لكن آنذاك، وقد انهار الحب، والولد الصغير ظل
صغيرا وما عاد يحمل لي آملا في مستقبل، نظرت إلى الشهباء لأحسدها
وأقول بقلبي ما قد تقوله كل فتاة تفقد حبا فتندبه بقولها: حتى الشهباء
صارت أمّا، وأنا، هل أكون؟

16

في المساء عدت أبحث عنه ولم أجده. توغلت في المزرعة وكروم العنب ولم أجده. خرجت من المزرعة وضربت الخطى وأنا أهييم على وجهي وإحساس بالضياء يلزمني. إحساس بالذنب تملكني، وإحساس بالفجعة والذهول قاد خطواتي إلى المجهول. أخيراً استفتت ووجدتني أقف على هضبة تطل على صانور وتكشفها. المزرعة والدار وكروم العنب وبحيرة الزنبق والأفق الغربي وقد بدأ يحمرّ مع غياب الشمس يشكل لوحة لن أنساها أبداً ما حييت. جلست على صخرة أتأمل المشهد وأراجع الصور في مخيلتي وأحسّ بقلبي ينوء بما أحسست وما أضعت وندمت عليه. كنت قد بدأت أفقد براءتي ورهافتي، وقبل عمري أكبر وأشيخ.

جلست على الصخرة أتأمل بحيرة الزنبق تتلون بألوان الشفق وسكون الكون وهدأة العصفير مع حلول المساء وأنا وحدي أبحث عن شيء، أبحث عن وجه، أبحث عن ذاتي في ذاتي. ماذا سأكون؟ ماذا أفعل؟ ماذا أحسّ؟ ما هو دوري؟ كم كنت هامة في نظري! كنت ما زلت بعد صبية، والدنيا تدور من حولي، أنا في المركز، أنا قطب الأرض. سمعت عشبا يتقصّف فالتفت للخلف. رأيته يجلس على صخرة خلفي تماماً. كان يراقبني وأنا لا أراه. عشر خطوات أو أقل تفصلني عنه، ولم أحسّ بوجوده! لأنّه اعتاد التسلل؟ لأنّه تدرب على الاختباء؟ أم لأنّي أنا كنت منشغلة بإحساسي ولم أشعر به؟

تبادلنا نظرات غائمة. كان ما زال حرّاً مني، وأنا ما زلت مأخوذة بهدوء الكون وغروب الشمس وإحساس ساذج بأهميتي

ودوري في الكون وبحثي عن ذاتي في ذاتي. انتظرت أن يتخلى عن موقعه ويقترّب مني، لكنه ظل مكانه ينظر إليّ وينتظر مني أن آتي إليه واعتذر منه. ربما أحسّ، حين تساءلت عمن المسؤول عن الأخطاء أني أتجنّي وأتهمه. وربما أحسّ، وهو يشرح لي ضياع المستقبل والثورة، أني تخلّيت عن حبي، لأنّه ضاع وخيّب أمني. وربما أحسّ أنه أضعف، لأنّه أفقر. وربما أحسّ أنه ذليل وأنا قوية. كل الشكوك ساورتني وأنا أراه لا يتحرك، والدنيا سكوت والشمس تغيب.

أخيراً تنازلت عن موقعي واقتربت منه. وبدون كلام، أفسح لي مكاناً قريباً منه على صخرته. جلست بصمت ومددت يدي أبحث عن يده فتلقاها ورفعها إلى شفّتيه وقبّلها فأحسست دموعي تندفق رغماً عني. بدأت أنشج من أعماقي وأقول إن الله لن ينسانا، لأنّا صغار وأبرياء ولم نفعل معصية ولا خطيئة. لماذا يا رب تعاقبنا؟ لماذا يا رب ترضى بالظلم؟ لماذا نعيش ونتعذب ونرى النكسات والفواجع ونسمع ونحس ونتألم ولا نستطيع أن نفعل شيئاً ينقذنا من هذا الظلام؟ لماذا يا رب؟

التفتُ إليه وكان يبكي. يمسح دموعه بصمت وخجل ويدي ما زالت على شفّتيه. دموعه تسيل على كفي وأحسّ بها تلسع جلدي وتحرق قلبي، لأنّي أراه مثلي ضعيفاً، أضعف مني. هكذا كنا، طائرين صغيرين حائرين ضائعين نبحث عن هدف وعن معنى ونحب الحياة، لكن الحياة أقسى وأظلم، فماذا نفعل؟

قال لي إن خالي في وضع حزين. كلّ ما بناه وجمّعه اندثر وتناثر قصاصات ورق في مهب الريح. كل الظروف لعبت ضده، فلجأ للحب ليخلصه مما يعانيه، وإذا بالحب يزيده ضعفاً. خالي يحب امرأة كانت مع الثوّار اسمها حسّنا، وهي هنا تقيم في المزرعة مع خالتها.

خالي يحب حَسْناً، لكن حَسْناً لا تحب خالي، لأنَّها ما زالت وفيّة لذكرى زوجها وإخوتها وخالها الشهيد القائد أبو كمال. حَسْناً ما زالت تحلم بتلك الأيام حين كانت مع الثورة ومن الثَّوار. حين استشهد أبو كمال وزوجها وأخوتها هنا في صانور، لجأت لخالي على أمل أن يستمر بها كان خالها وزوجها وأخوتها يقومون به. حَسْناً تريد من خالي أن يأخذ موقع القائد أبو كمال ويعيد تجميع الرجال، لكن خالي بعد أن هجره الرجال وبات وحيداً، فقد موقعه في الثورة وبين الثَّوار.

قال كل ذلك ورأسه منكس وصوته خافت، فحاولت أن أواسيه وأعيد إليه الأمل والحِمْاسة. قلت له إن ما حدث ليس نهاية الدنيا والكون، لأن الأبناء سيأخذون مواقع الآباء. أليس هذا ما يقوله الجميع؟ أليس هذا ما كان يقوله خالي وخالي الثاني وكل الرجال؟ وواصلت كلامي بحرقة وحِمْاس: البركة فيك وبأمثالك. أنا معك، سأكون معك لنعيش معا ونموت معا. سأكون أنا مثل حَسْناً. سأكون معكم في الجبال والوديان وكهوف المحاجر والأحراش. سأكون معكم حتى الموت.

قلت ذلك وأنا أهُتُّز من الحِمْاسة والانفعال، فأمسك بيدي الاثنتين والتفت إلي بكامل وجهه وظلال الشمس الغاربة بدأت تسوِّده، وقال كلاماً لن أنساه. قال إن كلامي كلام عواطف. أمنيات قلب صبية صغيرة لا تعيش في الواقع بل بالأحلام. وسألني بجديّة تكاد تنقلب إلى سخرية: أنت في الجبال؟ أنت في الكهوف والمحاجر؟ هل تعرفين كيف كنا نعيش؟ هل تعرفين كيف نقاتل؟ هل تعرفين كيف نُطارد؟ هل تعرفين أين كنا ننام وكيف ننام؟ كنا ننام على التراب بين الحشرات والزواحف، وأحياناً ننام ببطن خاوية بدون عشاء. هل تقدّرين على ذلك؟ أن تكوني فرداً منا؟ بين فلاحين على باب الله

معظمهم لا يقرأون ولا يكتبون ويعيشون على القلة، بلا نظافة، بعيدا عن الناس والأقارب؟ كنا نعيش بعيدا عن الناس والأقارب. انحلت الثورة من الداخل، وما عاد بإمكاننا أن نتجمع. كل فرد منابات يبحث عن مخرج لخلاصه. وأمثالي الآن بلا مخرج. لا مال ولا أرض ولا عمل ولا مستقبل. فماذا لدي لأعطيك؟ لا شيء لدي أعدك به لأقول بصدق انتظريني، كوني لي وانتظريني. وها أنا أقول لا تنتظري لأني سأهج من هذه الأرض وأبحث عن أرض تؤويني. أبحث عن عمل، أبحث عن خيط يهديني، لأني الآن بلا حياة ولا مستقبل. أنا لا شيء، مجرد لا شيء. كنت أبكي وأتمزق على ما يقول وعلى نفسي. انهار العالم من حولي ولم يبق لي أمل في الحياة. أحسست أن كل من أحببت تخلى عني. وهو من سكن في قلبي وإحساسي وعشش في روحي ووجداني، وعلى يديه تعلمت الحب، وبخضرة عينيه رأيت الربيع ومروج القمح ولوحاتي، ها هو يغيب ويتركني بلا أمل وبلا أحلام ولا مستقبل؟ ما طعم الحياة بلا أحلام ولا مستقبل؟ أنا لن أعيش بلا حبه. أنا لن أحيأ. قَبْلَ يدي يستسمحني. وضع رأسه في حضني وبكى علي وعلى نفسه، وهذه المرة بلا خجل. بكى وبكى، وأنا بكيت وأنا أقسم أنني لن أنساه طوال حياتي وسأظل وفيّة على عهدي ما ظل نَفْسٌ في صدري. سأظل له، وسأنتظره، ولن أكون لرجل غيره.

رفع رأسه ومسح دموعه، وقال لي:

- أنت صغيرة.

قلت له وأنا أمسح دموعي بطرف ثوبي:

- وأنت صغير.

ابتسم بأسى، وقال بحسرة:

- أنا صغير لكنني كبير. بدأت أشيب وأنا أقل من العشرين،

لكنني تعلمت من الثورة. سأكافح في الدنيا حتى أصل، لكنني الآن لا أعرف كيف. وأنت حياتك هي حياتك. لا شيء تغير في حياتك، دارك مدرستك وألوانك. كل ما أتمناه أن تكوني سعيدة بحياتك.
تشبّث به:

- لن أكون سعيدة بدون ربيع.
قبّل يدي ثاني مرة وثالث مرة ثم قبّل جبيني، وسألني وهو يفارق:

- لن تنسيني؟
ضممت يدي إلى صدري ، وقلت كصلاة قدسية:
- كيف أنساك؟ أنت ربيعي!

17

الآن، وأنا أتذكّر تلك الأيام، وأتذكّر ذاك الوداع وذاك الموقف، أقول لنفسي كم ضاع العمر بلا ثمرة، كم خفق القلب بلا إحساس! لو ظل ربيع هل كنت أمر بتلك الحيات؟ هل كنت أضيع بهذا العالم بحثاً عن بديل لربيع؟ لكن الربيع لا يُستبدل ولا يتجدد، مرة في العمر، فقط مرة. هو حب الصبا وربيع القلب وحلم التغيير. في ذاك الزمن، ذاك الماضي، كنت ما زلت أومن بالحب، وأومن بالثورة والتغيير، وكان الحلم يغطي المساحات كما الأحراش والوديان ومروج القمح في بلدي، وجبال ترتفع لحدود السماء، ومطر ورعود وزوابع تخلف بحيرات شتوية تنبت أعشاشاً وعصافير. كم كان الحب دنيا جميلة، أفق لا أعرف أين مداه، ولون عينيه مساحاتي، أركض فيها كفرس شهباء تحملني على أجنحة لا تخذلني بل تملأني بطاقة رهيبة، طاقة على الحب، طاقة على الصبر، طاقة على الحلم والتسامح، لأنّي ما زلت أحلم بالغد. لكني الآن، وقد جاء الغد، وها هو أمامي كمسخ قزمي مشوّه، صورة ممزقة مشبوهة، كلمات نشار، ما عدت أحسّ، بت أفكر، بت أخطئ، بت أحلل، وأقول اليوم نبدأ بالحفر والصيانة، تجديد المدخل والساحة، مدخل الدار، شجر الحشخاش، خزانة أمي، غرفة خالي ورفوف الكتب وأقلامه، غرفة بستّي وكانون النار وألواني، لوحات الصبا وذكريات ربيع، ذاك الربيع، ذاك الغالي، وفي ذاك الخضم صورة خالي، لوحة الشهباء ومهرتها حين عبرنا أرض الزنبق وبحيرة تعج بفيض السماء وبتنا الآن بلا قطرة، نستجدي الماء ولا نشرب! ها أنا، الآن أمام الشهباء ومهرتها في لوحة ما زالت واضحة

بألوان الماء، لا الزمن محاهها ولا التاريخ ولا ذاكرتي. صورة خالي فوق
الشهباء ومهرتها تركض خلفه. صورة لبطولة ما اكتملت لكن الوقت
لن يمحيها، ولا ذاكرتي، ولا عشب نبت على الجدران.

18

ذهبت إلى الشهباء أو دّعها وأودّع حبا ودّعني. كنت ما زلت أبكي وأتمزق من فراق فرض علينا وأقول لو، وأقول كيف، وأقول يا ليت من تركونا وغابوا عنا ظلوا معنا وسمعوا منا واستمعوا إلينا وعزّونا. هل كان الحب يساعدنا على أن نعيش بلا حسرة وبلا أحزان؟ لو كان ربيع عند الشهباء، لو ظل معي يسمع ما سمعت، يمسك بيدي وأمسك بيده، يقول لي إن الأمل في المستقبل قريب منا، على مرمى حجر، يموج في الأفق ولا يأفل، ينتظر المطر حتى يهطل في أعتي شتاء، هل كان يعدني بالزنبق؟ هل كان يعدني بالشهباء تحترق الرعد وحدود السماء؟ أنا لا أعرف، لكن ما سمعته عند الشهباء لن يتركني، سيظل معي طوال حياتي، في أعماقي، فهو الخلفية للوحاتي، وهو المخزون لنبضات القلب. خلف الإسطبل حيث جلسنا أنا وهو قبل المغرب، جلست أنا جي صورته وأودع حبا يسكنني، وأقول لنفسي إن ربيع لن ينساني وربما يعود ويلقاني هنا في الظل على المقعد أجمع شتاتي وأنتظره. الجميع ناموا من بعد العشاء إلا خالي وأنا وربيعة، ربما ربيع، إحساس لدي أنه لن ينام ولن يغفو، أكاد أسمع خطواته. مع كل نسمة أو هبة ريح، مع كل غصن يتحرك، مع كل حركة من الشهباء ومهرتها، كنت ألتفت وأتخيل أنه سيعود، ويتذكر كيف جلسنا، وكيف حكينا، وكيف بكينا، وقبل يدي، ثم جبيني قبل أن يقول لن تنسني؟ وحين يعود، سيجدني هنا على أطلاله أنتظر رجوعه وعهوده وأقول له أنا منذورة، وسواء ذكرت أم لم تذكر حبي هذا، إني باقية على عهدي حتى تعود ويلتمّ الشمل.

انتظرت طويلا والكل نيام، وندى المساء يخترق العظم. وحين عزمت على الذهاب سمعت دعسات تتقدم. خطوات الخيل ونحنحة خالي ورائحة التبغ. كانا في طريقهما إلى الإسطبل لإيداع الخيل، فخفت أن يشكّا بي ويكتشفا أمرى وأسرارى. فلبدت مكاني بلا حركة، وحبست أنفاسى وتكومت خوفا من حركة أو همسة تصدر عني.

دخلا الإسطبل، وربطوا الحصانين بجوار الشهباء، وتحركا هنا وهناك، وأخيرا سمعت خالى الكبير يسأل أخاه إن كان يريد النوم، فقال الآخر بصوت مشحون إنه سيتعذر عليه النوم بعدما رآه وما سمعه.

طلب منه الكبير أن يجلس حتى يحادثه بشأن اقتراح. وحين سألته عن طبيعة الاقتراح، قال له إن الأمر يتعلق بالمال والسلاح. فلو كان لديهم المال والسلاح لعاد الرجال. هم يتركون مواقعهم حتى يعودوا إلى قراهم من أجل الرزق. يعودون هناك لإيجاد عمل. يعودون ليقطفوا ثمار مزارعهم أو ليشغلوا في حيفا أو في يافا عمال مياومة وتراحيل. الفقر والغلاء وحالة اليأس جعلتهم يتصرفون كما فعلوا. هم ليسوا سيئين لذلك الحد. ما قالوه كان سببه اليأس وضيق اليد. ولو توفر المال ودعم الزعماء لعاد الأمل ورجعوا للعمل في الثورة.

سألته أمين عما يقصد. فقال إن ما يقصده هو أن يذهب إلى الزعماء والوجهاء ليقنعهم بتوحيد الصف. وأنهى قوله بمقولة كررها عدة مرات: لديهم المال ولدينا الرجال. يمدوننا بالمال والسلاح، ونحن نقاتل.

قال أمين بمرارة ساخرة:

- ما زلنا نغني نفس الموال! ضع يديك بباء بارد. هؤلاء الوجهاء والزعماء لا يعبأون بك ولا برجالك ولا بالثورة. أنت تظن أن رجالك يتصرفون بهذا الشكل، لأنهم فقراء وأشقياء وبلا تعليم؟ لو

انك هناك وسمعت الزعماء والوجهاء لكفرت بكل شيء حتى بنفسك. أنا كنت أظن أن ثورتكم في الجبال ستكون الدواء لبلوانا، لكن ما سمعته من رجالك أنهى توقعاتي وأحلامي. وللحق، أنا توقعت ما يحدث وكتبت عنه. كنت أحذر من الانفلات والانقسام والتجاوز، لكنني ما كنت أتوقع أن يصل الأمر بكم إلى هذا الحد. ظل لدي أمل صغير أن تحصل المعجزة ويُصلح الحال. لكن، الآن، وبعدما سمعت من رجالك فقدت الأمل. ما عاد لدي أمل في شيء، نخرنا السوس، أم آنا كنا بهذا السوء ولم ندرك إلا بعد التجربة وعلى المحك؟ هل كنا سيئين بهذا الشكل قبل الثورة أم أن الثورة ونقص السلاح والتخلف أوصلونا إلى هذا الحد؟ أنا حتى الآن أتساءل. لماذا بدأنا بداية قوية وكنا مصدر اعتزاز كل الأمة ثم خبونا؟ لماذا تدرجنا بهذا الشكل؟ أما كنا فقراء وأشقياء وجهلة وشحاذين وقطاع طرق من البداية؟ فلماذا بدأنا بشكل قوي ونفس نظيف وعطاء بلا حدود ثم انهرنا؟ لماذا انهرتم؟ قل لي لماذا؟ أنت من أعطيت كل حياتك، وبعث الدنيا ومن فيها من أجل الثورة والتحرير، أنت الشريف، أنت النظيف، أنت من أودعك الشيخ الأمانة وتوخى فيك الصدق وكرم النفس، لماذا وصلت إلى هذا؟ قل لي لماذا؟ لماذا صرت بهذا الضعف؟ لماذا بت بلا بوصلة كما لو كنت، كما لو كنت... كما لو كنت قاربا فقد بوصلته ومرساته؟ من ضيعك وأفقدك الرشد؟ أهي حسنا؟ أنا لا أفهم كيف تحب امرأة كانت تقاتل مثل الرجال! أنا بصراحة، لا أرى فيها أثوثة ولا نعومة! أهذا ذوقك؟ وما هذا الحب؟ ثم أهو الحب أم هروب في الحب؟ يا أخي، إن كانت حسنا هي المشكلة، اذهب تزوجها وخلصنا. اشبع منها، وحين تشبع، ستعود إلينا كما كنت، قويا واضحا بلا اهتزاز ولا تحبط. هي من جعلتك رخوا عاطفيا بهذا الشكل. أنا لم أرك تبكي طوال حياتي.

كنت الكبير والقوي وحمّال الأحمال. لماذا بت حساسا بهذا الشكل؟ المشكلة ليست في الثورة ولا في رجالك، هي من هزمتك. هي تتحدّاك أمام الرجال. تجعلك تبدو ضعيفا أمام رجالك. لو انك استطعت أن تملكها لفقدت هالتها وباتت عادية ككل النساء. أعوذ بالله من ذوقك، كأنها رجل، كاسحة ألغام ومجنونة، امرأة تتصرف مثل الرجال! ما هذا الذوق! فلاحّة أميّة بلا أنوثة تأخذ عقلك؟ أنا لا أفهم! تريد مني أن أذهب إلى زعماء القدس وأقنعهم؟ كيف أقنعهم وأنا غير مقتنع؟ ماذا أقول لهم؟ أعطونا المال والسلاح لأن أخي العاشق يريد أن يقاتل حتى يرضي امرأة فترضى عنه وترضى به؟ وبمن يقاتل؟ بامرأة واحدة مجنونة لا همّ لها إلا أن تثار لزوجها وخالها وأخوتها؟ أهذا ما تريد؟ أن تقاتل من أجل امرأة؟ نسيت كل شيء وبت مجنونا بها وخاضعا لها ولسلطتها وتسلّطها. تريد منك أن تلبس جبة خالها ولا رجال لديك ولا مال ولا سلاح ولا ثورة؟ وهي تستفزك أمام الرجال وتتحدّاك وتجعلك تبدو بلا قيمة. ولو كنت واحدا من رجالك ورأيت حالك لفعلت ما فعلوه وغادرتك. نساؤهم أولى بهم. وتعتب عليهم يا رجل؟ إذا كنت أنت، وأنت القائد، قد بت عبدا لعيني امرأة، فلماذا تلوم تخليهم؟ أنت البادئ، أنت القدوة فاقتدوا بك. أنت القائد!

- حتى ولو كنت القائد، ممنوع أن أحب؟

- طبعا ممنوع. أنت القائد، أنت القدوة. وهذه المرأة طغت عليك، استفزتك وأضعفتك وتحذتك فصرت ضعيفا. هي أفرغتك. لو كنت مكانك لأبعدتها وابتعدت عنها مسافة أميال.

ظل خالي الكبير صامتا وطال سكوتها حتى ظننت أنها غادرا المكان دون علمي. لكنني أخيرا سمعت خالي الكبير يسأل أخاه إن كان يريد أن يسمع منه دون أن يعاتبه أو يعايره أو يشمت به. فصاح الآخر:

- أنا أشمت بك؟ أشمت بأخي؟ أهذا معقول؟ صحيح أنا
اختلفنا بالرؤيا ومنذ البداية أنا شككت بجدواكم، لكن الثورة جرفتني
كما جرفتكم. أحسنها وأحببناها وأملنا خيرا بجدواها، لكن الآن، ما
حل بكم، وكل الضحايا والتضحيات أين ذهبت؟ من أجل من وماذا
وكيف؟ وبلا مقابل؟ ما هو المقابل، أفهمني. ماذا أنجزتم حتى الآن؟
ماذا حققتم أفهمني؟

- بدأت تُعاتب وتحاسب وجئت لتشتت!
- طبعا أعاتب وأحاسب. هذا حقي وحق الآخرين وحق
البلد. لأنك قاتلت وناضلت تظن أنك فوق العتاب وفوق الحساب؟
أنت أعطيت وهم أعطوا. كل الآخرين كم أعطوكم؟ أعطوكم قراهم
ومدّهم وقوت أولادهم وبسببكم نسفت بيوتهم وتشردت عائلاتهم.
هؤلاء، ألا يحق لهم أن يعرفوا ما حلّ بكم؟ قدتم البلد وتبعناكم، وها
أنتم تنفرتون وتنقسمون وتنحدرون فهل نتبعكم؟ ماذا تريدون؟
أفهمني فقط، ماذا تريدون؟ وأنت بالذات، من آمن بك الشيخ وسلّمك
الأمانة والعهدة، ماذا تريد؟

- نريد مالا وسلاحا حتى نقاتل.
- لكن الرجال ذهبوا، انفضوا، بماذا تقاتل؟ تقاتل وحدك؟ ما
هذا السخف؟ هل أنت غبي أم تنغابي؟
- احفظ لسانك من فضلك. تذكّر أنك الصغير وأنا الأكبر.
- وهل ظل هنا أكبر وأصغر؟ يا أخي اصحّ، ففتح عينيك، ألا
ترى ما أنتم فيه؟ ذهبوا، انفضوا، ما عاد لديك أي مقاتل. وتريد مني
أن أذهب لأقول لهم « أعطوه المال والسلاح حتى يقاتل؟ » يقاتل بمن؟
يقاتل بامرأة؟ أم أنك تريد أن تثبت لتلك المرأة أنك قادر كي ترضى
عنك وترضى بك؟ هذه المرأة مجنونة، هي أميّة، لا تقرأ ولا تكتب ولا

تفكر. كل همّها أن تتأّر وتتشفّى، لا أقلّ من ذلك ولا أكثر.

- وأنا أتمنى أن أثار.

- لهذا تقاتل وتناضل؟ حتى تتأّر؟ أهذا ما لديك؟ أهذا

مخططك وتكتيكك؟ في أي عصر أنت؟ ألا ترى كيف يجاربون

ويخططون وينفذون؟ ألم تتعلم حتى الآن كيف تكون الحرب؟ الحرب

كانت وما زالت فن وتخطيط وإرادة، وفوق كل شيء موازين قوى.

صاح الكبير:

- يا أخي حلني بدروسك وفلسفتك وموازينك. أنا أخطأت

حين أرسلت في طلبك. أنا كنت أظن أنك ستقف معي وتساعدني. أنا

الآن في وضع صعب. وكنت آمل أن تنجديني! وها أنا أراك تتفلسف

علي وتحبطني. أنت مغرور. ألا تعرف أنك صرت مثل البيغاء تردد

كلمات فارغة حفظتها من الكتب وجريدتك؟ أنت لا تختلف عن

جماعة القدس. كلام وكلام ونصائح، هذا ما أخذناه منك ومنهم، مجرد

كلام ونصائح. أنت تظن أن حسننا هي وحدها من تريد منا أن نقاتل؟

لا يا سيدي، اسأل العجوز، اسأل أمك، اسأل أختك وابنة أختك،

اسأل العاقل والجاهل، اسأل الجميع، اسأل الناس. الناس يريدون أن

نقاتل. رغم الآلام ما زالوا يريدون أن نقاتل. ما زالوا يؤمنون بالثورة.

وأنا أيضا آمنت بما آمنوا ووجدت امرأة تؤمن بي. حسننا تؤمن أنني قادر،

وخالها من قبلها آمن بي، وزوجها والرجال، وحتى أمك، هم يؤمنون

أنني قادر. هي قدرت علي وعلى ضعفي. جعلتني أحسّ كم أنا ضعيف

وهي قوية. تحدتني. جعلتني أحسّ كم أنا مهزوم وهي صلبة. جعلتني

أحسّ كم هي جميلة بقوتها وجراتها. وأنا أمامها أصبح كالطفل. تصبح

أمي. قد تسخر مني وتضحك علي، لكنها تشبه أمي. أقسم بالله تشبه

أمي.

قاطعته الآخر بسخرية واضحة:

- لَأَتَّهَا تَوْمن بك؟

- لَأَتَّهَا تَوْمن بي، لَأَتَّهَا تَوْمن. ولم لا تَوْمن؟ أليس أفضل من
ألا تَوْمن؟ هي تَوْمن بي وأنا أومن بها، وأراها جميلة وجذابة وأروع
إنسانة في الدنيا وعلى وجه الأرض. أنا حين رأيتهأ أول مرة خفت
منها، قلت عنها امرأة خنثاء مثل الرجال. وحين صارحت هاشم
بأفكاري، يعني زوجها، ضحك مني وأخذ يصف لي رقتها وحنانها
وكيف تحبه. وكل يوم، حين تأتينا بالأكل والشرب وملابسنا وأسلحتنا
مزيطة ونظيفة أعجب منها كيف تجدد الوقت لكل ذلك، وكيف تفعل
ما تفعله بلا كلمة، ولا تنتظر حمدا ولا شكورا. وحين نشكرها تقول
لنا العين لا تعلق على الحاجب، وهذا واجب، وأنتم الأمل ونور
العين ومن هذا الكلام. ويوم بعد يوم بدأت أحسد زوجها وأقول
لو، لو كانت رشا مثل حسننا. لو كانت لي زوجة مثل حسننا. لو كل
النساء مثل حسننا! لو كل الرجال مثل حسننا! وبدأت أراقبها وأنتظر
قدومها وأتحين الفرص للحديث معها. يؤنبنني ضميري، وأقول لنفسي
إني أخون العشرة ورفيق السلاح. لكن حياة الوحدة وبؤس القتال،
وأنت تفقد زملاءك، والموت أمامك ووراءك، تفقد التمييز وميزانك.
تماما كما قلت، بدأت أفقد بوصلتي حين قاتلت وعرفت الموت. يموت
أمامك من أحببت، يلفظ أنفاسه على ذراعيك من ربيته، ومن دربته،
وأكلت معه، وشربت معه، وتشردت معه، ودافعت عنه ودافع عنك،
ونمت بجواره، واستمعت لهوموم وشجونته، ثم فجأة، هذا العزيز، هذا
الغالي، يتفتت نتفا أمام عينيك، يصبح لا شيء، مجرد لحم متطاير. وأنت
مثله ستكون غدا، ستلاقي غدا نفس مصيره. وكل يوم، تبدأ نهارك
بهذا السؤال، هل هذا اليوم هو يومي الأخير؟ وبما أن هذا اليوم هو

يومي الأخير، فلا ودّع الدنيا بآخر نظرة، آخر بسمه، وآخر إحساس. وحين يمر وجه جميل تلتفت إليه، بسمه حنونة تشبث بها وتبلع ريقك. وحين تراها بكاملها، صدر واسع، وجه أسمر كرغيف الخبز، وجسم لا أقوى ولا أبدع تفقد رشذك. وكم استغفرت، وكم صليت، وكم دعوت وكم هربت، لكنني أعود إلى جنوني مع كل موت، مع كل رجل يخطفه الموت، أعود لجنوني مع كل اشتباك وتوحش. سمّه ما شئت، سمّه الجهاد، سمّه النضال، سمّه الموت من أجل الحق والحريه، لكنه قتل، لكنه موت. تحدّثني عن توازن القوى والتحالفات والبوصلات ومرسّاتي؟ ضاعت قواي وبوصلتي حين أضعتهم وغابوا عني وبقي الزبيق. الزبيق أنقذني من الموت، فحفظت جميله وعاهدته على أن أكون الصديق الأمين والخل الوفي ورفيق السلاح. لكن الزبيق آلمني، هدّ كياني، حمّلني وزر أعماله وجعلني أنوء بها أحمل. وبت لا أعرف ماذا أكون. أأكون الصديق والخل الوفي أم أكون القائد والمرشد؟ أن أكون القائد يعني أن أزن كل صغيرة وكبيرة وأختار الأقوى والأحسن، وهذا للحق فشلت فيه، لم أقدر عليه. لكن حسنا قدرت عليه. هي من طرده وقالت له أنت مجرم، أنت حرامي، أنت دجّال، ابعد عنا. هي من طرده. وتعتب علي، لأنّي أراها شبه ملاك؟ بل هي ملاك وقوية، أقوى مني. منها أستمد قواي وتشحنني. وغير صحيح ما قلته أنها تستقوي علي وتفرغني. أبدا، بالعكس، هي تملأني وتحداني وتجعلني أقوى مما أنا. هي بالنسبة لي مثل الأم والأخت وامرأة أتمنى لو كانت لي. وحين استشهد زوجها باتت أملي، باتت حلمي. لكنها وقفت تحداني وقالت بصريح العبارة: هل تقدر يا بطل على مهري؟ حسنا تريدني أن أكون البديل لخالتها القائد ولزوجها المقاتل. تريدني البديل لمن رحلوا. أفهمت الآن؟

19

كنا نفطر في المطبخ، فاندفع الباب ودخل علينا رجل أغبر بلحية سوداء وشعر منبوش وثياب قذرة مدعوكة والبندقية على كتفه. جمدنا جميعا ووقفت اللقمة بأيدينا، فصاح خالي: أبو ربيع! وسِتِّي سحبت فوطة وغطت رأسها بتلقائية، وأمي وأمين ظلا يحملقان بدهشة وذهول. كانا لا يعرفان من هو أبو ربيع ولا خلفيته وتاريخه ولا عن تخليه عن خالي وانضمامه للزبيق ورجاله. كل ما رأياه كان رجلا تبدو عليه سمات اللصوص، وعلى كتفه بندقية وفي خصره خنجر ضخّم، وعلى وجهه علامات التحدي والاستفزاز. كما أن دخوله بذاك الشكل جعلنا نعتقد أننا نتعرض لعملية سطو كما أصبح مألوفا في كل قرية ومدينة. لكن خالي هب واقفا، وقد بدا عليه الوجوم والانفعال، وقال للرجل:

- هذي آخرتها يا أبو ربيع، تسرقني أنا؟

صاح الرجل:

- مثلما سرقت ابني ربيع. كل الرجال رجعوا القراهم وأهاليهم إلا ابني. رجّع ابني والا والله..

قاطع خالي:

- تهددني يا أبو ربيع؟ تهددني أنا؟

- أهدهك وأهدد من هو أكبر منك. ماذا فعلت بابني ربيع؟

حين أخذته قلنا آمين، التحق بالثورة مثل كل الشباب. لكن اليوم، الجميع رجعوا إلا ابني. هات لي ابني من تحت الأرض.

وقف خالي مذهولا لا يعرف كيف يتصرف ولا بمّ يجب.

بالأمس اكتشف اختفاء ربيع ولم يعرف إن كان سيعود أو أنه عاد لأهله. وها هو الآن يُفاجأ بموقف أبيه ومطالبته به! وأنا أيضا فوجئت بقول أبيه أنه لم يرجع إلى قريته، ثم تذكّرت ما قاله لي. قال سيهّج من هذه الأرض ويذهب إلى أرض أخرى بحثا عن عمل ومستقبل. عن أي أرض تحدّث؟ لم يقل لي. حتى لو قال، فكيف أبوح بأسراره وبأسراري؟ قال خالي:

- يا أبو ربيع اهدأ وخلينا نتفاهم. ابنك لم يعد في المجموعة. مجموعتنا خلص فرطت. كل واحد منهم رجع لأهله، وكان المفروض أن يظل ربيع هنا معي، لأنّه ابني، أنا تبنيته. صاحب الآخر:

- نعم! ابنك! ابنك أنت؟ وأنا من أنا؟ أتظنه بلا أب وأهل ولا حمولة؟ أقسم بالله إذا لم ترجعه ما أخلي واحد من قحطان على وجه الأرض.

هب أمين واقفا، وقد شحب لونه، وأمي خبّأت وجهها بيديها وأخذت ترتجف بذعر، وستّي تبسمل وتحوّل وتتلو الآيات، وأنا أخذت أبكي بصمت وأهمس بسري، ربيع يا ربيع! قال خالي:

- عيب يا أبو ربيع. أنت ابن ناس وابن أصول. أمك أم نايف مثل أمي.

هتفت ستي:

- أنت نايف؟ معقول يا ابني تكون نايف وتدخل علينا بهذا الشكل؟ معقول نايف؟ قال خالي:

- هو بذاته. كان أخي وحببي ورفيق السلاح وقتلنا سوا

وتشردنا سوا، واليوم الأخ يتنكر للأخ ويهجم على بيته وعلى أهله.

قالت سَيِّي بصوت حنون:

- أعود بالله. أنت مثل أولادي يا نايف. أملك أختي بعهد الله وأنت ولدي، والناس للناس يا ابن الناس. اقعد افطر. كل لقمة معنا واشرب شاي واقعد خلينا نتفاهم. وانت يا أمين، أقعد يمه، أبو ربيع واحد منا. تعال يا ابني، أصب لك شاي؟ عصيرة ورجالها ونسوانها على الراس والعين. اقعد افطر، أصب لك شاي؟ اقعد، اقعد. خفض الرجل عينيه وأخذ يتلفت يمينا وشمالا، وقد بدا عليه الارتباك وما عاد يعرف كيف يتصرف.

سَيِّي لكزت أمني وطلبت منها أن تأخذني إلى الداخل. ترددت، فقال خالي بصوت عالٍ:

- قومي يا وداد وخذي بنتك.

قامت بتلكؤ وبقيت أنا في مكاني. كان الفضول قد طغى على الخوف وأردت أن أعرف كيف يتصرف أبو ربيع، وهل يتجاوب مع سَيِّي وكلمات العطف؟ وهل يلبي الدعوة للإفطار؟ وكيف يأكل؟ وماذا سيقول عن ابنه ربيع؟ وهل ربيع ابن هذا اللص؟ إن كان كذلك، فمن المستحيل أن يعود ربيع إلى أهله. قال خالي بلهجة أمرة:

- قومي يا نضال.

قمت بتلكؤ وتملل. وضعت يدي على الطاولة، ودفعت الكرسي إلى الخلف، فأحدث صوتا جعل الرجل يحفل وينظر باتجاه الصوت. التقت عيناى بعينه، وكانت عيناه كعيني سمكة، مفتوحتان بشكل مستدير بلا أهداب ولا أجفان ولا تعبير، أو هذا ما رأيت بتلك الساعة. تعلّقت عيناه بعيني يتأملني وأنا أتأمله ولا أحس بالخوف، بل

بالفضول، وربما بالحزن، لأنّي اكتشفت من هو أبو ربيع، ولماذا ادعى ربيع أنه يتيم، ولماذا التصق بخالي وبنا كما لو كان فردا منا. الآن فهمت. لم يقل الرجل شيئا لكنه هز لي برأسه بحركة تعني أن أغادر، لكن حركته تلك شجعتني، أعطتني انطبعا أنه لا يهددني، فتجرات ولبدت في مكاني بلا حركة، لكن أمي شدتني وصاحت فوقّي، يا الله قومي. فقممت وجر جرت أقدامي، ووقفت أتلصص من شق الباب، ما بين الحائط والدرفة.

رأيت سني تنزع الفوطة عن شعرها وتمسك بإبريق الشاي وتبدأ تصب، وهي توجه الكلام للرجل الواقف بارتباك ولا يعرف كيف يتصرف. قالت كأنها تحدث واحدا من أولادها، وبلهجة حميمة وأليفة:

- تعال اقعد، كل لقمة حلوة ترد روحك. أكيد جوعان وبدون فطور. اقعد، اقعد، هذي لبننة وزيت وزعتر وتطلي سفرجل عملته بإيدي، وجبنة مسلوقة وخبز شراك. وهذا الشاي بننع أخضر، قطفته بإيدي قبل ما أصلي صلاة الصبح. أولاد أم نايف أولادي، وانت الكبير مثل ابني وحيد. تعال اقعد. قل له يا وحيد، هذا مستحي.

مد خالي يده يشير إلى الأكل:

- تفضل يا رجل، افطر معنا.

تردد الرجل قليلا ثم سحب الكرسي، وجلس ليأكل في البداية ببطء ثم أسرع، أخذ يزردد اللقم كأنه لم يذق الأكل منذ أيام. يمسك برغيف الشراك ويمزقه من النصف ثم يمزق النصف إلى نصفين ثم النصفين إلى أربعة ويغمس اللقمة بحجم الكف، ويكرع الشاي، ويمسح فمه وينظر حواليه، ويتسم ابتسامة حائرة مرتبكة، ثم يكشر ويعود للأكل وهو يهمر، وسني وأمين يراقبانه بدون تعبير،

وخالي الكبير يقرب منه الصبحون متعمدا إصدار أصوات الأكواب والفناجين، في محاولة لكسر الصمت، ولإخفاء أصوات المضغ والهمر، ولجعل الجو أكثر ودا.

قال خالي بعد فترة:

- أنا تبنت ربيع، لأنك أنت تخليت عنه. أنت أبوه وهو ابنك ولا أحد في العالم سيأخذه منك، لكن ابنك لديه أخلاق، معدنه نظيف وابن أصول. ابنك جدع. أتمنى لو أن الله يطعمني بولد مثله. كنت أنوي أن أعيده لمدرسته.

رفع الرجل رأسه، وقال ساخرا واللقمة محشوة في فمه:

- ويطلع دكتور؟

قالت ستي:

- يعني الدكتور أحسن من ربيع؟ ابنك ما شا الله، اسم الله عليه ممكن يطلع أحسن دكتور. قل له يا أمين، قل له عن القدس وعن بيروت. الشباب راحوا لبيروت ورجعوا دكاترة محترمين قد الدنيا. قال لها بصوت أجش فيه من السخرية والحسرة ما يستفز السامع ويحزنه:

- ابني أنا يطلع دكتور؟ ابني أنا؟ نكتة حلوة. المهم قلت لي إن

ربيع راح من صانور؟

قالت ستي مؤكدة:

- معقول يا ابني نكذب عليك؟ هذا ابنك، والابن آخرته لأمه وأهله. لكن أنت، الله يصلحك ويصلح حالك، صلي على النبي. - صليت كثير وما سمع مني، يمكن إذا أنت صليت يسمع منك.

- أنا أصلي، وأنت كمان لازم تصلي.

- خَلِينِي أَكَلْ يَا حُجَّةَ، هَذَا وَقْتُهُ؟
 - طَيِّبٌ وَبَعْدِينَ؟ مَعْقُولٌ تَظَلُّ مِثْلَ الزَّبِيْقِ؟
 هَدَرَ صَوْتٌ مِنْ بَابِ الْمَطْبَخِ كَهْدِيرِ الرَّعْدِ:
 - مَالَهُ الزَّبِيْقِ يَا سِتَّ الْكَلِّ؟
 التَّفْتُ الْجَمِيعُ فَإِذَا بِالزَّبِيْقِ بَطْوَلُهُ وَعَرَضَهُ يَسُدُّ الْبَابَ.
 مِنْ حَيْثُ وَقَفَتْ هَجَمَتْ أُمِّي لِتَبْعَدَنِي عَنْ شَقِّ الْبَابِ، لَكِنِّي
 تَمَسَّكْتُ بِمَوْقِعِي، فَوَقَفْتُ خَلْفِي وَهِيَ تَلْهَثُ فَوْقَ كَتْفِي.
 كَانَ طَوِيلًا وَنَحِيفًا وَبَظْهَرِهِ قَلِيلٌ مِنَ الْإِحْدِيدَابِ، وَشَعْرُهُ
 أَمْلَسُ مَلَأَهُ الشَّيْبُ، وَجْهُهُ طَوِيلٌ بَعْضُهَا بَارِزَةٌ وَتَجَاوِيفٌ، وَفِي فَمِهِ
 ضَرْسٌ ذَهَبِيٌّ. كَانَ يَلْبَسُ مَلَابِسَ نَظِيفَةً مَكْوِيَّةً، جَاكِيتَ بَنِي عَلِيٍّ
 قَمِيصَ أَبْيَضَ وَبَنْطَلُونَ كَاكِيٍّ وَبِدُونِ سِلَاحٍ، وَلَوْ رَأَيْتُهُ فِي أَيِّ مَكَانٍ
 لِحَسْبَتِهِ مُوَظَّفٌ حُكُومَةً أَوْ شَرَكَةً.
 دَفَعَ الْكُرْسِيَّ بَدُونِ اسْتِئْذَانٍ وَجَلَسَ إِلَى الطَّائِلَةِ فِي مُوَاجَهَةٍ
 خَالِيٍّ قَرِيبًا مِنْ أَبُو رُبَيْعٍ وَقَدْ وَارَبَ كَتْفِيهِ عَنْ سِتِّي. لَكِنَّهُ حِينَ مَدَّ يَدَهُ
 نَحْوَ الْأَكْلِ التَّفْتُ إِلَيْهَا، وَقَالَ بِأَدَبٍ:
 - بِالْإِذْنِ مِنْكَ يَا سِتَّ الْكَلِّ.
 ظَلَّتْ سِتِّي مُحَدِّقَةً الْعَيْنَيْنِ بِنَظَرَةٍ جَامِدَةٍ زَجَاجِيَّةٍ كَأَنَّهُمَا فَقَدَتِ
 الْقُدْرَةَ عَلَى النُّطْقِ. أَمَّا أَنَا، فَمَا أَحْسَسْتُ بِخَوْفٍ كَبِيرٍ الْآنَ، فَمَنْظَرُهُ لَمْ
 يَكُنْ مَخِيفًا كَمَا كَانَ أَبُو رُبَيْعٍ، لَكِنْ اسْمُ الزَّبِيْقِ وَمَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ
 جَعَلَنِي أَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ.
 مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ إِبْرِيْقِ الشَّايِ، وَصَبَّ لِنَفْسِهِ فَنَجَانًا، وَوَضَعَ قَلِيلًا
 مِنَ السُّكَّرِ، وَأَخَذَ يَحْرُكُهُ بِهَدْوٍ تَامٍ. رَفَعَ الْفَنَجَانَ إِلَى شَفْتِيهِ، وَسَحَبَ
 رَشْفَةً بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَالْكَلُّ يَحْدُقُ فِي وَجْهِهِ إِلَّا أَبُو رُبَيْعٍ الَّذِي اسْتَمَرَّ
 فِي الْأَكْلِ كَأَنَّهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ.

وضع الفنجان وابتسم ابتسامة ساخرة ولطيفة، ثم قال بصوت خفيض ومؤدب:

- بحضرة الحجة أنا ابن ناس ومؤدب. متذكرة يا حجة لما زرتكم بعد يعبد، وكان ابنك بين الحياة والموت وجرحه ينزف، متذكرة؟ لم تجبه سِتِّي وظلت تنظر في الفراغ كأنها لا ترى أحدا. واصل:

- قعدنا شهرين ويمكن أكثر وأنا وانت نسعف المحروس ونداويه.

لم تجبه سِتِّي، فواصل بدون اهتمام لسكوتهما:

- كنا عيلة، زي العيلة، ناكل ونشرب ونسهر ونتانس ونسولف وظلينا أحباب وأصحاب لحد ما دخلوا بينا اولاد الحرام، قصدي بنت الحرام، متذكر يا شيخ؟ متذكر؟

لم يجبه خالي، لكن أمي همست فوق كتفي: يقصد حسنا.

نقر الطاولة بأظافره ثم واصل:

- أنا بحضرة الست الوالدة لطيف ومؤدب، وبحضرة الشيخ والأستاذ أبو العلم والفهم، أنا واحد مسالم وابن ناس. لكن أنا عندي سؤال وعندي طلب، وأول سؤال عن هذي المزرعة وهذي الدار. هذي المزرعة لواحد لبناني هرب من فلسطين ورجع للبنان أو لجهنم، الله لا يرده، لكن المهم أن المزرعة بعدها باسمه، والخیل والدواب بعدها باسمه، والدنيا مش فوضى يا سيدنا الشيخ، أنت سيد الفهم والذوق، قسمة العدل والحق بيني وبينك. يعني أنت تأخذ النص، وأنا ورجالي ناخذ النص. هذي المزرعة طويلة عريضة، وفيها كروم عنب وتين وزيتون، وفيها بيوت للمزارعين صارت فاضية وينقصها رجال، وانت ولا مؤاخذه من غير رجال. عندك حسنا وخالة حسنا، وباقي البيوت ظلت فاضية وينقصها رجال. والدار كبيرة، وفيها غرف أكثر

بكثير من لزومك ولزوم الأهل. يعني بلا زغرة مين عندك غير الوالدة وأختك وبتتها وهذا المحترم شغل الجرايد والمجلات، يعني لا بفهم بالزرع ولا الحراث. وعندك يا سيدي، يخزي العين، دار العيلة في حبس الدم، وعندك خالك قد الدنيا يستنّ رجوعك بالثانية. يعني بصراحة لا أنت محتاج ولا حرامي. لكن أنا، أنا ورجالي، لا عندنا دار ولا عندنا أهل ولا عندنا خال قد الدنيا ولا عندنا خيل. إحنا حرامية ومعروفين، لكن أنت، أنت قحطان ابن قحطان وتربية الشيخ، الرحمة تنزل على روحه، وابن الحجّة وأخوك ما شا الله ويخزي العين، صحفي وزعيم مثل المفتي. يعني بالمختصر المفيد، تركة اللباني ناخذها النص بالنص، قسمة عدل بيني وبينك، لأنك سبقتني مع رجالك، لكن اليوم ولا مؤاخذه، أنت وحدك من غير رجال. أنا آخذ الشها والمهرة ولك أنت المرعد والهزاع؟ أنا آخذ كروم العنب والتين ولك أنت كرم الزيتون. وهذي الدار النص بالنص. لك أنت القسم الشرقي وأنا آخذ القسم الغربي، ويكون المطبخ للجميع، النص بالنص. يعني ناكل سوا ونشرب سوا ونطبخ سوا النص بالنص. حريمك يطبخوا وناكل مع بعض، عيلة واحدة مثل زمان، لأننا بصريح العبارة صرنا مثل بعض. بعد ما راقت الحالة وخلصت الثورة والضرب والطخ والإنجليز انشغلوا بالحرب، صرنا يا سيدي مثل بعض. اليوم أنت في مزرعة طويلة عريضة أكبر منك، وأنا طالب حقي ومش أكثر. هذا أولا. ثانيا، بما أن الثورة خلصت، وبما أنك صرت مثلي مثلك، أنا رأيي نرجع أحباب وأصحاب ونحط إيدينا بإيدين بعض ونشتغل مع سوا وناخذ نصيبك مثل رجالي، ونقول يا دار ما دخلك شر، ها شو قولك؟

التفتت ستي إلى خالي وقالت بذهول:

- الثورة يا وحيد خلص خلصت؟ راحوا رجالك؟

لم يجيبها بل ظل مطرقاً لا يرفع رأسه أو عينيه. لكن أمين قال
بهدهوء:

- مفهوم، مفهوم. الدار والمزرعة للبناني لكن الأرض أرض
بلدنا. أرض القرية وأهل القرية ولازم نرجعها للقرية. لكن اليهود
اشتروها وأخذوا الكواشين. وأخي سكن فيها حتى يمنع اليهود
يضموها لمستعمرة تسانور. حتى أرض تسانور اشتروها ودفعوا ثمنها.
وإذا أنت ناوي تخلص المزرعة من اليهود بالأول خلص أرض تسانور.
المزرعة عندنا مضمونة، لكن تسانور بحاجة لواحد يخلصها، واحد
مثلك. عندك رجال وعندك سلاح، يا الله تشاطر. مضبوط هالكلام؟
هز الزبيق رأسه موافقا:
- طبعا مضبوط.

- يعني أخي ما استولى على المزرعة كأنه حرامي، هذي المزرعة
لصانور وأهل صانور. وحيد سكنها مع رجاله حتى يحميها ويحرسها،
هذي أرضنا، أرض بلدنا، لا هي أرض اللبناني ولا أرض اليهود ولا
الأتراك ولا الانجليز. هذي لصانور وأهل صانور. مضبوط الكلام؟
هز الزبيق رأسه موافقا:

- طبعا مضبوط. لكن القصة وما فيها أن هذا الشيخ - وأشار
لخالي الكبير - صار اليوم من غير رجال، ومن غير رجال كيف يقدر
يصونها ويحميها؟ ما عنده غيرك يا أستاذ، وأنت ولا مؤاخذه لا قد
الطخ ولا الزعرنات ولا العمليات والاستشهاد. تقدر تحميها أنت
وأخوك من غير رجال ومن غير سلاح؟ أنا ورجالي ما زلنا جاهزين
ومعانا سلاح، ونقدر لليهود وغير اليهود.

هتفت سِتِّي بصوت مشروخ:

- والانجليز نسيتوهم!!

رفع يده وأوقفها، ثم أخذ يرفعها وينزلها كطيارة، ويقول بهدوء:

- على مهلك ستنا، على مهلك. أنا والله فاهم الوضع وحاسب حساب كل صغيرة وكل كبيرة. اليوم الإنجليز مشغولين بالحرب، لكن بكرة لما تخلص الحرب ويرجعوا الإنجليز، ويمكن الألمان، هاتوا ضرايب وهاتوا جمارك وهاتوا تشليح. بكرة الإنجليز، أو الألمان، باسم القانون والحكومة يصادروا المزرعة ويعطوها لليهود، الآن اليهود اشتروها ومعهم كواشين. ساعتها الأرض لا هي أرضي ولا هي أرضك ولا أرض صانور وتطير المزرعة بخيوها. لكن يا حبيبي يا سيدنا الشيخ، إذا نحن تقاسمنا النص بالنص والمطبخ كان بيني وبينك لا الإنجليز ولا اليهود ولا الألمان ممكن يجروا ويصادروها.

همست ستي، وهي تستدير إلى خالي:

- يعني حرامية يا وحيد، هذا المقصود، حرامية!

رفع الزيق صوته:

- يا ستي سميننا حرامية وسمينا مجرمين، سميننا كلاب وسمينا خنازير، المهم الأرض أرضنا كلنا. بتقول إن الأرض أرض بلدنا؟ طيب، عظيم، أرض بلدنا، إذن نقسمها النص بالنص. يعني هي البلد لعيلة قحطان وما خلف؟ لأ يا عمي، طيب وأنا؟ أنا ورجالي؟ وأبو ربيع وابنه ربيع؟ وأنا كمان عندي عيلة، ورجالي كمان عندهم أولاد. يعني يا جماعة بالعربي الفصيح نتقاسمها. بالحق بالباطل أنت النص وأنا النص، ونقول يا دار ما دخلك شر، وإذا مش عاجبك ارجع لدارك بحبس الدم من غير مطرود، أو ارجع لخالك في حيفا وخلي المزرعة وهم اليهود وهم الكواشين علي أنا، أنا مستعد، أنا ورجالي. ولك عندي يا حبيبي يا سيدنا الشيخ أطير لك روس اليهود مع الإنجليز

واحد واحد. أنا عندي رجال وعندي سلاح وعندي حركات ما تقدر عليها أنت وأخوك. يعني بالذوق وبالعافية خيلنا نفضها ونتفاهم. ها، شو قولك؟

هز خالي رأسه بألم واضح، وقال كأنه يخاطب نفسه:

- هذي آخرتها يا دنيا، أنا والزبيق!

صاح الزبيق:

- ماله الزبيق؟ وماله أبو ربيع؟

ولكز أبو ربيع في كتفه، وصاح به:

- قم نادي الرجال، يا الله توكل.

ظل أبو ربيع جالسا في مكانه مطأطئا لا يتحرك، فصاح به

الزبيق ثانية:

- قم نادي الرجال!

فجأة رأينا حَسْنا تسد باب المطبخ فحجبت النور بثوبها

الأسود وضخامتها، وبندقية بيدها موجهة إلى ظهر الزبيق. وبدون

كلام، غرست الفوهة في ظهره فجمد مكانه وحملق عينيه ثم ابتسم

بسمة خبيثة، وقال متسائلا:

- حَسْنا؟ حَسْنا؟ أكيد حَسْنا!

لم يجبه أحد، لكنني رأيت الجميع ينظرون إليها، وهي لا تنظر

في وجه أحد. كانت تنظر للأمام، فالتقت عيناها بعينيها، أو هكذا خيل

إلي، وعلى وجهها بسمة خفيفة. أحسست أنها تراني وترى أُمي من

شق الباب، هي تراني، وأنا أراها، وأُمي تلهث وتتنفس فوق كتفي،

وأنا أتأملها كأني أرى صورة عجيبة في كتاب غريب. أُمي همست فوق

رأسي: يحرس دينك يا حَسْنا، والله فحلة! وسَيَّ هزت رأسها كأنها

تتمنى لو كانت بمكان حَسْنا. لكن الزبيق لكز خالي في كتفه لكزة قوية،

وقال صاحكا:

- عفارم عليك! بهذي الحرمة؟! يهود وإنجليز ويمكن ألمان
بهذي الحرمة؟! طيب قحطان خلىنا نشوف!

20

كم جميل لو بقينا أصدقاء

كم جميل لو بقينا أنقياء...

الصوت اللولبي المتسلق أعلى الخشخاش والياسمينه أيقظني
صباحا وذكّرني أن مواعيدي مع بائع الكهرباء قد أزف اليوم. سيكون
لدي راديو كبير مع مسجل ومشغل اسطوانات مدملجة أسمع منها
أغاني وموسيقى طوال اليوم. سأسمع أنغاما تسعدني، وأقرأ أشعار
وكتب خالي. سأعيش في عزلة عن الماضي وعن الحاضر وأكرس نفسي
لإحساسي، وأرسم لوحات جديدة فيها أزهار وعصافير وفراشات
بألوان قزح ونساء جميلات سعيدات بعيون خضراء وعسلية. سأعيش
لفني وإحساسي كما كنت أحلم طوال سنين.

فتحت عيني وأنا أحلم، فوجدتني بغرفة خالي. جدران نظيفة
بطلاء جديد ورفوف الكتب تنفث رائحة الدهان والخشب المصنفر
والمعاجين، وندى الصباح مع الياسمين وزهر الخشخاش شيء مذهل
ويدير الرأس، وجرامفون خالي ما زال هنا يحلي الغرفة كتحفة قديمة من
أيام زمان، وأسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم ثم فيروز وعبد الحليم.
كم عشنا الزمن بلا هواجس! كم أحسنا بانسجام غريب وثقة زائدة
عن الواقع، كما لو كنا نصف الكون وأروع ما فيه! كنا نحس أن من
لم يسمع عبد الوهاب وأم كلثوم خسر الدنيا ونصف عمره. ولم يكن
هناك في نظرنا من لم يسمع بعبد الوهاب وأم كلثوم. والأمر الغريب
أن ثقتنا بأنفسنا وأهمية ماضينا وحاضرنا وموسيقانا وأغانينا وشعراء
المهجر والمحضر وإيليا أبو ماضي و خليل جبران وأحمد شوقي وكل
الفنون وأحلام البعث، جعلتنا نحس أن الدنيا دنيانا نحن، والآخرون

لا لون لهم ولا طعم لهم ولا ظلال وأهمية! اكتفاء ذاتي في كل شيء،
في الاقتصاد والسياسة والعلم والفن وحتى الغناء. وان كان مراقبينا
يسمعون الفس بريسي و مايكل جاكسون فلائهم ما زالوا صغارا
عديمي النضج، وحين يكبرون سيسمعون ما نسمع ويفكرون كما
نفكر، ويحلمون كما نحلم ببلاد حرة موحدة من أقصى المحيط إلى أقصى
الخليج، ويغنون معنا أغنيتنا الملهمة الخلاقة من المحيط الهادر إلى الخليج
الثائر، لبيك عبد الناصر، لبيك عبد الناصر.

أنا لا أغمز، بل أعترف بحزن وحرقة قلب أن كان لنا في يوم
ما زعماء كرام، أحبيناهم وقدرناهم، عبد الناصر وعبد القادر وأبو
كمال وسعادة وشهداء أكثر من أن يحصوا، ثم زعماء أصغر وأصغر
كلعبة بتروشكا الروسية تبدأ بكبير وتنتهي بصغير وأصغر وأصغر،
حتى تتمخض عن شرقة من غير فراش. لكن خالي المثقف اعتنق كل
هؤلاء وجريهم وجرى معهم واستمع إليهم وافتتن بهم، ثم حدد وعلق
صورة زعيم بشعر مكتظ فوقه شعار على شكل دولاب بزوايا محدبة
ما أن تدور حتى تصبح بشكل الحوام. حين رأت ستي تلك الصورة
لأول مرة سألت خالي، ما هذا الشيء؟ فقال بثقة، هذا الزوبعة يا أمي.
سألت بدعابة ساخرة، زوبعة بفنجان؟ قال بجدية، بدون ابتسام،
بل هبوب الريح على شجرة نصفها ميت. الزوبعة تقتلع الشجرة من
الأعماق وتنظفها وتطهرها وتعيدها للأرض المحروثة بعد التسميد.
هذا الدولاب هو للتسميد بعد الإعصار والزوابع، أفهمت الآن؟
مصممت شفتيها واستدارت وهي تدمدم، ساعة دولاب، وساعة
نخلة، وساعة شاكوش، وساعة منجل، واليوم وصلنا لفرفورة، منها
لله الست ليزا. صاحت أمي من غرفتها، مالها ليزا؟ هي وعنتي وخلتني
أعيش!

ضبطت نفسي وأنا أعود لذاك الماضي فذكرت نفسي بوعودي،
أما كنا اتفقنا أن نعيش بلا ذكريات وبلا أحزان؟ أما اتفقنا أن ننسى
ما نحن اليوم وما كنا بالأمس ونعيش فقط من أجل الفن؟ أما اتفقنا
أن أعيش لإحساسي وأرسم لوحات خرافية فيها ألوان مشرقة وعيون
خضراء وعسلية؟ عيون خضراء؟ وهل أنسى ربيع القلب وربيعي؟
وانهارت الذكريات كقطع الليغو ومبانٍ شاهقة تنهار من غير أساس.
لكن الجرس أوقف التيار في ذاكرتي وأعاد لي الإحساس بالواقع. بائع
الكهربائيات وبضاعته ومسجل الأغاني والثريات وغسالة وثلاجة
وفرن الغاز. فركضت بسرعة لفتح الباب وأفرح ببضاعة تسعدني
وتجعلني أحسّ أي على الأرض وأرضية.

فتحت الباب فإذا بياسمين تحمل صحنين فيهما ورق دوالي
يالنجي، وقطعة جاتوه. ما هذا الآن؟ لماذا في الصباح؟ أما كنا اتفقنا على
وليمة؟ كانت وعدتني بوليمة على ورق دوالي وكوسا محشي وكلاج
نابلسي بالجبن والجوز. قالت إن أمها تنتظر رؤيتي بفاغ الصبر حتى
تحدثني عن أمي وستي وخالي وخالي الثاني وذكريات بلا أول وبلا
آخر، وأنها تدعوني إلى أكلة دسمة جدا تذكرني بأيام زمان. أنا قبلت
تلك الدعوة وحددنا الموعد بظهر اليوم، فما هذا يالنجي والجاتوه؟
أهذا بديل عن الوليمة والأكل الدسم وكلاج نابلسي بالجبن والجوز؟
شدتني من يدي، وقالت همسا: أحكي لك سر وما تحكي
لحد؟ احلفي بالله ما تحكي لحد. حلفت بالله ما أحكي لحد وانتظرت
منها أن تحكي. لكنها شدتني من يدي، وقالت بحذر وهي تلتفت
حواليها: تعالي نقعد تحت الخشخاش بعيد عن شبابيك وعيون الجيران
لأن القصة طويلة عريضة ولها ذنب. فتحت عيني وأذني بانتظار القصة
ذات الذنب. تلتفت حواليها ثانية، ووضعت الصحنين على حافة

الحوض، وقالت همسا، احلفي بالأول ما تحكي لحد، القصة خطيرة يا جارة. حلفت ثانية وثالثة فبدأت تحكي، وحكت القصة بهذا الشكل:

- يوم الأحد، خلال الإغلاق وتفتيش الحارة دخل علينا شاب صغير عمره يا دوب 17 سنة وقال لأمي، خبيني يا حجة مشان الله. أنا كنت أقف بباب الحمام وشفّت الولد راعع عند أمي ييوس إيدها ويقول يا حجة خبيني. أمي، أنت عارفة، ست كبيرة ودمعتها قريبة وقلبها حنون. قالت يا ابني البيت بيتك. نحن مين إلنا غير الشباب؟ انتو الأمل والمستقبل وانشا الله تظلوا فوق روسنا لأننا من دونكم ما نسوى. قال يا حجة كلها ساعتين أو ثلاثة حتى يروحوا ويخلص التفتيش من الحارة. نادنتي أمي وقالت لي شوفي يا ياسمين، شوفي هالشاب ودبري أموره. أنا لوني انخطف وقلبي دق وصرت أرجف. قلت بعقلي، إحنا مالنا ومال الشباب والضرب والطخ والاشتباكات والمطارادات والنسف والحبس والمركابا؟ وأنا يا جارتى حكيت لك كيف المركابا أكبر من الدار ومن الجامع. تطلعت من الشباك، شفّت المركابا بالحارة، والجندي واقف بفتحتها واصل حدي عند الشباك عينه بعيني. قلت بعقلي يا مصيبتنا، خلص ضعنا ونسفوا لنا الدار. سكرت الشبايك والبرادي وصارت الدار عتمة كوييا وصرت أفكر، إن خبيته واكتشفوه اليهود ينسفوا دارنا. وان ما خبيته، شباب الانتفاضة يحاربونا. طب شو أعمل؟ لو كنت مكاني يا ست نضال بتخبي الولد أو ما تخبيه؟

قلت بسرعة:

- طبعا أخبيه.

- وما بتخافي؟

- طبعا أخاف، لكن معقول أترك الولد لرحمة الجنود يكسروا

راسه؟ ممكن يضربوه، ممكن يعتقلوه من غير محاكمة ولا تحقيق، وممكن

- يطخوه قدام عيني.
- طيب وأنا؟ وأنا واحدة وحيدة ومقطوعة وأمي كبيرة وما عندنا رجال. إذا اكتشفوا الولد عندنا بالدار ينسفوا دارنا بالعفش وأغراضنا وملابسنا وبالغسالة. غسالة جديدة اشتريناها من أسبوعين. غسالة جديدة بورقتها وما غسلنا فيها غير مرتين.
- طيب ياسمين، نسيت الولد!
- آ يا ستي، الولد، الولد. الولد يا حبيتي كان راع عند رجلين أمي ييوس إيديها ويقول يا حجة خبيني.
- طيب وبعدين؟
- بعدين يا جارتني قلت بعقلي إذا شافوا الولد...
- طيب، طيب، بعدين شو صار؟
- سكرت الشبايك والبرادي وصارت الدار عتمة كوييا، وقعت أفكر وأحسب بعقلي ألف حساب، وقلت لحالي..
- قولي يا ياسمين خوفتيني، بعدين شو صار؟
- اصبري علي، خليني أحكي وأفش قلبي. أنت لو تشوفي حالتنا. أمي صار وجهها كركم، وأنا قلبي وقف، وكنت بدي أموت. شافنا الولد بهذي الحالة استحي وقام وقال لأمي، طيب يا جماعة ساحمونا. وفتح باب الدار وأنا واقفة زي لوح الثلج وعقلي كأنه بثلاجة. مش بس عقلي، وقلبي ورجلي وكل مفاصلي، وكلّي يا جارتنا مثل الثلج، لأنّ الدار كانت باردة وشباك المطبخ الغربي نسيته مفتوح والهوا يصفق والدنيا باردة كأنها شتا. تذكّرت الشباك، وقلت لحالي شباك المطبخ والحمام، رحت أسكر الشبايك...
- والولد راح؟
- لأ يا ستي، الولد ما راح، كان بعده راع عند أمي.

- قلتِ فتح الباب وخرج من الدار؟
 - أنا قلت لك خرج من الدار؟ إيمتى أنا قلت خرج من الدار؟

- إذن شو صار؟

- بعد ما سكرت شبابيك المطبخ والحمام رجعت للصالون، وكان الولد راكع عند أمي يحاكيها، ويقول يا حجة السنة توجيهي وأنا شاطر ودايما الأول على صفي، لكن وأنا راجع من المدرسة لقيت الأولاد عاملين متراس، لأن الجنود دخلوا الحارة وبدأوا التفتيش. وقفت أستنى ورا المتراس، لأنّ زقاق دارنا خلف المتراس. وقفت أستنى. خرجوا الجنود من الجامع وكانوا يمكن 20 جندي ويمكن أكثر. الأولاد صاروا يرشقوهم بالحجار والمقاليح، وطبعا الجنود صاروا يطخوا. أنا هربت ونطيت عن سور جنيتكم ودخلت داركم. سألته أمي، هذا كل شيء؟ قال الولد، هذا كل شيء. قالت أمي يا ياسمين شوفي هالولد ودبري أموره. ولما شافني زي لوح الثلج، وأمي وجهها زي الكركم قام عن الأرض، وقال يا جماعة ساحونا، وفتح باب الدار ونزل الدرجات.

- معقول يخرج وانت واقفة وما تعملي شيء؟!
 - لأ يا حبيبتي، معقول أخليه يخرج وما أعمل شيء؟ قلت بعقلي، إذا اعتقلوا الولد وهو باب دارنا وشفته بعيني يدخل في الجيب وهو مكلبش وعلى راسه كيس ممكن أجنّ. وإذا طخوه قدام عيني أنا ممكن أموت. وقفت في العتبة، وقتله يا شاب ارجع، ارجع. تعال وما تخلي حدا يشوفك. دخل الولد، يعني هذا الشاب، وهو يعني ولد، بيني وبينك حتى شواربه زي الوبر وخدوده ناعمة مثل البنات وعيونه خضر ما شا الله عليه الحامي يحماه ما أحلى عيونه وما أحلى طولته وشعره

وشكله، وعيونه خضر، لب الفستق، ولابس ملابس نظيفة، يعني لا شكله شكل متاريس ولا حجارة. قلبي لهف له، تخيلته طالع من السينما والتلفزيون. ابن 17 أو 18 وبالكثير 19. والأولاد بهذا العمر يا حرام مساكين، دايا خافين، لأنهم يا جارتني بهذا السن لو تعرفي كيف يصطادوهم زي العصافير، وهذا الولد...

- طيب وبعدين، احكي بسرعة.

- طيب، طيب، اصبري علي. أنا بحكي لك إن هذا الولد شاطر وموزون وعقله مرتب. لو تسمعي كلامه وتشوفيه! عيونه، شكله، كلامه وفهمه، لو كنت أنا أصغر وهو أكبر كنت عشقته. وبينني وبينك وأنا صغيرة كان عندنا واحد بحارتنا مثله بالظبط، يعني بالشام قبل الزواج وقبل الخطبة. كان دايا يوقف باب دارنا، وأنا رايحة وجاية لمدرستي يكون واقف يستناني ويمشي وراي لمدرستي، ومرة قال لي صباح الخير، لكن ما التفت ولا جاوبته. مشى قدامي عشرين خطوة وبعدين رجع، وقال ثاني مرة بنص أذني صباح الخير. تطلعت في وجهه وأنا ساكتة ولو تشوفي عينيه يا جارتنا، لب الفستق، لبالب ريجان، زمرد ألماظ وياقوت أخضر. أنا قلبي سقط. وقعدت طول النهار وأنا أفكر، لو أنا رديت، وقلت للشاب صباح الخير شو كان صار بهالدينا؟ الدنيا تطير؟

بدأت أفقد صبري، لأنني أردت أن أعرف ما حل بالولد، الولد - الشاب ابن 17 بعينه الخضراوين لب الفستق وشكله الشبيه بشكل آدم فصحت بها أستعجلها:

- وبعدين يا ياسمين، فريتيني، شو صار للولد؟

التفتت إلي وعلى وجهها ابتسامة حائرة مندهشة:

- مالك بتصيحي يا جارتنا؟

- لآئك يا ياسمين فقعتيني. نشفت رقيقي من الخوف. شو صار للولد؟ قولي بسرعة.

- طبعاً خبيته يا ست نضال، معقول أرميه لكلاّب اليهود؟ معهم كلاّب كل كلب صدقيني قد الحمار ونيابه تلمع زي المبرد، بعيد عن السامعين الناب الواحد طولّه شبر وريالته نازله ويشمشم كأنه مسعور، أكيد مسعور.

- طيب بالعقل كيف شفّتهم والشبابيك والبرادي والدار كويّا؟

- لآني لما خرجت أنا دي الولد ضربت عيني على دار الجيران وشفّت الكلاّب وشفّت الجنود واقفين بالباب.

- وشافوك؟

- لآ كانوا تحت، في الطابق الأول تحت بيتنا. أنا شفّتهم من فوق وشفّت كلاّبهم وما شافوني. دخلت الولد، وقلت لأمي، وين أخيه؟ قالت أمي، أنا عارفة يا ياسمين وين تخبيه؟ أنت أدري. وأنت عارفه يا ست نضال أمي كبيرة، ومن زمان تقعد على الصوفا ما تتحرك، لآتها مريضة وحركتها صارت قليلة، يعني يا دوب تروح عالحمام، وأنا شغل البيت والطبخ والنفيخ والغسيل والمسح والكناسة هذا كله علي. يعني أمي ما بتعرف شيء ولا تمسك شيء، من سنين المسكينة بها حالة، هيك الدنيا، احنا عارفين شو ممكن يصير لما نكبر؟ على الأقل أمي عندها بنتها لكن أنا ما عندي ولد ولا عندي تلد ولا عندي فاطمة ولا محمد.

- رجعنا لفاطمة ومحمد؟ قولي لي شو صار؟ وين خبيته؟

- خبيته يا ستّي بالخزانة، خزانة أمي، وبعدين تذكّرت أن خزانتي فيها محباً بين ظهر الخزانة وفتحة في الحيط. رجعت أخذته من خزانة أمي وخبيته هناك، بين ظهر الخزانة وفتحة الحيط. مرت نص

ساعة واحنا قاعدين نستناهم. وبعدين ساعة، وبعدين ساعتين ويمكن أكثر. أنا خفت على الولد، وقلت بعقلي يمكن يفطس من قلة الهواء، وقلة الحركة، ويمكن زحمان، ويمكن جوعان، ويمكن عطشان. رحت ناديته، قلت له يا شاب، انت شو أسمك؟ قال من ورا الخزانة كأنه مخنوق، أنا اسمي سعد. قلت له كيف حالك يا سعد؟ قال لي مبسوط. قلت له مرتاح ورا الخزانة؟ قال لي مرتاح. قلت له جوعان؟ استحييت أقول له انت زحمان، بس سألته، انت جوعان؟ قال شوية. قلت له عطشان؟ قال شوية. قلت له شو بتحب من الأكلات؟ قال المسكين وهو يتنفس ويلهث من اللحم وقلة الهواء، يا خالتي مش وقته تذكّرني بالأكل والشرب بهذا الوقت، أول نخلص بعدين الأكل. قلت له طيب، اسمع يا سعد، لأنك شاطر ومرتب ولأنك الأول بمدرستك رح أعمل لك أكلة تحبها. قال يا خالة هذا وقته؟ أول طمني وين وصلوا؟ رحت أطمئن حتى أطمئه، شفتهم واقفين باب الجيران قدام دارنا. أولاد الكلب، بعدهم واقفين وكلابهم واقفة بتهمّر. واحد شافني والكلب عوّى. مسك البارودة وصوبها وصاح الحيوان كأنه مسعور.

- قصدك الكلب؟

- لأ الجندي! معقول الكلب يمسك بارودة ويصوبها؟

- طيب وبعدين؟ شو صار للولد؟

- رجعت للولد وناديته، سعد يا سعد، قال نعم يا خالتي شو فيه أخبار؟ قلت له الجنود باب الجيران. قال طيب إذن أمري لله. اشفت عليه، وبينك قلبي لهف له، وقلت يا ريت الولد أكبر شوي.

- أكبر شوي؟

- أكبر بكثير. آه يا جارتني، والله ذكرني بشبابي.

- بعدك شباب.
- منين يا حسرة! انت لو تشوفيني كيف كنت وأنا صغيرة.
- كان شعري طويل وبشرتي بيضا وخدودي حمر وطولي وكسمي كأني يسرى.
- مين هي يسرى؟
- يسرى الممثلة في السينما والتلفزيون. بس يعني كنت أصغر منها، أصغر بكثير.
- طب والولد؟
- الولد يا سِتّي ظل هناك يمكن ساعتين، ويمكن أكثر، وأنا رايحة جاية أحكي معه وأنكت له، وأقول له أفتح لك الراديو؟ شوفي الملعون كيف رد علي! قال يعني الراديو مش مفتوح؟ شفت الملعون ما أخف دمه؟ شفت شو ذكي؟ شفت شو شاطر؟ قال يعني الراديو مش مفتوح؟ فقعت من الضحك، وهو الملعون ورا الخزانة صار يتكركر. سمعتنا أمي ونادتنني، وقالت لي شو جرى لك يا ياسمين، شو جرى لعقلك؟ هذا الولد قد أولادك، واقفة تتكركري وتناغشيه، نسيت حالك؟ قلت لها يا أمي هذا الولد دمه خفيف ومش معقول! قالت الولد مش معقول والانت؟ صار لك ساعتين تحكي وتضحكي وتحكي له نكت وحكي فاضي وأنا سامعتك. استحي وذوقي، هذا الولد قد اولادك، لو عندك ولد كان هذا الولد قد ابن ابنك. وبعدين شو عرّفنا عن الولد إن كان ابن ناس أو ولد صايع وابن حرام؟ قلت لها يا أمي حرام عليك تكسري خاطره وتشكّي بالولد، هذا الولد باين عليه ابن ناس ومن عيلة محترمة. شوفي شكله، شوفي لبسه، شوفي عيونه، الواحد بيان من عيونه إذا كان صايع أو ابن حلال. قالت يا سلام، صرت فصيحة وتعرفي الناس من عيونهم! روحي اشتغلي شغلة

مفيدة بدل ما واقفة تتسلي مع ولد صغير قد اولادك. شو بدنا ناكل وشو بدنا نشرب، ونسيت عزيمة جارتنا بكرة على الغذاء على ورق دوالي وكوسا محشي وكمان كلاج! قلت لها يا أمي السوق مسكّر، لا فيه لحمه ولا فيه خضرة ولا فيه كلاج. والولد المسكين ورا خزانتي بفتحة الحيط ممكن يفتس. معقول نخليه بلا أكل ولا شرب طول النهار؟ قالت الجنود بحارتنا معقول يظلوا طول النهار؟ قلت لها ممكن يا أمي، الشهر الماضي قعدوا أسبوع، والسنة الماضية قعدوا شهرين ما تنفسنا. وإذا ظلوا واقفين بباب الجيران شو بدنا نعمل ونسوي؟ قالت ولا شيء، هات الورق نعمل يالنجي بلا لحمه. نطعم الولد وناكل احنا. وبكرة تروحي عند جارتنا وتأجلي العزيمة ليوم ثاني. قلت لها طيب يا أمي، لأشوف الولد. رحت للولد، وقلتلها يا سعد، بتحب الورق اليالنجي؟ قال شو يعني؟ قلت ورق دوالي بدون لحمه. صار يضحك عليّ. شوفي الملعون صار يضحك عليّ، وسمعتة يقول شر البلية ما يضحك. قلت له يا سعد أنا سامعتك، تضحك عليّ؟ قال يا خالتي، احنا بالجيش وإلا بالورق دوالي اليالنجي؟ قولي لي يا خالتي وين وصلوا؟ أحسست بالاختناق كما لو كنت أنا الولد وراء الخزانة، بلا هواء وبلا حراك والخوف والملل والتوتر، فصحت بها:

- بعدين يا ياسمين جنتيني!

فتحت عينيها باستغراب:

- مالك يا جارتني بتصيحني؟! أنت يا جارتنا مثل أمي، طول النهار تقول لي يا ياسمين جنتيني! ليش هيك انتو؟ دايمًا بصلتكم محروقة!

- قولي لي شو صار، شو صار للولد؟

- ما صار ولا شيء، راح عند أهله.

- طب والجنود؟

- راحوا، غاروا، علقوا مع الاولاد والحجارة. صار اشتباك،
وسمعنا الطخ وشمينا الغاز وراحوا، انهفوا، خافوا منا، خافوا من
اولاد ومن حجارة. أخرجت الولد من الخزانة وعزمناه على يالنجي
وكعكة ليمون وهذا نصيبك. إمتي يا جارتنا تشرفينا؟

21

على ذكر الكلاج وحب الصغار، أي حب الصغار للأكبر وحب الكبار للأصغر، أذكر ما حدث لخالي أمين، وهو من اخترت غرفته المظلة على الساحة لتكون غرفتي، وكتبه كتيبي، وصوره ومذكراته وأشعاره هي مخزوني. وفي يوم ما، سأعمل على تصنيف تلك الصور والمذكرات وعلى طباعة ونشر تلك الأشعار. سأجعل من خالي نافذة نطل منها على ما كان. سأجعل منه صورة حية، كما لو كان يعيش هنا، كما لو كان يعيش الآن.

ها أنا أشت كما تفعل جاري ياسمين. ياسمين البسيطة الثرارة باتت تؤثر عليّ بشكل جدي. تجعلني أشت وأثرثر وأقضي الساعات وأنا أفكر بما قالته وما وصفته وما أحسسته، لأنني أشعر أنها تعرف عن الآخرين وعن داري أكثر مني، فهي تطل على الجيران، وتراقبهم وتتلصص على ما يدور في أروقتهم، وتحفظ بذاكرتها المطاطية بصور لأحداث وتجارب غابت عني؛ بسبب غيابي وغياب الأهل. تجعلني أعيش التجارب كما لو كنت جزءاً منها. تجعلني أحسّ - أحياناً - بالنقص والقصور أمام جرأتها ومعارفها، رغم استخفافي بثقافتها وبساطتها. ها أنا أشت كما تفعل، لكنني الآن سأنساها وأركز على ما حدث مع خالي أمين وحبه اليائس لامرأة كانت تكبره، أكبر بكثير، وكيف كان يعشقها ويتمناها، وهي كانت غافلة عنه.

في يوم ما، وكان يوم خميس، قال خالي إنه سيعزم ليزاً مع عدد محدود من الأصحاب على أكلة كلاج. قال إن الزعيم المبرّوز في الصورة تحت الدولار سيكون في حيفا لعقد اجتماع. بعد الاجتماع، سيحضر

خالي مع ليزا والأصحاب لأكل الكلاج. سِتِّي سألته عن الزعيم بشكل ساخر. قالت، يعني الزعيم تحت الدولاب الفرفورة؟ خالي كشر، ثم ابتسم وسايرها، لأنَّه بحاجة لرضاها حتى تتلطف وتتكرم وتعمل الكلاج. حاولت سِتِّي أن تتهرب، لأنَّها تشكُّ بأصحاب خالي وتكره ليزا. كانت تشكُّ أن ليزا هي من شجعت خالي على الانضمام لشلة كفَّار مشبوهين، وهي من شجعت أُمي على اعتار الإيشارب بدل الغطوة، وهي من ساعدتها على العمل في المستشفى، وقوَّت عينها وجعلتها تتمرد وتتنمرّد.

قالت سِتِّي إن ليس هناك أحد في الدار يذهب لإحضار الكلاج. وداد تحمست، وقالت إنها ستحضر الكلاج بنفسها من أجل عيني الست ليزا، لأنَّها -وأعادت الأسطوانة المألوفة- هي من صحتها ووعتها وخلتها تعيش. المهم أن وداد اشترت الكلاج وانتظرت ليزا بشوق وحماس، وسِتِّي بامتعاض، وأنا بفضول لأرى ليزا وأعرف من هي المرأة التي يذكرونها باستمرار، كما لو كانت المفتي أو أم كلثوم.

عملنا الكلاج، بعضه ملفوفٌ كأصابع، وبعضه ممدودٌ بصينية. سِتِّي اجتهدت حتى تثبت لجماعة القدس أن الكلاج النابلسي لا مثيل له بكل العالم، فما بالك بالقدس! وما بالك بليزا اندراوس ذات الأصول اليونانية، وكلمة عربي، وكلمة انجليزي، وملابسها مثل الإنجليز، وتأكل بشوكة وسكينة ولا تتلمظ أثناء الأكل! سِتِّي تسمَع الكلام حتى نسمع وحتى لا تعالي وداد بحماستها وتواظب على تقليد الست ليزا. لكن وداد قالت إنها ستستقبل الست ليزا استقبال الملوك، وستعدُّ لها مفاجأة رائعة في غرفة الجلوس لن تنساها. وحين سألتها سِتِّي عن تلك المفاجأة رفضت وداد أن تفصح لها، وكل ما فعلته أن رجّت سِتِّي ألا تقاطعها أثناء الكلام، وألا تبدأ بالغمز واللمز كعادتها. وداد كانت تعتقد

أن ليزا ستخرج عن مجموعة الرجال وتنفرد بنا في غرفة الجلوس، حيث اعتدنا الجلوس بعيدا عن الصالون الذي لا ندخله إلا ما ندر، وبقية مغلقا من أجل الضيوف، وهؤلاء في العادة يكونون رجالا برجال. لكن ليزا لم تخرج، بل بقيت مع الرجال في الصالون وسألت عن وداد بالتحديد، ولماذا لم تدخل للصالون لتسلم عليها وعلى الزملاء؟ خالي أمين خجل أن يقول لليزا أمام الجميع إننا لا نجلس في حضرة الرجال، وإننا في العادة في كل مجلس مهما كان فرحا أو ممتأ أو حتى زيارة عائلية تتعدى الأخوة والأخوات، يجلس فيها الرجال بعيدا عن النساء، كل في غرفة، كل في واد.

أمين استحي أن يقول لليزا إن أمه وأخته تنتظرانها في غرفة الجلوس، وأن أمي لن تدخل لمجلس الرجال، فادعى أن وداد مشغولة في المطبخ وأنها ستدخل الصالون حال الانتهاء من الكلاج. ثم هرع إلينا وأوعز لوداد أن تدخل إليهم في الصالون حال تقديم الكلاج لتسلم على ليزا ورفاقه، لأن ليزا لن تخرج عن صحبة الرجال لتختلي بالنسوة كما تفعل الحريم.

سَيَّ سمعت القول وأعلنت رفضها المطلق للاختلاط. لكن وداد وقد قطعت شوطا بالتمرد والتنمرّد أعلنت بوضوح تام أنها ستدخل مع الكلاج لمجلس الرجال، لأن عملها في المستشفى لا يميز بين أنثى وذكر، فالأطباء والمرضون والمرضى أغلبهم رجال، وهؤلاء الرجال كهؤلاء الرجال. سكّت سَيَّ أمام اندفاع أمي وتشجيع خالي، لكنها استقوت عليّ. قالت بوجوم، اعملي يا وداد ما بدا لك، لكن نضال تظل معي. هادناها حتى تسكت، وحملا الصينيتين: كلاج بالجبين وكلاج بجوز، ودخلا الصالون. وأنا تسربت لأسترق السمع والنظر من شق الباب، لأرى من تكون الست ليزا. رأيت امرأتين،

إحداهما أكبر بكثير من الأخرى، شعرها أشيب بدون صباغ أو حناء، وتلبس ملابس داكنة كما لو كانت أرملة أو أم شهيد. والأخرى، وهي ما توقعت فوراً أن تكون الست ليزا، امرأة تقترب من الأربعين، أصغر بقليل أو أكبر بقليل. كان من الصعب أن أميز، وكانت حلوة. لم تكن حلوة بالمعنى التقليدي للحلاوة، أي لم تكن بيضاء وشقراء ولظلوطة، بل كانت طويلة ونحيفة، بخصر نحيل، وشعر مقصوص حتى الأذنين، لونه بني فاتح، وعيناها واسعتان بلون عسلي أو رمادي لم أتبيّن عن بعد، وحواجب وأهداب كثيفة. كانت مكشوفة الرأس تماماً، وملابس متقشفة بسيطة، وهي بذلك كانت النقيض لمظهر أُمّي، التي ارتدت فستاناً مشجراً فوقه جاكيت - كي تستتر، وغطت شعرها بإيشارب كثيف.

إذن هذه هي الست ليزا، وهي ليست كالمفتي وأُم كلثوم، إذ لم تفتح فمها إلا لتقول شكراً وعفواً، وما بين الفينة والأخرى تلتفت لوداد، وتبتسم لها بسملة رقيقة، وتربت يدها كما لو كانت وداد التلميذة وهي الأستاذ. وهذا ما أكّد لي ادعاءات سِتّي المتحاملة ضد ليزا بأن لولا ليزا لظلت وداد آدمية ومستورة وبدون لسان يتذمر.

المرأة الكبيرة كانت تعلق تعليقات مقتضبة على ما دار في اجتماع حيفا، وتقول بلهجة لبنانية إن الزعيم يركز على ما يدور في فلسطين، لأن فلسطين قلب الأمة والقلب النابض للهلال الخصب. الزعيم يتوقع حدوث كارثة حتمية بسبب الانقسام والتشتت، ولأن أفكار اليسار الفلسطيني المناهضة للقومية تحتوي الهزيمة بداخلها، إذ كيف تقاوم حركة قومية عنصرية بأفكار تتخطى القومية؟!

أحد الموجودين تصدى لذلك الطرح، وأخذ يجادل بسخرية واضحة، ويقول إن أفكار الزعيم أقرب للطروحات النازية. وأخذ

يناقش وسط جمود الجميع أن مقاومة الخطأ بخطأ مماثل أمر مغلوط، بل مرفوض. على العمال من الجانبين أن يتحدوا وهذا هو الحل، لأن القومية وهم كالدين سواء بسواء، وأن مبادئ الزعيم وأتباعه لا تختلف عن مبادئ النازية والصهيونية. النازية تفاخر بالجنس الآري وتعتبره المتفوق على كل الأجناس، والصهيونية تفاخر بالجنس العبري وتعتبره المختار والمميز عن كل الناس، والقوميون السوريون يدعون أننا هنا، في الهلال الخصيب، أسمى وأرقى من كل العرب والمسلمين، وربما كل العالم، فهل نحن كذلك يا سادة؟

كان واضحاً أن الجلسة ستقلب إلى معركة كلامية لولا أن رفعت ليزا يدها، وقالت بصوت لطيف ولهجة قوية:

- جلسة كلاج أم سياسة؟ من يريد لها جلسة كلاج فليرفع يده.

رفعوا أيديهم جميعاً وهم يضحكون بمن فيهم صاحب اللهجة المتحدية الساخرة، لكن وداد لم ترفع يدها، وظلت تحملق بالآخرين بشكل حائر.

قال صاحب اللهجة المتحدية:

- الست وداد تريدها جلسة سياسة.

التفتت ليزا إلى وداد، وسألتها باسمه وبرقة، كما لو كانت تحكي مع ابنتها أو تلميذتها:

- جلسة سياسة أم كلاج؟

قال خالي كما لو كان يدافع عن أخته:

- كلاج، كلاج، قولي كلاج.

التفتت إليه ليزا، وهي ما زالت باسمه، ورددت كلماته باستغراب ممزوج بالسخرية:

- قولي كلاج؟ ! قولي كلاج؟ ! يعني وصاية!
 رأيته يحمرّ وينظر إليها كما لو كان يعاتبها أو يتأملها بشكل
 يائس، لأنّها لا تفهم ما يقصده. وبعد نظرة طويلة غائمة غائمة حزينة
 هز رأسه عدة هزات، ولزم الصمت طوال الجلسة.
 أكلوا الكلاج، وعلقوا تعليقات معجبة بذاك الكلاج وهندسة
 الدار وتاريخ الدار وقيمة الدار، لأنّها - كما قالوا - أثرية وتمت إلى حقبة
 منصرمة كان فيها أمثال قحطان مثل الولاة والسلاطين، وها هو أحد
 أحفاد هؤلاء الولاة يتبنى قضايا الكادحين، فهو إما منافق للكادحين أو
 خائن للملاكين. علقت وداد باندفاع وحمية:
 - أمين منافق؟ أمين أحسن واحد بعيلة قحطان.
 سألها أحدهم بلهجة لئيمة تبدو على السطح فضولية لكنها
 تضمر الغمز والسخرية:
 - أحسن من الشيخ وحيد القحطان؟
 لم تجبه وداد واحمرّت. أنا كنت أعرف لماذا احمرّت، فهي تستعيز
 من ذكر أخيها المستشيخ، فقد كان لها معه تاريخ طويل مليء بالاستفزاز
 والتحدي، فظلت ساكنة مستاءة. أما أمين، فقال مدافعا عن أخيه:
 - لكم دينكم وله دين. هو حر بما يؤمن به. ألا ننادي بالحرية؟
 أثنت ليزا على قوله، وقالت مشجعة:
 - برافو، برافو، هذه هي الديمقراطية.
 المرأة الكبيرة اللبنانية علقت بأسى واضح كما لو كان تعليقها
 استمرارا لنقاش سابق:
 - ديمقراطية؟ ! هذا كلاج كل رقعة بلون، هذا كلاج، صحيح
 كلاج، كلاج للأكل وسريع الهضم. لو سمعك الزعيم لزعل منك.
 رأيت ليزا تنظر لبعيد وتبتسم ابتسامة حائرة وحزينة ذكرتني

بنظرة خالي، سوى أن نظرتها تلك تجاوزته وابتعدت عنه، وربما عن عمد أهملته، وهزت رأسها عدة هزات كما فعل هو، ولزمت الصمت. نظرتها ذكّرتني بنظرة ربيع خلف الشهباء وهو يتحاشى عيني ويمهد الطريق ليقول وداعا ويهجري. وهو، خالي، كم ذكّرني بوضعي البائس، وأنا أنظر إلى ربيع تلك النظرة كما لو كنت أستعطفه وأستجديه وهو غافل أو يتغافل. وها هي ليزا تعامل خالي كما عوملت، أو هكذا تخيلت، لأنّي ما زلت أتألم، ومن خلال ألمي وحرقة قلبي أرى كل الناس مثلي يعانون من جرح الحب. تخيلت أن خالي مثلي، عاشق مجروح متأزم، وان ليزا هي الظالمة وهو المظلوم، أو أنها تحب رجلا غيره، أو أنها تنلهي به، أو أنها تحبه وتتمنع عليه، وتقول له كما قال ربيع، أنت صغيرة وأنا كبير. ألم يقل ربيع هذا: أنا صغير لكنني كبير؟ أهذا هو الوضع أم أتخيل؟ لم أكن أتخيل لأنّي حين دخلت الصالون بعد ذهاب الضيوف لأجمع الصحون والأكواب وجدت أمين في مكانه كما كان أثناء الجلسة، ينظر للكرسي حيث كانت، ينظر ويتأمل دون حراك، كما لو كان بلا إحساس ولا تنفس. وحين دخلت الصالون لم يلتفت إلي وظل مكانه في نفس الوضع بلا حركة، واجم، حزين، مستغرق لا يحس بوجودي ولا وجوده، كأنه منزوع من الدنيا، غائب، مجذوب متجاوز حدود الغرفة وحدود الكون.

ناديت: «خالي!» فلم يسمعني، بل بقي مستغرقا كما لو أنه فقد الإحساس. أحسست بحزنه ينتقل إليّ، فجّر جرحي وأعاد إليّ آخر مشهدين خلف الشهباء وعلى الصخرة.

جلست عند قدميه على السجادة ووضعت رأسي على ركبتيه. لم يتحرك. أحسست مشاعري تنتقل إليه كما لو كان كياني الآخر، صورة عني. خالي الرقيق الشاعر الحساس في وضعي أنا، وجراحه تنزف كما

جرحي!

قلت أواسيه:

- لماذا نحب من يجرحنا؟

مد يده ومسد شعري ولم يجبني. فقلت ثانية وأنا أمسح دمعي

بطرف كمي:

- أهذا هو الحب؟!

ربت رأسي، وقال بغصة:

- أنت صغيرة. قومي، قومي.

لم أصغ إليه، بل عانقت ساقه بذراعي وأخذت أبكي بكل ما
في من إحساس، وصورة ربيع تتجسد أو تتداخل بصورة خالي. خالي
وربيع، خالي وليزا، ربيع وليزا، وأنا وخالي والحب المعذب واليأس،
ومن أقرب إليّ من خالي من وعاني وعمّق إحساسي بالدنيا وجعلني
أكبر من عمري! قلت بغصة:

- أنا كبرت، أفهم وأحسّ.

مدّ يده ورفع وجهي ورأى دموعي وقال بأسى:

- أنت كبيرة؟ بكرة تشوفي!

دخلت وداد ووجدتنا في ذاك الوضع فنهرتني، وقالت:

«قومي»، كررتها عدة مرات قبل أن أقوم بتلكؤ. أخذنا نجتمع الصحون
والأكواب، وأنا ما زلت أمسح دمعي بطرف كمي، وأمي غافلة عني،
لأنّها مشدودة إلى أخيها، وما بين الفينة والأخرى تلتفت إليه ولا تناديه
ولا تسأله ولا تعلق، وكل ما قالته ونحن نبتعد عن الصالون وعن
خالي:

- خالك مسكين، خالك تعبان.

سألته بفضول لأنأكد:

- خالي مسكين من ليزا؟
- لم تجبني مباشرة لكنني فهمت، وكل ما قالته أن كررت:
- ليزا، ليزا!
- مسحت دموعي ثانية، وأنا ألتفت إلى الصالون، حيث تركناه
- وظل هناك طوال الليل، وقلت بأسى:
- أعرف، أفهم، صرت كبيرة!

22

ذكَرني الولد المختبئ خلف الخزانة بالولد ربيع. هل هذا الولد مثل ذاك الولد؟ هل هذا الجيل مثل ذاك الجيل؟ سألت ياسمين عن هذا الولد وتفصيله. أثارت فضولي وإحساسي. جعلتني أحلم طوال الليل، وأيضاً بالنهار، بذاك الولد وأتساءل ما حل به وأستعيد ذاك الإحساس. غريب كيف نتمسح ونتبدد حين نكبر ويصفرّ العمر. نفقد إحساسنا بالركة والرهافة وحنين القلب. نصبح كدجاج فقد ريشه بعد أن كنا عصافير ملونة تغفز في الشمس وتلهو مع الريح. سألت ياسمين عما أحسّت فقالت بخجل كما لو كانت بنت 14. حقاً؟ معقول! ابنة الخمسين تستعيد الإحساس برقعتها وعذوبتها كما لو كانت بنت 14؟ فلماذا لا أحسّ بهذا الإحساس؟ لأنّي أكبر من ياسمين؟ لأنّي أنقف من ياسمين؟ أو لأن ياسمين تعاني الفراغ؟ أو لأنّي أنا أعاني من الانضغاط والانضباط وضيق الوقت؟ أنا لدي اهتماماتي وانشغالاتي ومشروعي الفني ولوحاتي. لدي أيضاً مشروع الدار، دار العيلة، وما زلت منشغلة بمد المواسير ونش الأحواض وترميم القبو وإخراج العفش المتآكل، واستبداله بعفش عصري متجدد، وأيضاً غسالة وثلاجة وفرن الغاز وحمام الشمس حتى أحظى بهاء ساخن من التنتكات الجديدة، بعد استبدال القديمة التي خرمها اليهود حتى لا نجد ماء للشرب أو للحمام. أنا لدي انشغالاتي ولا أعاني من الوحدة، بل أنا أستنجد بالوحدة حتى أعمل، حتى أنتج، وحتى لا أفقد تركيزي وأكون عالة على نفسي. حتى لا أكون محدودة أو ساذجة مثل ياسمين. لكن ياسمين أظرف مني، أظرف وأظرف، لم تتجمد، لم تتقدد، لهذا أحب أن أسمعها

وأصغي لما تقول وما تشرح، وأسألها بخبث عما تحس وبم تحلم، وأحيانا لا تحجب، لأنّها ما كرة هي الأخرى، لكن بطريقة عفوية. قالت إنّها التقت بأم الولد في عزاء ما، وأن أمه عرفتها وجلست بجوارها وشكرتها، لأنّها خبأت ابنها يوم الإغلاق ومنها عرفت عن أبيه وعن أخوته وأخواته وأين يسكن وعن تقدير علاماته. قالت إن أخاه الكبير يعمل في دبي، والثاني معتقل بسجن الرملة، وأخته الكبرى متزوجة ولديها أولاد، وأخته الصغرى ما زالت خاطبة وعلى وجه زواج، يعني سعد هو الأصغر، صغير العيلة. أما أبوه ففي البلدية، محاسب بسيط في البلدية، يمسك دفاتر وحسابات ويجمع فواتير الكهرباء والماء وغرامات المخالفات، وما أكثرها، ويسجل أرقاما تلو أرقام، وأمّه تعتقد أن سعدا ورث شطارته في الحسابات عن والده، ولهذا سيدرس هندسة ليصبح مهندسا في البلدية ويعمل مع أبيه، هذا طموحه وطموح أبيه.

حين ذكرت البلدية تذكرت أنني بحاجة لزيارة البلدية، لتقديم طلب لتقوية الكهرباء. أنا بحاجة لثلاث فازات، لأنّي وضعت في كل غرفة وفي الليوان وفي الصالون مكيف هواء ساخناً وبارداً بدلا من مد خطوط التدفئة التقليدية، فهذا أوفر، كما أن الحيطان القديمة لا تتحمل التحفير والتدكيك وتعليق الراديوترات بكابلات فوق قفصاة قد تتساقط. كما أن خطوط الكهرباء لا تتحمل، حالما أشغل مكيفين في نفس الوقت ينقطع الخط، فماذا أفعل؟ قال الكهربائي، عليك بتمديد خط بثلاث فازات، وهذا بترخيص جديد من البلدية. وحين سمعت عن عمل أبو سعد في البلدية، قلت أضرب عصفورين بحجر، أفدّم طلبا لثلاث فازات وأتعرف على والد الولد الذي أخذ عقل جارتى ياسمين. دفعني الفضول، وأيضا حماس ياسمين وهي تتحدث عن

أم الولد وأخوة الولد وعلامات الولد وزياراته. قالت إنه ابن حلال ويحفظ الجميل، فمنذ ذاك اليوم، أي منذ خبأته في غرفتها خلف خزانة في نقرة الحيط وهو يمر لزيارتها وفي يده زهرة أو ثمرة أو قرص الثوم أو عنقود عنب من دالية الدار. تحكي وتحكي عن ذاك الولد، وكأنه بات ابن العيلة أو ابنها هي، وأحيانا أحس بنغمة غريبة كما لو كانت تتمناه أو تحبه أو تحس بإحساس لا يليق بامرأة تجاوزت الخمسين ولولا الصبغة والكريمات لكان شعرها أبيض كالليف، ووجهها أجعد من رغيف طابون. لكن وجه ياسمين نضر جدا، أنضر بكثير من وجه امرأة في الأربعين، مصقول يلمع بدون تجاعيد، وشعرها مصبوغ بدقة شديدة ودوما ملفوف في حلقات، لأنّها تلتفه ليليا بلفافات ودوما تتعطر بالياسمين. تقطف الياسمين وتشكه عقودا كاللؤلؤ، وتضعه في عنقها مساء وهي تتفرج على التلفزيون ولا تخرج به، لأن الخروج بعقد الياسمين - كما قالت - لا يليق بامرأة راكزة محترمة. تضعه في عنقها، وهي تتفرج على التلفزيون، وآخر السهرة تضعه في صدريتها وتنام عليه. لهذا ياسمين دوما ياسمين.

ذهبنا معا للبلدية. ذهبنا صباحا، وكانت الشمس بعد باردة لكن مشرقة وذهبية، وخان التجار وحبس الدم والدكاكين والبياعين ما زالوا يتشاءبون ويتنحنحون، ويقولون لبعضهم صباح الخير، ثم يلحقونها بلا حول ولا قوة إلا بالله لكساد بضائعهم، وقلة الشارين بسبب الإغلاق المضاعف، إغلاق المدينة بحواجز جعلت قدوم القرويين أمرا شاقا وضد القانون، وإغلاق الحارة بأكملها عدة أيام بحجة ملاحقة إرهابيين. وفي الإغلاق يفتشون ويشتبكون ويلقون قنابل صوتية أو ضوئية ومسيلات دموع ثم الرصاص والمركابا، وتقوم الزفة كالعادة كل يومين أو ثلاثة حتى باتت المدينة كهيكل سمكة أكلتها

قطعة شرهة، والناس وجوم.

كانت ياسمين بتورة ضيقة سوداء حتى الركبة، وجاكت أحمر، وشعر ملفوف في حلقات يصل الكتفين، وزواق الوجه على أشده، ما عدا حمرة خفيفة حتى لا يقال عنها خفيفة ومطلقة تبحث عن زوج. لكنني أنا، بيني وبين نفسي، كنت أعتقد أنها تبحث عن زوج. كنت أحس أنها أنضر من أن تغفل ما تحس به تجاه الدنيا وأنوثتها. كانت تذكر لي أحيانا ما كانت تفعل وهي بعد صغيرة، وهي بعد على ذمة ذاك المسخوط الذي عاقبها، لأنها لا تحبل ولا تلد مع أنها كانت تمتعه لآخر حد. وكانت تسألني ببساطة: معقول الجنس مختلف عن بيض النساء؟ أسألها بدهشة واستغراب: بيض النساء؟ تفسر بإسهاب: أنا كنت أحيض شهريا ولم تقطعني حتى اليوم، فلماذا لم أنجب مثل أمي؟ أمي على الأقل أنجبتني، لكن أنا، لا ولد ولا تلد ولم أفرح لا بفاطمة ولا محمد. أبتسم بعطف ولا أعلق، لأنني لم أفرح بفاطمة ولا محمد، مثلها بالضبط، لكنني بلوحات ومعارض ورسومات وصلت باريس واليونيسكو، وكنت أمانع، بإرادتي، أن أحبل وألد مثل كل النساء. كنت أريد أن أتفرغ لشيء لا يجعلني أقول مثل أمي أن الأولاد كسروا راسي وكسروا ظهري. ورغم زيجاتي وعلاقتي، كنت أرفض كسر الظهر والرأس وما يجلبه من إهدار للمواهب ونكران الذات. كنت أرفض، بإرادتي كنت أرفض، لكن ياسمين لم ترفض، بل تمتت، وظلت تتساءل وتعاتب، تعاتب الله وتتساءل، وتعاتب طبيعتها وتذمر، وأحيانا تُلقي باللوم على أمها، لأنها أورثتها كل ذاك العقم. لهذا أحسست أن افتتانها بذاك الولد له وجه الأمومة المحرومة، ووجه الشغف ونداء الجنس. أنا أيضا افتتنت بدوافعها، وظللت أراقب قلبها وما تفعله بتلقائية للتعبير بشكل غير مباشر عما تتوق إليه وما حرمت منه.

الحق يقال إن ياسمين جذابة، وتلفت بسهولة أنظار الرجال. تمشي بنعومة وغنج محسوب، فتتحرك وركيها كما الميزان، كفّ تطلع وكفّ تنزل بنعمة خفية، لكن محسوسة ومدروسة، وتبدو ساقاها البيضاء المكنزتان تحت كلسات نايلون فاتحة اللون حتى لا تخفي بياض الساقين و العضلات مشدودة. والجاكيت الأحمر بلون زهر الرمان، يجذب الأنظار كما المغناطيس، بالذات الرجال، فيتنحنحون وهم ينظرون، ثم يقولون بقهر وإحباط، أستغفر الله العظيم. وحين تصطدم عين الواحد منهم بعيني أنا، أراه يلتفت لناحية أخرى بكثرة مخيفة إما لأنّي ضبطت نظراته أو لأنّ منظري أذى عينيه. وهذا ما جعلني أراجع نفسي وأتأمل شكلي في المرآة، فهذا الشعر مثل الصبيان، وهذا الوجه مثل الرهبان، وهذا البنطال مثل الشروال، وصندي الجلدي يذكرهم بالزنوبة. كل ذاك يجعلني بجانبها أبدو كالحارس أو نفر غفر. لكنني حين أبتعد أحسّ بنظراتهم خلف ظهري، على ساقها، وعلى قفاها، والجاكيت الأحمر، والحلقات في شعرها تقفز وتنط كالزمبركات، وأحدهم يهمس بصوت مبحوح، اللهم صلي على النبي، رحمتك يا رب!

وصلنا البلدية فرأيت النظرات تتكثف، لأنّ الموظفين والزوار وأصحاب الشكاوى والمخالفات والفواتير يقفون صفوفًا وطوابير، فنضطرّ للانحشار بين الأجساد، فأسمع رجلين أو ثلاثة وهم يستشقون أو يعطسون أو يسحبون شهيقا كالغرقى، لتلقف عطر الياسمين والأنوثة، ويحدجونني بغضب مكبوت، لأنّي أبدو عكس ياسمين أو غفير أنوثتها المحروسة.

دخلنا المكتب، وكان صغيرا وعتيقا، وقد حُشرت فيه 3 مكاتب متهرئة، وعليها أكوام الملفات والأضابير والأوراق المرصوفة بشكل متكدس وعشوائي، و3 رجال في آخر العمر ضربهم الصلع

والترهل يغطسون خلف الأضابير.

رفعوا أعينهم حين رأونا، وعلى الفور لاحظت عينين زرقاوين في وجه باهت وشعر خفيف، كان أشقر ثم ابيضّ، وجاكت كحلي حائل اللون، ذكرني بالملابس الأوروبية، أي بالبالات، وصوت مبحوح حين قال لنا أهلا وسهلا شرفتوا.

قام أحدهم وهو يحمل حزمة ملفات تحت إبطه، فسحب الآخر كرسيه، فجلست أنا، لأنّي أكبر، أبدو بوضوح أنّي أكبر، وظلت ياسمين واقفة خلفي والرجل الآخر يتطلع من تحت لتحت. أما الرجل الذي عرفت فورا أنه أبو سعد، فقد نظر قليلا، ربما نظرتين أو ثلاث، ثم ابتسم لياسمين بعرفان جميل حين ذكرت له اسمها وأين تسكن، وبالطبع عرف أنها هي من خبأت ابنه خلف خزانها يوم الإغلاق.

الرجل الثالث بعد أن ملّ من النظر قام عن مكتبه وأشار لياسمين أن تتفضل وتجلس مكانه خلف المكتب، ثم قال بأريحية وكرم سخي إنه سيطلب لنا كأسَي شاي، وسأل بألفة: شاي بزعر أو ميرمية؟ قلت أنا شاي بزعر، لكن ياسمين قالت بصوت يذوب غنجنا وسألت بدلال:

- عندكم يانسون؟

حتى الرجل رأسه، بل جذعه، وقال بحماس:

- حاضر سيّتي، يانسون، يانسون، من تحت الأرض.

بدأنا نحكي عن المعاملة وعن الترخيص، فقال أبو سعد أن تقوية الخط غير ممكنة على الإطلاق وأن الثلاث فازات أبعد من السماء عن الأرض لأنّ الكهرباء شحيحة جدا، بسبب الحواجز والإغلاقات، ولأنّ السولار وكذا البنزين وكذا الماء والكهرباء واستيراد الأسلاك والمواسير، وكذا السكر والرز واللحم والخضار والفواكه والدنيا

حصار والناس يا لطيف لا يجدون الخبز، وأنا أطالب بثلاث فازات؟
أين أظن نفسي؟ في عمان أو في باريس؟ ألا أعيش هنا في هذا الحصار بين
الناس؟ ألا أعيش في بلد احتلال؟

تذكرت أيام الإنجليز وذكرته، لأنّه بدا أكبر مني، لكنني
اكتشفت أنه أصغر مع أنه يبدو أكبر بكثير بسبب القهر. قال إنه لا
يذكر الإنجليز، لكنه يذكر أيام كذا وأيام كذا وكل المراحل والأيام
كانت صعبة وأصعب ما فيها الاحتلال. ثم سألتني: كنت هنا أول
أيام الاحتلال، أيام دخلوا علينا في 67؟ هزرت رأسي نفيا لأنّي كنت
بعيدة عن هنا، أبعد بكثير من أن أحسّ بما ذاقوه مع أي كنت في لجنة
الانتفاضة في باريس، ثم انشغلت، ثم مللت ثم تملصت، لأن الأمور
تبدأ بعاصفة مجلجلة ثم مع الوقت تذبل وتبوح. لكنني كنت طوال
حياتي أشعر بالغضب والحزن ثم أنفّس وأعود لحياتي كالسابق أرسم
وأقيم المعارض وأنشط مع الأونروا واليونسكو ثم تقاعدت، وها أنا
أعود لقاعدتي وميراث الأهل في بيت العزّ.
قال الرجل:

- الله يساعد الناس. كل واحد همه على قده. ابني الأوسط
كسر ظهري، يوم في الرملة، ويوم في عسقلان، ويوم في النقب. ابن
الحرام كان الأول، كل أولادي كانوا أوائل، لكن هذا طول عمره مولّع
زي النار. لعبوا بعقله أولاد الحلال وصار بده يحرق فلسطين. أول مره
حبسوه شهرين، وثاني مره حبسوه سنتين، وثالث مره حبسوه سنة على
حزام ناسف، يعني عدمناه، يعني كأننا ما خلفناه! إيمتى نشوفه؟ كل
خمس أو ست شهور نشوفه مره. تروح أمه تركب الباص وبعدين
تكسي وبعدين الباص وبعدين تكسي حتى تصل سجن الرملة أو سجن
النقب. وهناك تلاقي الناس قدام السجن زي المقاطيع. ناس تحت

شجرة محروقة من حم الشمس، وناس واقفين عند السياج والشمس فوق روسهم تقدحهم زي المقدح، ونسوان عجائز على الأرض يدلنهم القناني على روسهم والبخار طالع من نافوخهم، وناس بعيد عن السامعين زي الغنم من غير راعي، واقفين يتدلنوا لجندي من اليمن طول شبرين وحامل بارودة طولها مترين وجاعص كأنه النبي موسى. يضحكوا له ويسايروه ويترجوه حتى يخليهم يفوتوا وهو واقف يخلق بعينه لا شايف حدا ولا سامع حدا وكأنه حارس الجنة، يعني رضوان بجلال قدره، وكل ساعة وساعة يصرخ بصوت زي المدفع، ويقول ارجع، ارجع، ارجع، وينخذ الناس بالبارودة، والناس ما يخافوا ولا يحسوا، لأننا تعودنا على الذل وعلى البواريد. أنا رحت زرتة أول مرة وثاني مرة وبعدين خلص، نسيت الموضوع. لكن أمه، أمه المسكينة ما بتنسى. حالها بالويل. أول سنة، وثاني سنة، وثالث سنة، وبعدين اعتدنا ونسيناه، لكن أمه عمرها ما تغفل ولا تنساه، هيك قلب الأم. عندكم أولاد؟

بقيت صامتة وأيضا ياسمين. ظن أننا استأننا من حديثه المأساوي، فقال معذرا:

- ما تؤاخذوني. والله الطفر بعمي النظر. وأنا من طفري وهم الأولاد بنسى حالي، وبقعد أشكي وأزهق الناس وأنكد عليهم عيشتهم. لا يا أختي، بترجائك، أنا ما قصدت أوجع قلبك. التفت إلى ياسمين وإذا بها تبكي ووجهها أحمر وعيناها المكحلان معكورتان والكحل ساخن ومتسرب إلى الكليتكس في يدها، فاستبدلته بورقة أخرى ثم أخرى. أسرع الرجل إلى التلفون العتيق، وقال بصوت عال كأنه يستنجد بأحد من لندن:

- وينك يا راضي مشان الله! طلبنا الشاي من ساعة ونص،

وين الطلبات؟ شو بتقول؟ ما طلبنا شيء، كيف ما طلبنا؟! أبو شكري
طلب الطلبات من ساعة ونص، واحد بزعر وواحد يانسون. طيب،
طيب، سجل عندك، واحد بزعر وواحد يانسون، واو عى تنسى.
التفت إلي معذراً:

- ما تؤاخذونا. الواحد من الهمّ والغمّ عقله طائر. أبو شكري
كمان حالته حالة! يمكن خرّف، وأنا كمان يمكن خرّف.
قلت أواسيه:

- كلنا خرفنا وعقلنا طار.

قالت ياسمين محتجة:

- أنا ما خرّف!

التفت إليها فوجدتها تبسم ابتسامة متحدية، وهي ما زالت
تمسح أثر الدموع، ووجهها عاد إلى طبيعته وربما أجمل. الاحمرار
والانفعال جعلها أكثر إشراقاً ونضارة. رأيتني أصدق فيها
فوضعت الكليينكس في حقيبتها وحدثت في وجهي هي الأخرى،
وقالت بعناد:

- أنا ما خرفنت. كل واحد يحكي عن حاله.

ابتسم أبو سعد ابتسامة مندهشة ومسرورة. أعجبه الحال،
فقال مداعباً:

- أنا قلت عن حالنا احنا الرجال، لكن الستات، أعوذ بالله،
الواحدة تصوير عالعاكاة وتظل شباب زي الوردية.
قالت محتجة، لكن بدلال:

- عالعاكاة! شايفنا بإيدنا عكازات؟

اتسعت ابتسامته وبرقت عيناه، إذ يبدو أنه هو الآخر مثل
أولاده ذكي وشاطر وصاحب نكتة، وربما كان الأول على صفه، لكن

الدنيا أذبلته ونكبته وجعلته أكبر من عمره. قال ملاطفاً:

- ينقطع لساني إذا أنا غمزت أو حتى لمزت.

تصدت له:

- شو يعني غمزت أو حتى لمزت؟ سبحان الله! عرفنا سعد

طالع لمن. ابنك سعد، حتى وهو واقف في الخزانة واليهود بالباب قعد

ينكت ويضحك عليّ ويقول راديو!

ضحك الرجل ضحكة مكبوتة خبأها وراء كفه، وأغلق فمه

بقوة حتى لا ينطلق بالضحك، ولم أتمالك نفسي أنا الأخرى، لأنّي

تذكرت ذاك الموقف ولأنّي رأيت الوجه الآخر لياسمين ينتفض بقوة من

خلال الدموع، ويتحدى الأسى واليأس ويتحدى العمر، ويظل يدافع

عن نفسه وعن الحياة وحب الحياة وينسى الواقع، واقع الذل والمهانة

وواقع الحصار والاحتلال والإغلاقات، وواقع رجال ينكسرون أمام

الواقع وهمّ الأبناء، وواقع شباب خلف القضبان بأحكام تصل خمسين

سنة وستين سنة ومائة ومائتين. هذا احتلال وهذا حصار، وهذا الرجل

له ولد محكوم بخمسين سنة، وهو طفران، واضح طفران من جاكيتيه،

ومن وجهه، ومن شعره، ويقول بصريح العبارة إنه خرفان، فتهبّ

في وجهه لتذكره بأنوثتها التي لا تكبر ولا تشيخ ولا تتقاعد. فما هذا

الخليط؟ ما هذه السخرية في الواقع ومن الواقع! وربما كان الرجل يفكر

هو الآخر بما أفكر فيه، إذ هزّ رأسه وأزاح كفه عن فمه وهمهم، وهو ما

زال يحشر الضحكة في صدره:

- شر البلية ما يضحك!

فصاحت ياسمين:

- يا الله قومي. لا فيه فازات ولا فيه ترخيص. ناقصنا واحد

قد أبوي يقول عكاكيز وخرفانات. قومي، قومي.

قمت بتلكؤ وأنا ما زلت أضحك بصمت، والرجل يضحك هو الآخر، ويقول الشاي، شاي بزعر وشاي بيانسون.

ركضت أمامي، وهي تقول:

- لا بدنا زعر ولا يانسون. خلينا نمشي قبل ما نصير

عالعكازات.

وفعلا مشينا بلا عكازات، ولم نشرب الشاي بزعر ولا اليانسون. لكن شربنا ليمونادة حين وصلنا ساحة داري، وجلسنا نضحك تحت الخشخاش، واتفقنا أن الرجال يكبرون ويخرفون، أما نحن، نحن النساء، وبالذات ياسمين، لا تكبر أبدا ولا تخرفن، ولن تمشي أبدا على عكازة بدليل أنها ستقيم لنا وليمة فخمة فيها كلاج وورق دوالي وكوسا محشي، وستعزم سعد وأمه وأباه، حتى تثبت أنها صبية بعزّ الشباب، وأنها شاطرة بطبخ المحشي وعمل الكلاج.

23

كلما حددنا موعدا للعزيمة وأكل الكلاج تهدر السماعات في المدينة وتعلن حالة منع التجول أو الإغلاق، فتتصل ياسمين وتقول اليوم راحت علينا، لا فيه عزيمة ولا كلاج. فأتفهم الوضع وأعذرهما. لكن لا أفهم أو أتفهم كيف أن الولد ابن ال 17 استطاع الخروج من داره وزيارة أمها وزيارتها، وإحضار عنقود عنب أو قرص الثوم!

تحكي عن الولد ما شاء لها الحكى والإعجاب وسيل النكت، ثم تعرج على الشكوى من أمها التي تتهمها بالرعونة وقلة العقل، مع أنها هي من تقوم بها وتحمل أعباء الدار. هي من تطبخ، هي من تغسل، هي من تمسح، هي من تكنس، وهي من تحضر اللحم من اللحام. وتعرج أيضا، في معرض الكلام، وكل ذلك في التلفون أو في الموبايل، وتقول إن أمها متشوقة لزيارتي لتتعرف علي بعد كل السنين، ولكي تحكي لي عن ذكريات ستي وأمي وخالي الكبير وخالي الثاني وأبي المزروع بأحضان اليهودية عند الأقصى. كيف ينزيع بأحضان اليهودية عند الأقصى وهو ما زال من آل قحطان؟ هذا ما لم أعرفه حتى الآن، لكنني سمعت عنه عدة مرات. سمعته من الناس ومن جدي، جدي المقيم في عمان بعد الهجرة، هو وبناته، هو في عمان، وهن متناثرات بين مخيم الحسين ومخيم الوحدات ومخيم جرش، يعني لاجئات في مخيمات اللجوء والقلّة، بعد أن كانوا مثل الملوك في حيفا ووادي النسناس!

قالت ياسمين إنني أستطيع زيارتهم خلال الإغلاق، إذا قلبي قوي. إذا قلبي قوي؟ كيف أزورهم إذا قلبي قوي، والحارة ما زالت تحت الإغلاق والتفتيش قائم على قدم وساق؟ قالت:

- بدارك في القبو، في حبس الدم، فتحة تنفذ لزقاق دارنا. هذي الفتحة عملها جدك الشيخ قحطان زمن الأتراك للطواري. شباب الانتفاضة استعملوها عدة مرات. أنا كنت أشوفهم من الشباك. بغيا بكم الدار صارت مخبأ، مرات شباب، ومرات زعران، ومرات حشيش، ومرات يا لطيف، أعوذ بالله!... ولا تكمل.

في داري أنا حشيش وزعران وأعوذ بالله؟ ! داري أنا، دار العيلة! صارت داري من بعد الأهل. وها أنا أنظفها وأرممها وأجعل منها دارا للعز، كما كانت، أو كما قيل دارا للعز. وسواء كانت ياسمين تقول الصدق أو تتخيل، فأنا سأجعل من داري تحفة فنية ذات تاريخ، قصرا جميلا يعج بالصور والرسومات والموسيقى، رغم أن الراديو الكبير بالمسجل والاسطوانات المدججة وال DVD لم يصل بعد بسبب الإغلاق. سيصل، سيصل، وما علي سوى الانتظار كما يقول الجميع. كما أن اتهامات ياسمين لما حصل في الدار كلها أوهام، إذ لم أجد عظاما مدفونة تحت الحشخاش، ولم أجد أسلحة ولا كاكي تحت المجلى وبانيو الحمام. بحثت طويلا ولم أجد، ثم اقتنعت أن مخيلة ياسمين وأوهام ياسمين ومبالغات ياسمين مجرد إشاعات.

أما عن الفتحة في حبس الدم، أي تحت الأرض، تحت داري، فقد وجدتها فعلا. هي عبارة عن باب عتيق طوله متر، وعرضه أقل من نصف متر، مغلق بحديد. باب حديدي أسود موشح بالبني والأخضر، بسبب الصدأ والعفونة، وله مزلاج لا يفتح إلا بشاكوش. ضربته ضربات قوية فهز الحديد مثل البرغل، وصر صريرا ذكرني بزامور الإسعاف، والباب فتح نصف فتحة لأن التراب وما تراكم بمرور الزمن من غبار وبيوت النمل وبعر الفيران جعل العتبة أعلى بكثير من أرض القبو، لكن الباب فتح بصيرير، نصف فتحة، ومنها تسللت إلى زقاق

خلف حبس الدم، حيث دار ياسمين، لأنّ دار ياسمين خلف داري، خلفها بالضبط، وشبابيها تطل على ساحة الدار وعلى الخشخاش، وسور جنيثهم لصق سوري.

المهم في الأمر أني تسلفت من فتحة القبو في حبس الدم يوم الإغلاق، وكانت الأسواق مقفلة وخالية من الناس والشارين والبضائع، ودوريات الجيش تمر بلصوصية تامة ولا نسمع بمرورها إلا خيالا، لكن نسمع اللاسلكي والوكي توكي وكلابا تنبح من بعيد برؤوس الجبال، لأنّ كلاهم لا تنبح قط، فقط تهمر وتعضّ وتستكشف، وتفهم عبرية وعربية، وتحجك بنظرة من يفهم، فترتبك وتحاف وتغض النظر.

استقبلتني ياسمين بالأحضان، وأمها استقبلتني على الصوفا، وقبلتني هنا وهنا، وقالت أحسن خلف لأحسن سلف، مع أنها لا تعرف إن كنت أحسن أو أسوأ، وأشك تماما إن كانت تعرف عن أهلي إن كانوا أحسن أو أسوأ، لكن ذاكرتها مثل البرلنت. تذكر ما كانت أمي تلبس ويستّي تطبخ وخالي يصلي والآخر يكتب الأخبار في الجريدة، وتذكر بالتفصيل يوم الحنّام، ومشروع الصالون الذي لم يتحقق، ثم زواجها السريع وذهابها للشام وابتعادها عن هنا طوال سنين، وحين عادت وجدت الدنيا غير الدنيا، والناس كبروا وقتلهم المهمّ، والبلد تحت الاحتلال، ودار قحطان ملعبا للزواحف والجردان، وأشياء أخرى لن تذكرها حتى لا أغتمّ وينسمّ بدني. لكني، وقد اعتدت على كل ما قيل من إشاعات، سواء من ياسمين أو غير ياسمين، يعني النجار والحداد والمواسيرجي وكل من دق مسمارا بدار قحطان، فقد طمأنتها بأن الدار صارت أنظف، وأن الساحة صارت أشرح، وأن العفش استبدلته بأخر جديد غير مستعمل، لكن الكهربائيات لم تصل بعد بسبب الإغلاق.

قالت، لا بأس، كله يصل، وكله يتدبّر مع الوقت، وكله يصير مع الصبر وطول الروح، ولولا هذا الصبر وطول الروح لصار الناس مثل الأشباح. فقلت لها وأنا لا أبتسم: وكأن الناس ليسوا كذلك! فقالت بأناة: شدة وتزول. الناس مساكين بالهم طويل، صبر أيوب، طول ما فيه جبل نسوان تظل البلد مية جارية مثل الأنهار. سألتها بعجب: مثل الأنهار؟ قالت بصبر: سنسولة دايرة ولا نهر مقطوع، صح والآ لا؟ وعلى ذكر الحبل والنهر والسنسولة تذكّرت الولد سعد، سعد الشاطر، سعد المذوق، الذي لا ينسى الجميل حين خبأته ياسمين وراء الخزانة يوم الإغلاق، أي مثل اليوم. وأخذت تصف لي ذاك الولد بعاطفة جياشة استغريتها، وجعلتني أتشوق لرؤيته والتعرف عليه، خاصة بعد أن تعرفت على والده المحاسب في البلدية.

عادت تذكر لي أمي وخالي وحيد وخالي أمين والولد ربيع. الولد ربيع؟ هي ما قالت الولد ربيع، لكنني استنتجت مما قالت. قالت إنها حين عادت من الشام، مع الانتفاضة الأولى، وكان الشباب وبعض الزعران ما زالوا يستغلون الدار وينامون فيها ويقومون فيها ويستخدمون القبو لأشياء مخيفة لا ترضي الله، جاء رجل طويل نحيف، شعره أبيض، وعينه خضراوان كعيني سعد، ويحكي بلهجة قروية ويقول "ول!" قال إنه يعرف الدار من داخلها، لأنّه كان كفر فيها وابن العيلة، ويعزّ عليه أن يرى الدار تنقلب إلى مزبلة أو مسلخ ونخباً للقتلة والزعران. فقالت له إن أهل الدار إمّا ماتوا وإمّا هجروا وإمّا أخذتهم الغربية وابتاتوا لاجئين كل فرد بواد. قال: ألا تعرفين أحدا منهم؟ قالت: أعرف، أما الآن فإن كانت الدار لا تعرفهم أو تذكرهم فكيف أعرف أو أتذكر؟ وإن كان أهل الدار لا يسألون فلم أسأل؟ وقف بالباب عدة دقائق، وهز رأسه عدة هزات، وقال: يا خسارة الدار، يا خسارة الدار

وأهل الدار. ولّ يا زمن!

قلت بلهفة:

- قال كلمة "ولّ؟"

هزّت رأسها عدة هزات، وقالت إنه عاد ثاني مرة وثالث مرة، وكل مرة يسأل عن أهل الدار وأصحاب الدار وأقارب الدار وهل أعرف أحدا يدلّه على طرف الخيط؟ وحين أقول هجروا وماتوا وأخذتهم الدنيا وفرقتهم، يهز رأسه ويعيد أمامي نفس الجملة، ولّ يا زمن، يا خسارة الدار وأهل الدار!

عدت أستفهم:

- كم مرة رجع؟

- 3 مرات.

- وبعدين؟

- بعدين خجلت، وقلت بعقلي، إذا الغريب سأل واهتم، أنا الجارة كيف ما أهتم؟ بعثت خبر لحضرة أبوك، وحضر مع مرته اليهودية، وصلّح الأبواب والبوابة، أول مرة وثاني مرة وثالث مرة، لكن للأسف، كل مرة ترجع تتكسر وترجع القصة من الأول.

- والرجل الطويل أبو شعر أبيض وعيونه الخضراء رجع

وسأل؟

- شفته مرة بخان التجار، كنت بعد قوية وعلى رجلي اشتري

أغراض وحاجات الدار. شفته، لمحته، وهو لمحني، لكن خجل، يمكن خجل قدام الناس، لكن المسكين هزّ براسه وراح واختفى، وما عدت شفته ولا تذكّرتّه إلا اليوم لما شفتك. تعرفي مين هو؟

هزّزت رأسي، وقلت:

- أعرف.

- مين هو؟

- واحد من زمان كنا عرفناه وراح ونسيناه.

دخلت ياسمين ويدها فناجين القهوة، وسألت، وهي ما زالت عند الباب:

- نسيت مين؟

لم أجبها، لأنّي كنت محزونة في الأعماق ولا أريد أن أسمع كلمة واحدة توقظني أو تسحبني من ماض مضى وذاك الإحساس. نظرت في وجه ياسمين النضر مثل الورد، وفي وجه الأم المتهافت بعثره الزمن، وقلت وجهي بين الاثنين: وجه امرأة فيها ياسمين من الداخل، ومن الخارج وجه مهزوم أنهكه البحث. هل كان ربيع إلا حلما، رحلة قصيرة، صورة جميلة، مراهقة آفلة منسية، راحت، ضاعت، طواها النسيان!

24

عادت الذكريات من أولها، مذبذبا الحب فوق عيال وانتهى في بحيرة الزنبق وقرية صانور. رجعنا إلى صانور مع بداية العطلة الصيفية، وكان خالي قد استقر في تلك الدار ومزرعته. أضحت مزرعته بعد أن عقد اتفاقا مع المجلس والمختار. المجلس القروي لقرية صانور وضع يده على أملاك اللبناني بحكم غيابه، وبحكم تصرفه الجائر بحق البلد وبيع أراضٍ لليهود تحولت إلى مستعمرة تسانور، يعني صانور بالعبرية. استأجر خالي تلك الدار، وضمن المزرعة بما فيها من كروم عنب وتين وزيتون، وتعهد بأخذ نصف الغلة، والنصف الآخر للمجلس على أن يوفر له المجلس أيدٍ عاملة وحراثين ومياها للرّي وسماذاً للأرض.

بات خالي مثل أهل صانور مزارعا وفلاحا يفلح الأرض، ويقلم الشجر، ويقطف العنب والتين والزيتون، ويرصّه في سلال وصناديق يصدرها إلى المدن الكبرى على الساحل، حيفا ويافا وعكا وقيسارية وحتى لبنان، صور وصيدا، ويشترى أسمدة وبذور خضار وفسائل لتحديث النوع كما يفعل اليهود، واشترى أيضا تراكتور أصفر يلمع في الشمس بلون الليمون، مثل الذي رآه في كيبوتس عخشاف، وبذلك وفر على المجلس القروي أجور العمال والحراثين.

حين زرناه كنا نظن انه استقر ونسي ماضيه ونسي عشقه لامرأة كانت تذكره بما حقق في الزمن الجميل، زمن الثورة، حين كان الرديف لشيخ الجليل وامتدادا له، وكان قياديا محترما بين الثوّار، وكان يحكي في السياسة وحقوق الناس المظلومين بقرية شمسين ووداي الحوارث وعين جالود، وبات الآن يحكي بالزبل وحراثة الأرض وغلة الموسم

واققسام الرزق مع المجلس القروي ومشاكل عمال لا تنضب، وأيضا حَسْنَا، وما تثيره حَسْنَا من إشكالات حين يتخلف العمال أو يتهادون أو يسرقون من الغلة أو يتكاسلون عن رش المحصول وتعشيب الأرض. حَسْنَا ، بحكم إقامتها في المزرعة وتوليها مع خالتها شؤون الدار ورعاية الخيل، باتت تتصرف كما لو كانت المسؤولة عن المزرعة والأجراء. باتت تُشعر الأجراء والفلاحين أنها المالكة المسؤولة عن رقابتهم ومتابعة كل التفاصيل. وكانت قادرة وقديرة، تعرف بالأرض وشؤون الدواب، تعرف أنواع البذار والفواكه والخضار، تعرف ما يصلح لهذا الموسم وما لا يصلح، تعرف متى يروون هذا ويعطشون ذلك، ومتى يزلّون هذا أو يسمّدون ذلك، ومتى يرشون العنب بالمبيدات حتى لا يضربه الدود أو تعشش فيه العناكب والفطريات، وتعرف كيف تعامل الأجراء بحزم وثقة حتى لا يغشوا في العمل أو يسرقوا الكميات، بعكس خالي الذي يجهل كل تلك الأمور، لآته مدني وميكانيكي ولا يفهم إلا بسوافة التراكاتور وصيانة الموتورات. لهذا السبب، بات يحس أنها الأقدر والأشطر، وبالتدريج صار يعتمد عليها في كل شيء، فهي تقوم بأعباء الدار، وهي تحلب البقر وترعى الخيل، وهي من تراقب الفلاحين وتحاسبهم، وهي من تحاسب المجلس القروي وتعدّد الصفقات.

باتت زوجة من غير زواج، أي باتت الشريكة الفعلية التي يعتمد عليها خالي كليا في كل شيء، لكن بدون امتيازات الزوج أو رب البيت. بل كان يحس أنها هي ربة البيت الفعلية، وربة المزرعة، ورعاية الخيل بدليل أنها هي من ولّدت الشهباء ورعت المهرة، وهي من باعت المرعد والهزاع واشترت بدلا منهما تراكاتور جديداً أصبح تحفة القرية وفرجتها لكل من عاش أو حضر إلى صانور. والمجلس القروي، كان

يفآخر بذلك الانجاز ويعتبره امتيازاً ما بعده امتياز، ويحدثون مجالس القرى المجاورة عما حققه التراكثور من معجزات، فيجيء المخاتير للفرجة، ويبدأ الشيخ قحطان - يعني خالي - بفتح الموتور أمامهم ويشرح لهم كيف يسير بدون بغل أو حمار، ويحسّ أنه أستاذ، كما أستاذ الميكانيكا في كيبوتس عخشاف، سوى أنه بلحية شيخ متدين وله تاريخ مجاهد قاتل في سبيل الله ثم تقاعد، وها هو الآن لا يختلف عنهم من حيث الفعل، يحرق ويدرس ويزرع ويحصد، ويرى مستعمرة اليهود المجاورة تكبر وتتسع وتتمدد، وتستولي على أراضٍ للدولة بدعم من الحكومة والقانون، وهو المجاهد خليفة شيخ الجليل وأبو كمال، بات لا أكثر من سائق تراكثور أصفر يبدو كما لو كان لعبة أطفال، ومصلح بوابير المزارع، ورئيساً لعمال ماكرين يسخرون منه خلف ظهره لأنّه لا يعرف بالأرض والزراعة ولا يعرف للزبل وسهاد الأرض، ولا يعقد الصفقات مع المجلس القروي والفلاحين، لأنّه مدني وشرابة خرج.

هكذا بدا الشيخ قحطان للفلاحين، شيخاً متقاعدًا وشرابة خرج، لأنّه يسلم أموره لامرأة قادرة قوية تتحكم به، تتولى عنه الزراعة والفلاحة والبيع والشراء ومحاسبة الأجراء، وهو لا يفهم إلا بلعبته الصفراء وتصليح البوابير.

هكذا صار الشيخ قحطان، يسوق التراكثور مدة ساعتين أو ثلاثة، ثم يذهب إلى الجامع ليصلي، ويجلس في حلقة فلاحين يحكي لهم عما فعله مع المجاهدين أمثاله، وكيف ضربوا اليهود في موقعة كذا، وأغاروا على الإنجليز في معركة كذا، وكيف كانوا يسرحون في الجبال والوديان وكل فلسطين، وكيف ذاعت شهرتهم بكل العالم واحترمهم الناس وتبعوهم وأسموهم المجاهدين والثوار وأهل المروءة وفخر الأبطال. وكان الفلاحون يسمعون كل ذلك ويهزون رؤوسهم بحسرة

ونقمة، لأنهم يرون مستعمرة اليهود بجوارهم تكبر وتمتد وتتوسع، وهم في الجامع يتحلّقون حول رجل مستشيخ، يدعي أنه كان بطلاً من الأبطال، وقائداً فذاً من الثوّار، ثم تقاعد وبات يسوق تراكتوراً أصفر كلعب الأطفال، ويسلّم أموره لامرأة قادرة قوية، وبالتالي بات شرابة خرج.

25

بعد شهرين أو ثلاثة زرنا صانور فوجدنا حَسْنَا قد اختلفت. خلعت الأسود، ولبست ثوبا أبيض مطرز الصدر والذيل بالفلاحي، ولَفَّتَ رأسها بشاش أبيض، وضعت فوقه قبعة واسعة من القش، وهي تدور وتلف حول المزرعة وخلفها مجموعة من العمال، يحملون ربطات الأسلاك المعدنية والقضبان، يجددون تسييج المزرعة، ويدعمون الأسلاك والأشواك حتى يصبح السياج أقوى وأمنع.

كانت تبدو بهيئتها الجديدة تحت ضوء الشمس، وتلك القبعة الغربية كما لو خرجت من لوحة رسمها فنان هندي أو مكسيكي، منظرها مضحك لكنه يثير الإعجاب، لأنَّ سِتِّي قالت لي وهي تتكئ على كتفي: شوفي ما أحلاها بالثوب الفلاحي، أخط لك مثله يا نضال؟ لم أجبها، لأنِّي كنت أبحث بعيني بين العمال وخلف السياج وتحت الشجر عن وجه حبيب فارقني لكنه ما زال يراودني في الأحلام كطيف يهيم ولا يستقر. أحيانا يعود فأشعر بالأمل، وأحيانا يملأني اليأس فأواجه الصبح بوجه عبوس وقلب بارد. كنت ما زلت أمل أن يعود ويلقاني، هنا في المزرعة، خلف الشهباء، فوق الصخرة والشمس تغيب على السبخة وتلون الأفق بالأرجوان. كنت أمل، كنت أحلم، لكن الأمل لم يتحقق، وظل في البال مجرد حلم من الأحلام.

رأنا حَسْنَا واقفتين نتأملها، فأقبلت علينا بسرعة وحاولت تقبيل يد سِتِّي على طريقة الفلاحين، فخطفت سِتِّي يدها، وقالت أستغفر الله عدة مرات، لكنها ارتاحت جدا لتلك اللفة، لأنَّها أشعرتها أن المرأة لم تنسها وما زالت تحتفظ لها بمنزلة الأم، ولا تحاول أن تتكبر

رغم أنها - كما سمعنا - هي الكل في الكل، وخالي معتكف في الجامع وشرابة خرج.

كانت سِتِّي قد عقدت العزم على تزويج خالي من حَسْنا. خالي أمين فسر لها أن ابنها ضربه الإحباط، وضِيعَ رشده، فلجأ إلى الجامع كي ينسى. ضِيعَ بوصلته ومرساته مذ هجرته الثورة وهجرها، وهذا ما جعل امرأة تستقوي عليه. فقالت سِتِّي بعد تفكير: الحل إذن يتزوجها. وها هي تتأمل المرأة بعين ناقدة فضولية، فتهمس في أذني وتسالني: حلوة؟ أهز برأسي وأقول نعم. شاطرة؟ أهز برأسي وأقول نعم. ثم تسأل سؤالاً بصيغة تعليق ولا تنتظر مني جواباً. تقول: أرملة! وحين لا أجيب تجيب هي: وهو مطلق. ثم تعقب كي تضيف مزايا للمرأة كي تقنع نفسها أنها على صواب في قرارها، وأن المرأة تستحق أن تكون كنتها رغم أنها فلاحه وبلا عزوة بعد أن فقدت رجال عائلتها. ثم تستدرك حين تتذكر ما حل بزوجه وخالها وأخوتها وتقول: يا لطيف! الله يكون بعونها. بكره تنسى، أكيد نسيت. ولا أجيب، فتواصل: لا بسة أبيض، يعني نسيت. لا أجيب، فتواصل بأمل وعناد: أكيد نسيت، وإن ما نسيت، الله يقويني أنسيها. حينذاك ابتسم خفية، لأنِّي سأشهد معركة محترمة بين امرأتين قويتين عنيدتين، الواحدة أعند من الأخرى. وبدأت أترقب ساعة الصفر وأتوجس، لأنِّي أعرف عناد سِتِّي، وأعرف أيضاً قوة حَسْنا.

26

ذهبت إلى الكروم أبحث عن ربيع. كان ما زال لدي أمل أن أجده هناك. ما زالت ذاكرتي تحتفظ به كجزء من المزرعة والشهباء وكرم الزيتون. ثم آخر لقاء على الصخرة فوق الهضبة والشمس تغيب وهو يقبل يديّ وجبيني ويستسمحني، ويقول بأنه سيهيج، لكن إلى أين؟ كل العمال والفلاحين ممن لا يجدون عملاً في البلدان المجاورة يأتون هنا، إلى فلسطين! الإنجليز فتحوا الميناء وأغرقوا البلد بالبضائع والمنتجات، واليهود بنوا الكيبوتسات والمزارع والمنشآت استعداداً لمشروع ضخّم، أضخم منا، وأصحاب الأراضي والأملّك ما زالوا يشغلون الأجراء والفلاحين، فالعمل كثير والخير كثير. لكن ربيع ذهب إلى الغربة ونسيني. ألم يقل سيهيج من هذه الأرض بحثاً عن عمل ومستقبل؟ ربما كانت تلك مجرد أقوال، وحين يعود إلى رشده سيجد ألا مكان له إلا هنا بقرية صانور عند خالي. وربما أجده هنا في أحد الكروم، أو في الإسطبل عند الشهباء. وأخذت أحوم كفراشة تبحث عن نور.

كانت الدنيا عصراً، وخالي ما زال في الجامع ولن يعود إلا مع الليل. لم يغيّر برنامج اليوم وقال لمن أبلغه بقدمنا إنه لن يحضر إلا بعد صلاة العشاء. لهذا تغذينا وتحلينا وساعدتُ حَسْناً بغسل الأطباق. وحين ذهبت العجوزان للقليلة وذهبت حَسْناً لمراقبة العمال، خرجت أنا أبحث عن ربيع.

وصلت الصخرة ولم أجده هناك. قلبي وإحساسي جعلاني أرجو أن يكون هناك، ولم يكن. فجلست على الصخرة أتأمل المشهد الذي شاهدناه معاً آخر مرة.

تغيّر المشهد كلياً. سياج المستعمرة اليهودية اقترب كثيراً من السبخة ومرج الزنبق. السبخة ما عادت بيضاء بلون القطن، باتت خضراء! ذهب الشتاء وجاء الصيف وغازض الماء تحت سطح الأرض وأضحى المرج، مرج الزنبق، حقلاً للخضار والبقوليات وما يؤكل. ذهب الربيع بجماله، وحل الصيف بغلاله، وبات الماء مرجاً أخضر.

أسفت كثيراً وذرفت الدموع لأنّ الدنيا تتغير، ويظل القلب على حاله. ذهب الربيع، وجف الزهر، واختلف الجو، والحب ولّى وتناثر، ولم يبق لي إلا الدموع والتأسي على ما كان. وهناك في البعد وامتداد الأفق اقتربت المستعمرة اليهودية، ورأيت السياج والأوتاد تضاهي ما تقوم به حسناً، أكثر بكثير. هم يسيّجون ونحن نسيّج، وبقي المرج، مرج الزنبق، بلا سياج في أرض حرام.

مرج الزنبق هو أرض مشاع، أي ملكية جماعية لأهل القرية. يزرعونها مع بدء الصيف، ويقتسمون الغلال كل حسب مجهوده، ولكل حسب احتياجاته. لكن الخوف، كما قالت حسناً، أن تضع الحكومة يدها على المرج، بحجة أنه أرض أميرية، ثم تسرّبه لمستعمرة اليهود كما فعلت بكل المستعمرات على الساحل وسفوح الجبال.

حين قالت حسناً ذاك الكلام وقت الغذاء لم ألتفت كثيراً لما قالت. كان اهتمامي متمحوراً حول ربيع، وإمكانية لقائه أو سماع خبر من أخباره. لكن الآن، وأنا فوق الصخرة أطل على المرج وأرى الطبيعة كم تغيرت واختلف الجو، أشعر كم بتنا مختلفين! بالأمس كان الزنبق يملأ السبخة ببياض الثلج، ومع الغروب ينقلب الأبيض إلى أرجوان وتتلاأأ قصاصات الماء بشعاع أحمر متوهج، وكان ربيع والدنيا ربيع، وفيض الإحساس واللهفة، والحب المراهق والأحلام. لكن الآن، همد الإحساس، وغازض الحب تحت سطح الأرض كما غازض الماء، وحين

غابت الشمس لم تخلف فوق المرج إلا ظلالاً مظلمة كظلام الكون،
فظهرت أنوار المستعمرة المجاورة أقرب بكثير، وكذا السياج أقرب
بكثر، فأحسست بالكون يبدو أصغر، أصغر بكثير.

رأيت حَسناً تصعد الهضبة باتجاهي. كانت قد نحفت كثيراً
فبدت أطول، وخصرها أنحل، وهي قادمة نحوي بخطوات واسعة
رشيقة كما الشهباء أو المهرة، فعذرت خالي على حبه، أو حسدته، لأنني
هناك كنت وحيدة.

جلست بجواري على الصخرة، فشمت رائحة الخضرة
وتراب الأرض. سمعتها تعلق تعليقين أو ثلاثة حول العمال وأوتاد
السياج والزراعة فلم أنصت، ثم انتبهت حين قالت لي بصوت خافت،
كما لو كانت تعترف بسر خطير:

- ربيع كان مكانك من أسبوعين.

أجفلت وشنفت آذاني لسماع المزيد، لكنها ظلت صامتة تنظر
لبعيد. بعد لحظات، قالت كما لو كانت تحدث نفسها:

- ربيع في القدس.

سألت بأمل:

- اشتغل في القدس؟

- ربيع التحق بالثورة.

سألت بدهشة:

- أية ثورة؟ وهل ظل في البلد لنا ثورة؟

ابتسمت، وهي تحديق في وجهي، وقالت بلهجة غريبة، في
تلك اللحظة لم أفهمها:

- الثورة رجعت للبلد لكن خالك...

وصمتت ولم تكمل ما بدأته. لم أفهم ما قصدته، فسألت ثانية

أستوضح:

- ربيع في القدس؟ كيف عرفت؟

لم تجبني فبدأت أنشج بصوت مكتوم. أحاطت كتفي بذراعيها،
وقالت بعطف:

- بكرة تنسيه!

التفت إليها كي أفهم إن كانت تعني ما تقول، وهل قولها ناتج
عن التجربة أم أنه مجرد تعزية ومواساة، لكنها أشاحت بوجهها بعيدا
عني ونظرت لبعيد، بعيد جدا، وقالت همسا:

- هذا طبيعي، كلنا ننسى.

سألت بحذر يدفعه الفضول:

- وأنت، نسيت؟

لم تجب عن السؤال، وظل وجهها بعيدا عني. انتظرت طويلا
وأنا أأحدق في نصف وجهها الذي بدأ يعتم وتكسوه الظلال، لكنها
ظلت تنظر لبعيد، تتحاشاني، وفجأة، هبت واقفة كفرس جموح،
ونفضت ثوبها وشدت الشاش حول رأسها، وظلت واقفة تنتظرنني.
حين لم أقف مدت يدها فأسلمت يدي، ومشيت معها والشمس تغيب.

27

جاء أمين مع أمي فاكتمل النصاب. أسرعستني لتخبر
 ابتتها عما رأيته وما يزعجها، وكانت للحق معذورة، فمن يرى خالي
 بشكله الجديد وهيئته الغريبة لا يصدق أن هذا الرجل هو من كان يقود
 الرجال. كان الهزال قد جعل منه أشبه بشبح قام من القبر. جسد نحيل،
 ووجه مخسوف، وعيون غائرة مسودة، ولحية كثة، ودشداشة بيضاء
 كتلك التي يلبسها الشيوخ، وطاقيّة مخرمة صغيرة تستر رأسه، مع شعر
 حليق شبه أقرع. رغم ذلك، لم يفقد رفته وجماله، بل أصبح أكثر لطفاً
 وسماحة، وصوته أخفض، وكلماته محدودة وقصيرة. وهذا ما جعل
 مهمة سنيّ صعبة، بل مستحيلة، لأنّه لا يمنحها المجال أو الفرصة لأن
 تفاتحه بمشروعها، أي بزواجه، ولا يهيئ لها إمكانية مفاتحة حسنًا بذاك
 المشروع.

أحيراً فاض بسنيّ الكيل ففاتحت أمين بهواجسها. كنا على
 الغذاء، وخالي كعادته في الجامع، وحسنا والعجوز تجلبان المسخن من
 الطابون. كشر أمين وهو يأكل حبة زيتون، ورمى النواة في صحنه،
 وقال بعصبية وتذمر:

- هذا وقته؟

حدقت في وجهه، وقالت بغيط:

- أنت قلت ضيع عقله. أنت قلت استقوت عليه. أنت قلت

يتزوجها!

رمى خالي نواة ثانية، وقال بغضب:

- هذا وقته يا حجتنا؟

قالت بغضب مماثل:

- إذن وقت شو؟

قال بحدة كأن أحدا صفع وجهه:

- وقت السياج وأرض المشاع. وقت المستعمرة اليهودية

كل يوم تتقدم 10 أمتار. وقت المجلس القروي والفلاحين، وابنك في

الجامع طول النهار يسبح ربه!

دخلت حَسْنَا بصينية المسخن تتبعها العجوز بأرغفة الخبز.

قالت حَسْنَا، وكأنها سمعت آخر ما قيل:

- أرض المشاع بحاجة لسياج. أنا نبهته!

قالت أُمِّي كما لو كانت تتساءل:

- أرض المشاع للفلاحين!

قال مستنكرا:

- وإن كانت أرض الفلاحين، يعني نهملها وننساها؟!

وضعت حَسْنَا الصينية على الطاولة بخبطة قوية، وقالت

بجمود:

- إذا ما سيَّجناها تروح منا.

قالت العجوز، وهي تقرب الصينية من أمين:

- الإنجليز ياخذوا المشاع ويقولوا أرض الحكومة.

أكملت حَسْنَا:

- ومن الحكومة تروح لليهود.

هزَّ خالي أمين رأسه موافقا، وقال باقتضاب:

- هذا المظبوط.

والتفت إلى سِتِّي، وقال ملغزا:

- هذا وقته، أرض المشاع يا ست الكل، أرض المشاع.

قالت أمي متذمرة من اكتئاب الجو:

- خلينا ناكل، ناقصنا هم!

وبدأنا نأكل بصمت وشرود.

في المساء، وقف خالي يخطب في القرويين. قال كلمات كبيرة فيها مفردات عظيمة، مثل استعمار، ومثل استغلال، ومثل استنزاف وما شابه. كان قد اعتاد كتابة المقالات السياسية والتحليلات، وحين تفيض مشاعره الوطنية أو العاطفية يكتب الأشعار. لكن أشعاره تظل مخبأة في الدُّرج ولا يقرأها إلا لنا في الأمسيات. يقول لنا حين نسأله عن السبب في عدم نشرها إن الناس في هذا الوقت غير معنيين بلغة الأشعار، الآن الوضع لا يستوعب، فهو أكبر وأخطر من كل الأشعار والقصائد. لكنه - برأيي - كان خجولاً. كان ينجل من لغة الشعر لأنَّ الشعر فيه عواطف. وخالي أمين، كما درجت العادة لدى المثقفين وما زالت، حين يتكلم أو يكتب، يستبدل لغة القلب بلغة التنظير، لأنَّ العواطف بالنسبة له تدل على ضعف في الفكر والرجولة، وهذا لا يليق برجل سياسي ومفكر. وأعتقد الآن، بل أجزم، أن خجله ذاك كان ناتجاً عن عدم ثقة بالنفس وقلة حيلة. وقد أوغل كثيراً في عدم الثقة حين تعلق بامرأة تكبره أو تستصغره ولا تأبه به. وهذا جعله حساساً وعديم الثقة بعواطفه ولغة الإحساس، فلجأ للمصطلحات والتنظيرات حتى تنقذه من إحباطه، فعدت أقواله مجلجلة وصعبة على الفهم.

قال خالي أمين:

- مستعمرة اليهود هي استمرار للاستعمار. هذا الاستعمار

يحيق بنا ويهددنا ونحن غافلون عن نواياهم. هم يقضمون أراضينا كما قضموا أراضي تسانور وكل المستعمرات الشرقية والغربية. احتالوا

علينا وقضموها.

التفت حرّاث إلى جاره:

- كيف قضموها يا ابن عمي؟

- يعني قرطوها وبلعوها.

- يقرطوا الأرض؟

- اسكت يا رجل خيلنا نسمع!

قال خالي:

- نحن نقول إن الاستعمار لديه أطماعاً إستراتيجية في

منطقتنا. منطقتنا مليئة بالخيرات والثروات والمعادن. منطقتنا مليئة

بالذهب الأسود والغاز الطبيعي وقناة السويس.

همس الحرّاث:

- أرض المشاع فيها ذهب وغاز وقناة السويس؟!

نهره جاره وقال بضيق:

- اسمع يا رجل، خيلنا نسمع.

واصل خالي:

- بريطانيا وعدت اليهود بأرض فلسطين. بريطانيا تريد

إقامة وطن لليهود في منطقتنا حتى يكون الإسفين في خاصرتنا. هم

والإنجليز أعداء العرب.

هزّ القرويون رؤوسهم، وقال رئيس المجلس القروي:

صدقت، صدقت، يسلم فمك.

واصل خالي:

- يريدون السيطرة على قناة السويس والبترول والموقع

الاستراتيجي لمنطقتنا. يريدون الحفاظ على نفوذهم في منطقتنا من

أجل البترول وقناة السويس. يريدون مواجهة السوفييت من أراضيها.

واجهوا الألمان، وهم يستعدون لمواجهة السوفييت من أراضينا.
التفتت أُمِّي إلى سِتِّي، وكنا نجلس مع حَسْنا وخالتها وبضع
نساء في الخلفية المخصصة للحريم وقالت همسا:

- ابنك المفلسف نسي حاله. ناقص يقرأ لهم قصيدة شعر!
هَزَّت سِتِّي رأسها موافقة لكنها التزمت الصمت إذ من
الصعب أن تتدخل وسط هذا الجمع من الرجال والمجلس القروي
والمختار وشيخ الجامع. هذا ما فسرته لاحقا في غرفة النوم بعيدا عن
أسماع ابنيها. قالت إن ابنها الكبير قائد ثورة، وهذا القائد كان يجلس في
المقدمة، ويستمتع لأخيه ولا يقول أية كلمة، ولو أراد التدخل لتدخل.
فإذا كان ابنها القائد لا يتدخل، ولا المختار يتدخل، ولا شيخ الجامع
يتدخل، ولا أي رجل من الموجودين يتدخل، فهل يصح أن تتدخل
وهي الحرة!

واصل خالي:

- أنا أقول أن علينا أن نحتاط لمخططات الاستعمار ونبطلها.
علينا أن نقاوم ونتحدى. علينا أن نفشل نواياهم.
قالت أُمِّي لِسِتِّي همسا:
- يا أُمِّي أمين نسي حاله. شطح بالكلام وضيع الموضوع
وضيِّعنا.

هزت سِتِّي رأسها موافقة، لكنها ظلت صامئة تنظر للجمع
خلف ظهورهم بحيرة وإشفاق، ثم تتأمل ابنها الشاب بخجل ممزوج
بالإعجاب.

واصل خالي:

- علينا أن نحمي هذا الوطن ونستعد بالغالي والنفيس، ولا
ندع مجالا للمعتدين على أراضينا. أرض المشاع هي أرض الجميع،

قطعة من الوطن، والوطن لا يباع ولا يشتري. كل حبة تراب في هذا الوطن لها قيمة. كل حبة تراب لها معنى. كل حبة تراب هي قصيدة.

صاح صوت هادر من بين الناس:

- يا سيدي ادخل في الموضوع وخلصنا!

همست حَسْنَا وقد اشرأب عنقها وحمد وجهها:

- هذا الزبيق!

توقف خالي عن الكلام ونظر إلى الزبيق المندس بين الجالسين

على البسط بأرض الجامع وانتبه إلى نفسه والموقف، فابتسم وقال مرتبكا:

- حاضر، حاضر. صلب الموضوع أن أرض المشاع بحاجة

لسياج.

صاح الزبيق ساخرا:

- ومن يسيجها يا أستاذ؟ لازم نفهم.

هزَّ أمين رأسه موافقا، وقال مؤيدا:

- فعلا، فعلا. من يسيجها وبماذا نسيجها؟ نحن بحاجة

لأسلاك وأوتاد وأيدي عاملة وحراسة. السياج وحده لا يكفي. بعد

السياج علينا تشكيل فرق حراسة تقوم بدوريات حول الأرض، لأنَّ

الأرض كبيرة جدا، وهذا يعني أن السياج سيكون مكلفا والدوريات

يجب أن تكون متتابعة وعلى وجبات.

صاح الزبيق:

- وسلاح وسنجات للدوريات.

تبادل أعضاء المجلس القروي النظرات، وهمس أحدهم

بذعر واضح:

- سلاح وسنجات ودوريات؟

قال آخر:

- ناقصنا مشاكل وضرب وطخ ونرجع لقصة أبو كمال

ورجاله؟

قال ثالث بضحكة صفراء ووجه ممتقع بلون الكركم:

- ونقع ما بين المطرق والسندان.

ساد الصمت بضع لحظات ثم تفشى الهمس والقييل والقال.

هذا يقول وذاك يقول وأعضاء المجلس يناقشون الأمر فيما بينهم، وهم يذكرون ما حل بالقرية حين زارهم القائد أبو كمال مع رجاله، فطوق الجيش القرية بثلاثة أطواق، ونسفوا الدور واعتقلوا الرجال، فخربت بيوت وخربت صانور.¹

وقف المختار وقال بلطف:

- اسمع يا سيدي يا أستاذ. كلامك على راسي وعلى عيني.

أشهد بالله كلامك موزون ويعبّي الراس. لكن يا سيدي جربنا وخربت بيوتنا وأراضينا. لا إحنا قد الإنجليز ولا قد اليهود ولا قد السلاح والدوريات. والله والله، إذا سمعوا الإنجليز بهذا الكلام ما يخلوا حجر فوق الثاني. حتى الجامع هذا يهدّوه. يعني عشان أرض المشاع نخرب بيوتنا وتخرّب صانور؟

تراجع أمين وقال مفاوضا:

- طب والسياج؟

هز المختار رأسه موافقا، وقال مؤبدا:

- أي، نعم السياج، هذا ضروري.

١ عبد الرحيم الحاج محمد الملقب بأبو كمال من مواليد قرية ذنابة قضاء طولكرم كان القائد العام للثورة ما بين الأعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ استشهد في قرية صانور بعد اجتياح عنيف للقرية وتطويقها من قبل الجيش البريطاني وفرض عقاب جماعي على أهلها بحرق الزرع وتدمير الممتلكات.

صاح الزبيق:

- ومن يسيجها، على حساب من؟

صمت الجميع وخفضوا رؤوسهم وكل واحد ينتظر الآخر أن يقول كلمة مفيدة، لكنهم كانوا يعرفون البئر وغطاه. كانوا يعرفون أن تسيج المساحة بكاملها سيكلفهم كذا مبلغ. سيكلفهم ثمن السياج والأوتاد وأجور أيدي عاملة لمدة طويلة لا يعلمها إلا الله. كما أن الأرض هي أرض مشاع، يعني أراض أميرية لقرية صانور، والمستفيدون، معظمهم، فقراء أشقيا خسروا الكثير أثناء الثورة الكبرى، وهم يحاولون الآن التعويض عما خسروه. فمن أين يجيئون بثمن الحديد وقد بات شحيحا ومرتفع السعر بسبب القيود على الاستيراد والجمارك والضرائب ومنع التنقل إلا بترخيص؟

سمعت أحدهم يقول لرفيقه:

- أرض المشاع يا دوب تغل 4 أشهر، وشو غلتها؟ شوية

ملوخية وبيتنجان؟ الله غالب!

قال أحدهم بصوت خفيض:

- المجلس القروي يسيجها.

سمعه آخرون فأخذوا يتناقلون القول، ويتهامسون: المجلس القروي يسيجها، المجلس القروي يسيجها، فوصل القول إلى أعضاء المجلس القروي وأخذوا يتهامسون ويتداولون ويلحون على المختار أن يقول كلمة الفصل عن المجلس، لأن الميزانية لا تسمح، وأصلا لا ميزانية لديهم، لأن الضرائب تذهب للانجليز، والانجليز لا يعطونهم من تلك الضرائب إلا ذرة صغيرة ومشروطة، والشرط هو أن تستغل تلك الذرة بلم الزبالة وتنظيف الشوارع من الأوساخ وروث الدواب. وأصلا، لا شوارع في القرية ولا إسفلت ولا إسمنت ولا ماء ولا

كهرباء ولا مدارس، يعني المجلس فقير جدا مثل كل الناس، فكيف يطالبونهم بتسييج أرض المشاع!

قال المختار:

- يا جماعة الخير انتم عارفين إن المجلس ما حيلته اللظى! لا عندنا مصاري ولا إيرادات.

قال أحدهم بصوت مسموع دون أن يرفع رأسه:

- أرضك كبيرة يا مختار!

تلجلج المختار واحمر وجهه، وقال بحدة:

- أرضي أنا هذي أرضي. ميراث أبوي وأجدادي. وحتى

أرضي ما سيجتها. بنيت حوالها سلسلة حجرية وحصنتها، وإذا عندكم

حيل وبتع ومروّة أنا مستعد أشمر ذراعي وأبني معكم سلسلة حجرية

لأرض المشاع. أنا مستعد. وانت يا أبو هيثم مستعد؟ - آمستعد. وانت

يا أبو جابر مستعد؟ - آمستعد. وانت يا أبو محمد مستعد؟ - آمستعد.

شايفين؟ شايفين؟ كل المجلس مستعد يبني معكم، مين مستعد؟

صاح الزبيق ضاحكا:

- وحجارة السلسلة يا مختار مين يلمها؟

لم يجب أحد، لأنهم يعرفون أن لمّ الحجارة من القرية بحاجة

لأيدي كثيرة وأسابيع طويلة ربما تمتد حتى أشهر. فمن يقوم بهذا العمل

ويترك عمله ورزق العيال؟

حين لم يجب أحد قال المختار:

- يا جماعة الخير أنا والمجلس مستعدين نلم ونبني، مين

مستعد يبني معنا؟

قال أحدهم مدافعا عن التهمة المبطنة التي يطلقها المختار:

- يا أبو غسان، مين فاضي يلمّ مين يبني؟! الأرض كبيرة ما

شا الله! يمكن أكبر من كل صانور.

عقب آخر:

- وحجارة البلد ما تكفيها.

قال الزبيق ساخرا:

- لُمُوا من الواد والبيادر.

قال آخر محتجا:

- نقعد سنتين نحفر ونلّم؟

همست حَسْنَا في أذن سِتِّي:

- التراكثور يلمها بغمضة عين.

هزت سِتِّي رأسها، وقالت همسا: آ والله صحيح، التراكثور

يلمها بغمضة عين! لكنها ظلت صامئة لا تتكلم، إذ كيف تقوم وسط

هذا الجمع من الرجال وتقول ما لم يقله ابنها الأكبر ولا الأصغر؟ هذا

لا يصح، امرأة تتدخل في كلام الرجال!

قالت أمي محاولة إقناع سِتِّي بالذهاب إلى وحيد وتزويده

بالفكرة حول إمكانية لم الحجارة بواسطة التراكثور بغمضة عين، لكن

سِتِّي نهرتها، وقالت بتأفف وعصبية: عيب يا وداد، شو يقولوا الناس؟!

لطمت وداد خديها، وقالت بغضب ووجهها يحمرّ: شو يقولوا

الناس! شو يقولوا الناس!

قالت حَسْنَا بصوت خلا من أي تعبير: أنا اللي أقول.

وصاحت بصوت مجلجل:

- التراكثور يلمها بغمضة عين.

حدجتها سِتِّي بعصبية، وقالت همسا: هذي آخرتها يا حَسْنَا؟

! حرمة تتدخل بشغل الرجال؟

28

انفض الاجتماع وما استطاعوا الوصول لأي اتفاق. المجلس القروي قال إنه سيدرس الموضوع بجدية ويحاول إيجاد الإمكانيات اللازمة من هنا وهناك، والشيخ قحطان، يعني خالي، حين سئل عن موقفه، قال بوجوم: الله يسهّل. أما الزبيق، فقد قال بتحد واستهزاء: أنا عندي رجال وعندي سلاح، فتجاهل أعضاء المجلس قوله وفضوا الاجتماع على أن يعودوا إليه ثانية بعد أسبوع.

في اليوم التالي استيقظنا على صوت صراخ الفلاحين. قالوا مستعمرة اليهود قد اقتربت أثناء الليل. أثناء الليل قام المستوطنون بنقل سياجهم وأوتادهم من مكان إلى مكان بمنتهى السرعة والخفة فلديهم المقدرة والإمكانيات، ولديهم فرق مدربة على العمل المنظم بدوريات، ولديهم غطاء الحكومة التي تغض النظر عن زحف المستعمرة وتجاوزها. وبما أن أرض المشاع كانت في الوسط بين القرية ومستعمرة تسانور، فقد شعر القرويون أن زحف مستعمرة اليهود على أرض المشاع لا يهدد ملكيتهم الجماعية فحسب، بل يهدد بيوتهم وبساتينهم داخل القرية وخارجها. لهذا هرعوا إلى المختار يطالبونه بعقد اجتماع عاجل لدراسة الوضع واتخاذ قرار.

في تلك الأثناء، كنا قد عقدنا اجتماعا عائليا ناقشنا فيه إمكانية تمشيط حجارة البيادر والخواكير بواسطة التراكتر، مقابل أن يقوم أصحاب الأراضي المشطية ببناء سلسلة حجرية حول أرض المشاع. وبما أن العمل في بناء السلسلة يتطلب وقتا طويلا وأيدي عاملة كثيرة، فقد رأى خالاي أن يتم العمل على مراحل وبدوريات حتى لا ينقطع

القرويون عن أعمالهم وأرزاقهم، وحتى لا يكون هناك أي مبرر للتقاعس واختلاق الأعذار.

مع الصباح الباكر بدأ خالي الكبير بتنفيذ الخطة. ركب تراكطوره الجبار وبدأ يعمل. وما هي إلا ساعات حتى دب النشاط بأهل القرية وملاهم الأمل. خالي استعاد حميته واندفاعه وبات يحوم يتركتوره الجميل في بيادر القرية وحواكيرها كما تدور النحلة فوق مرج زهور. يدور هنا ويدور هناك، يسحب الصخر والحجارة من تراب الأرض وينقلها من مكانها بغمضة عين، ويكومها أكواما متساوية في أهرامات حول أرض المشاع. وكان الفلاحون يتوقفون عن القطف والتعشيب حين يمر بهم، ويلوحون له بأيديهم، ويقولون بحماس واستبشار: عالافية شيخ الشباب، تفضل شاي، تفضل تينة أو خيارة! فيرد السلام بأحسن منه وهو يدندن بأغنية لعبد الوهاب.

خالي أمين ذهب هو الآخر للمختار، وطلب المساعدة في جمع الطلبة والشباب لتشكيل فرق تعاونية لبناء السلسلة على وجبات. ولم يكذب المختار خبرا، إذ نادى ابنه وابن الجيران، وابن الجيران نادى صديقه، ثم الصديق نادى صديقه، وما هي إلا ساعات حتى اكتمل النصاب وشكلوا فرقا للبنائين، وبدأوا العمل من جهة الغرب، أي من الجهة المقابلة لمستعمرة اليهود. وحين رأى الفلاحون جموع الشباب وهم يعملون بهمة ونشاط وينشدون الأناشيد، هرعوا ليصطفوا على الجانبين لمشاهدة الحدث الجميل، ثم اصططفوا ليشكلوا فرقا تتناوب على بناء السلسلة على وجبات، ولتشكيل فرق متناوبة للدوريات.

ولإكمال المشهد الجميل ومكافأة البنائين، قامت حسنا بتجهيز موقد قرب الموقع، وضعت فوقه حلة ضخمة وبدأت تطبخ مجدة تكفي لطابور البنائين، بينما قمنا نحن النساء بتحضير سلطة طازجة

قطفنا خضرتها من أرض المشاع.

كان المشهد لا يُعلى عليه، كأنه عرس أو زفة، إذ أخذ القرويون يتسابقون على رفدنا بما تجود به بساتينهم وبيوتهم من خيرات. فهذا يحضر سلة برقوق، وآخر يحضر سلة مشمش، وثالث يحضر لبن الماعز، ورابع يحضر خبز الشراك، حتى تجمّع لدينا من الأكل والفواكه ما يكفي القرية بأكملها، فعلت الزغاريد والمواويل، مما حدا بأعضاء المجلس القروي، وقد رأوا ما حلّ بالقرية من هرج ومرج وتفاؤل، أن شمروا عن سواعدهم وشقلوا قنابيزهم وانخرطوا بالبناء، وهم يرددون مع الشباب الأناشيد الوطنية والأغنيات، ويلوحون بأيديهم للمارة كي ينضموا لفرق العمل والدوريات.

عند المغرب، وكانت الواجهة المقابلة لمستعمرة اليهود قد قاربت على الاكتمال، أوقف خالي تراكتوره البديع تحت شجرة، وركب الشهباء وطاف بها حول الموقع ليتفقد سلامة السلسلة ومتانتها، وجاهزية شباب الدوريات، ولتأكد من أن نار موقد حَسْنَا قد انطفأت. هناك، في هدأة المساء قرب الموقد، رأيت خالي وحَسْنَا في وضع غريب ومؤثر. رأيت خالي فوق الشهباء يقترب من الموقد، حيث حَسْنَا، ويقول لها كلمات لم أسمعها، لكنني أحسست أن في المشهد سرية وحميمية، فلبدت مكاني بلا حركة أنظر من بعد وأحاول استراق السمع وفهم ما يدور بين الاثنين. وما رأيته كان مشهداً خالياً فوق الفرس وحَسْنَا قربته تستمع إليه. نزل خالي عن الفرس واقترب كثيراً من حَسْنَا، وقال كلاماً لم أسمعه. لكن من الحركة واللفقات تهيأ لي أن اللقاء بينهما ليس الأول، والحديث بينهما ليس جديداً، والتواصل بينهما له أسبقيات. هل كنت أتخيل أم أتوهم؟ هل كانت حَسْنَا تتجاوب؟ هل كان بينهما ما أستطيع أن أسميه علاقة حب وتفاهم؟ خالي يقول وحَسْنَا تسمع

وتنظر إليه نظرة طويلة، ثم تطأطئ كما لو كانت تفكر وتتأمل، وتعود لترفع وجهها إليه ويتبادلان نظرة طويلة جعلتني أرتجف من التأثير والانفعال. تذكرت ربيع. تذكرت النظرات المشتعلة ولمسات اليد. تذكرت الرغبات المكبوتة والحنان الذائب في كلمات. تذكرت اللهفة ودموع الشوق. وما أنا أرى حَسْناً تمسح دموعها، وهو يمد يده إلى وجهها، يزيح يدها ويمسح بيده، وهي تمسك بيده كما لو كانت تساعد في مسح الدموع!

بدأت أبكي. تذكرت الحب، تذكرت الحنان، تذكرت ربيع. تذكرت كل ما يقال عن العاشقين، أو ما تخيلت أنهما عاشقان، وأكوّن في رأسي قصة ضخمة عن حب مكتوم بين امرأة ما زالت تعاني الأسى، ورجل ما زال يعاني القهر. لكن آنذاك، وقد دب الأمل في جو ينتعش ويتفاعل، خيل لي أن الأمل قد بدأ يدب في حب يدوي تحت الرماد. هل ما رأيته حَسْناً في ذاك اليوم وشاركت فيه وتحمست له هذّ حواجزها فانجرفت؟ أنا لا أعرف، لكنني رأيته يسحب يديها إلى فمه، وهي تقترب أكثر وأكثر، ولم يبق إلا أن يأخذها بين ذراعيه، لكنه لم يفعل، بل نظر إلى الغرب حيث الشفق وأضواء المستعمرة الغربية وقد بدأت تتلألأ في رماد الكون. رأيته يسحبها، فمشت معه بضع خطوات خلف السلسلة الحجرية، وهناك وقفنا معاً، ظلال أسودان في نور الشفق واحمرار الغرب.

من وراء سياج المستعمرة الغربية رأيت أشباحاً تتحرك، ثم أضواء كشافات يدوية تنير السلسلة الحجرية، ثم تنتقل إلى خالي، ثم حَسْناً، ثم التراكتور، وتعود لتستقر على خالي، وعلى السلسلة الحجرية. مع الفجر، استيقظ خالي كعادته وخرج للجامع ليصلي. لم يكن هذه المرة وحيداً، كانت معه حَسْناً وخالي أمين. لم يشعر أحد

بغياهم إلا سِتِّي. كانت قد استيقظت لصلاة الفجر وذهبت لتوقظ أمين حتى يلحق بباص القرية، وحين لم تجده أيقظت وداد. سمعت الاثنان تنهاسان وتتحركان بحذر خوفا من إيقاظي، فغمرت رأسي باللحاف وعدت للنوم أحلم بربيع.

حين استيقظت وجدت سِتِّي وأمي في المطبخ تشربان القهوة وما زالتا تتساءلان عن سبب غياب المجموعة، وتضربان أحماسا بأسداس. لكن اللغز انكشف فورا حين عاد خالاي برفقة حَسْنا. وعلى غير العادة قال خالي الكبير بوجه مشرق: يا الله اسعفونا بالفطور. وعلى الإفطار، قال بهدوء، وكأنه يدلي بخبر صغير لا يخصه: اليوم تزوجنا أنا وحَسْنا. فشهقت سِتِّي، وقالت بغيظ: هيك عملتوها ورا ظهري! يا عيب الشوم! لكنها عادت وباركت وهنَّأت، ودعت الله أن يتمم عليهم نعمته بولد وجوقة أولاد حتى تفرح قبل موتها بحفيد يحمل اسم جده ويكثر من نسل أبيه وآل قحطان.

وهكذا تزوج خالي، بلا حس ولا خبر، ولا زغاريد ولا احتفالات، ولا معازيم ولا جرسونات، وبعكس زواجه الأول في حيفا، تزوج من امرأة يجيها ويشاركها الإيوان بندورها، ويأمل يوما أن يقدر على تحقيق تلك النذور.

عند الظهر، والعمل في السلسلة على قدم وساق، والدخان يتصاعد من الموقد وحلة حَسْنا، وأهازيج الشباب تملأ الجو بالفرح والحماس، والسلطة الطازجة من خضرة المشاع تلمع في الشمس، وخالي يزف خبر زواجه، وهو يقف فوق التراكور يضحك بهدوء وسعادة، وقدم المختار للتهنئة وشيخ الجامع، والكل يبارك ويهنئ، تذكّرت ما قالته حَسْنا حين سألتها عند الصخرة: أنت نسيت؟ فقالت بلهجة طبيعية: كلنا ننسى. سألت نفسي، وأنا أراقب وجه حَسْنا السعيد فوق

الموقد: وأنا هل نسيت؟ وإذا بقلبي يعاندني وبدأت دموعي تتساقط.
 وحين سئلت عن السبب، قلت الموقد ودخان حَسُنَا ونيران الحب.
 فضحك خالي وقرص خدي، وقال مداعبا: أنت صغيرة!
 عند المغرب، أوقف خالي التراكثور كعادته تحت الشجرة،
 وركب الشهباء ودار بها حول أرض المشاع؛ ليتفقد ما أنجزه الشباب
 وليدعوهم للاحتفال بزواجه. وفي المساء، اجتمع الشباب في الساحة
 وأشعلوا نارا ضخمة، وأكلوا وشربوا وغنوا ورقصوا، ونحن النساء
 ننظر من بعيد وننتفج. وفي النهاية، رجع خالي إلى الدار وحمل حوائجه
 وأغراضه، وذهب لينام في كوخ المزارعين عند حَسُنَا.

لم تدم فرحتنا طويلا ولم يمر زواج خالي على خير، إذ بعد يومين
 من الزواج، استيقظنا على أصوات الفلاحين وضجة وإرباك ورائحة
 دخان مختلفة عن دخان الخطب. وحين خرجنا، رأينا التراكثور يشتعل
 بنار عظيمة ولهب أسود، وأجزاء السلسلة قد انهارت، والزرع الأخضر
 كأنه محروث بألف تراكثور، جذوره ظاهرة على وجه الأرض، والتراب
 الأحمر مهروسا تحت جنازير الدبابات، ولا وجود لشباب الدورية.
 درنا القرية نبحت عن شباب الدورية ولم نجدهم. المختار قال
 إن من قام بحرق التراكثور وحرث الأرض هو المسؤول عن اختفاء
 الشباب. لكن أحدهم قال إنه لمح الزيتق. خالي قال إن الزيتق لا يملك
 تراكثور ولا دبابات ليعيث فسادا بأرض المشاع ويقلبها رأسا على عقب
 ولا يبقى فيها عرقا أخضر. لكن الرجل حلف للجميع أعظم الأيمان
 فصدقه البعض وكذبه آخرون، وانقسمت البلد بين مصدق ومكذب،
 في حين أصر المختار أن من قام بذلك هم الانجليز. قال إنها لم تكن

.....

المرّة الأولى التي يخرقون فيها حرمة القرية ويعيثون فسادا بالممتلكات. وأخذ يعدد ما فعلوه يوم استشهاد أبو كمال ورجاله، كيف نسفوا الدور وكسروا الجرار وقلبوا المواعين وحرقوا القمح ولم يبقوا في المريج ولا القرية عرقاً أخضر.²

٢ القائد العام للثورة ما بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩

29

كل ما بنته القرية بات حطاما، والأمل الذي أنعش الجميع وحفزهم انقلب إلى يأس وتدمر. هواجس المختار وأعضاء المجلس القروي عادت لتسيطر على الجو وتذكر الجميع بما حل بالقرية من خراب ودمار حين حاول أبو كمال المواجهة ولم يخبئ أو يستسلم. مواجهة الإنجليز واليهود، قال المختار، فعل عبثي لا نقدر عليه. هو انتحار وليس بطولة. أبو كمال حين واجه الإنجليز هنا في صانور ارتكب خطأ فادحا دفع ثمنه هو ورجاله، ونحن أيضا دفعنا الثمن. كان بإمكانه أن يخبئ في مغارة أو بئر أو يتخفى بلباس امرأة أو حراث كما فعل الثوار والزعماء أكثر من مرة في كل مكان. لكن أبو كمال رفض كل العروض وقرر المواجهة والتصدي. يواجه من؟ قال المختار محتدا والناس يسمعون ويهزون الرؤوس: يواجه آلاف الجنود المدججين بأحدث سلاح والدبابات والطائرات والقناصة؟ وهو في المقابل ما كان لديه؟ بضعة رجال بمسدسات قديمة وخناجر؟ هذا انتحار، هذا جريمة! أهذه تصرفات رجل قائد؟

حسنًا تصدت للمختار ورفعت صوتها وبدأت تشرح. قالت إن خالها كان شجاعا لا يهاب الموت ولم يجبن كما فعل الآخرون ولم يستسلم. خالها كان كريما بدينه كما في استشهاده. أعطى كل ما كان لديه للثورة ولم ييخل بشيء، لكن الناس لا يحفظون وهذه البلد لا تقدر. خالها ورجاله قصدوا أن يعطوا مثالا للآخرين حتى يموتوا بكرامتهم. خالها مات شهيدا، وزوجها وأخوتها ماتوا شهداء، وبشهادة الإنجليز ماتوا بشجاعة وكرامة.

تدخل أمين وقال إن الوضع لا يتطلب مثل هذا النقاش. على الجميع أن يتحدوا. ما فات مات، وعليهم الآن أن يفكروا بما ينوون فعله والالتزام به. ماذا يريدون؟ هل يتنازلون عن أرض المشاع وينسون ما حدث أم يواجهون؟

نواجه بماذا؟ قال المختار فأيده البعض، وسكت البعض، وانسحب البعض، ووقف الآخرون يتفرجون على الموقف ويستمعون للنقاش وهم مذهولون.

خالي الكبير كان يقف خلف حطام التراكاتور يرمق الجميع بنظرة جامدة زجاجية. أسرع لأقف بجانبه حتى يحس أني معه أفهم حيرته وانفعالاته. كنت أعرف أنه يحس بالانكسار لأنه لم يتمكن من أخذ مكان أبو كمال فيجمع فلول الثوار ويواصل القتال والثورة، وأعرف كم كانت حسنا توغر له وتذكره وتضغط عليه. لكنه بعد أن استقر في المزرعة وأصبح مزارعا كأهل صانور بات يحس أنه منهم، مواطنا مسالما لا يقوى على التحدي وتبني العنف.

التفت إلي ورآني أقف بجانبه أطلع إليه، فقال بحرج: هذه حسنا، وأنا، وأنا.. وقلب شفتيه ولم يكمل.

في المساء حكّت لنا حسنا نحن النساء قصة ما حدث في صانور يوم استشهاد زوجها وأخوتها والقائد العام للثورة الملقب بأبو كمال. قالت إن القائد عاد من الشام والتقى بمجموعة من رجاله في صانور. وشى العملاء عن موقعه للإنجليز فحضرُوا بالألوف. 3 آلاف جندي معززين بالدبابات والفرسان والقناصة والشرطة العرب على الأرض، وفي السماء طيارات ترصد المجاهدين وتلقي بحممها على المقاتلين والمدنيين على حد سواء. طوقوا صانور بثلاثة أطواق ولم يبقوا خرما

واحدا ينفذ منه إنسان أو دابة. المختار والمجلس القروي طلبوا من أبو كمال الاختباء في مغارة أو التخفي، فرفض طلبهم، وقال مستهجنا: أأكون قائدا وأكون جبانا؟ وصمم على اختراق الحصار. ركب فرسه الشهباء وامتطى رجاله خيولهم وعبأوا بنادقهم ولحقوا به. اخترقوا الطوق الأول والثاني، وعلى الثالث دار اشتباك بالسلاح الأبيض بعد أن نفذت ذخيرتهم، فاستشهد القائد ورجاله وسقطوا مضرجين بدمائهم على الأرض. التّم الجنود حول القائد يعبثون بجثته يركلونه ببساطيرهم ويفتشون جيوبه وسلاحه، فنهرهم قائد الحملة البريطاني واقترّب من الجثمان وأدى التحية العسكرية لرجل قال إنه يحترمه لشجاعته ونظافة يده وأخلاقه، وقال لمن حوله، لو كل من قاتلونا كانوا مثله لما بقي منا جندي واحد خارج بلده ولما بقي لبريطانيا موطن قدم في كل المستعمرات الشرقية. وأضافت حسنا وهي تمسح دموعها بألم وتأثر: الإنجليز احتراموا خالي وقدّروه، لكن الناس قالوا انتحر، وقالوا أشياء لن أذكرها، لكنكم سمعتم بعض ما قيل في المجلس، فهل هذا عدل أو منطق؟

سَيّ سكتت، لكن أُمّي علقت بدهشة واستغراب:

- واجه الإنجليز بثلاثة رجال؟

حدجتها حسنا بنظرة حادة، وقالت بصوت كالضحك:

- كان البطل وكان القائد، لكن أنت...

وتوقفت عن الكلام، واستدارت بظهرها ولم تكمل.

بعد ساعة ذهبت إلى خالي أمين أسأله رأيه حول الموضوع.

كانت الدار هادئة إلا من أصوات النساء في المطبخ، وخالي الكبير ما زال يبحث الوضع مع المختار والقرويين، وخالي أمين في الغرفة الشرقية بعيدا عن الجميع يكتب مقالاته الأسبوعية حين هرعت إليه لأستفهم.

كنت أعتقد أنه الوحيد القادر على رؤية الموضوع من عدة زوايا دون اندفاع وتحيز. كنت أحترم رأيه وأتأثر به، بنظري كان هو المثقف والشاعر.

سألته عن رأيه في كل ما قيل حول أرض المشاع ومواجهة المستعمرة الغربية والإنجليز وعن موقفه من حسننا وخال حسننا، وكيف يتصرف فيما لو تعرض لموقف شبيه بالموقف الذي تعرض له أبو كمال، هل كان يواجه أم يختبئ أم يستسلم؟ وماذا يتوجب علينا وعلى صانور أن نفعل؟

ابتسم خالي وهو يعصّ على قلمه بأسنانه، وسألني بدلا من أن يرد علي. قال وهو يحدجني بتمعن:

- وأنت يا نضال ما هو رأيك؟

قلت بأني لا أعرف، ولهذا جئت إليه حتى أعرف. سألني ثانية وهو يتأمل في وجهي:

- أنت مع المواجهة أم الاستسلام؟

قلت وأنا أسترجع كلمات المختار:

- بماذا نواجه؟

قال مبتسما بشكل مستفز:

- إذن نستسلم!

وحين لم أجبه أخذ يصف ما كان عليه الوضع في ذاك الوقت.

قال باختصار إن الثورة كانت تحتضر، فوضى ودمار ومشانق، ذهب إلى الشام ليستنجد بالأخوة العرب فيماذا وجد؟ وجد ضياعا شبيها بضياع فلسطين، فعاد مخذولا مهموما مكسور الفؤاد والخاطر. رأى الهزيمة قادمة وضياع البلد وانكسار الناس...

وتوقف خالي بضع لحظات، وعاد إلي يستجوبني:

- وأنتِ يا نضال، لو كنت مكانه هل تستسلمين أم تختبئين؟
قلت بحيرة:
- وماذا بعد الاختباء؟!
سألني ثانية ليحشرني:
- إذن تواجهين؟
بلبلني السؤال، فعدت أسأل:
- بماذا أواجه؟
عاد يلح:
- تخيلي، كوني مكانه؟
وحين لم أجب، ابتسم بخبث:
- ألم تسألي أين ذهب ربيع؟
حين رأني ذاهلة أفكر بأبعاد كل ما قيل بفم مفتوح، استدار
عني وأمسك بقلمه وعاد ليكتب.

30

مر النهار والجميع يتعقبون آثار شباب الدورية، وما بين الفينة والأخرى يبتعد خالي الكبير ليختلي بنفسه يتأمل ويفكر بما يتوجب عليه أن يفعل. رأى التراكاتور كجثة ديناصور ميت، والشجرة هيكلًا عظميا بلا أغصان ولا أوراق، والساق المحترقة كوتد مزروع في أرض خراب، وآثار الجنائز مغروسة عميقا في أرض المشاع التي كانت في يوم ما مرجا للزنبق وبحيرة ماء. وحين لم يتوصل إلى أي حل أو قرار عاد إلى الرجال لإكمال البحث.

في اليوم التالي، في وضح النهار، رأينا تراكتورين ودبابتين تخترقان المستعمرة الغربية وتتقدمان نحو أرض المشاع. صاح مناد: يا أهل صانور، هجموا، هجموا! فحمل الفلاحون العصي والفؤوس وهرعوا يركضون نحو أرض المشاع. لكنهم توقفوا وحمدوا في أماكنهم وأيديهم ما زالت مرفوعة. حمدوا كالتماثيل ولم يستطيعوا التحرك أو التفوه بأية كلمة. رأوا شباب الدورية وقد شدوا بحبال وجنازير إلى مقدمات الآليات وفرق المستوطنين تقتفي أثرهم وتتقدم ومعهم أسلحة وسياح وكشافات. الآليات هدمت ما تبقى من أجزاء السلسلة الحجرية، والمستوطنون نصبوا حول أرض المشاع سياجا وأبراج مراقبة وحراسة تضاء ليلا بالكشافات، وعادوا بسرعة من حيث أتوا ومعهم شباب الدورية.

ما إن تراجعت الآليات بعد إحكام الأسلاك والحراسة حول أرض المشاع حتى توافد الفلاحون على المجلس القروي وهم يصرخون ويهددون ويكبرون. خرج المختار إليهم وقاد التظاهرة إلى

الجامع، وهناك اجتمعوا ليتدارسوا الوضع ويضعوا خطة لرد الهجوم. أهل صانور أضحووا مهددين ومستفزين ومطوقين من كل جانب. المستوطنون سرقوهم وتحذوهم وأذلّوهم في وضح النهار. أخذوا الأرض وأحقوها بالمستعمرة الغربية وهم واقفون لا يجرؤون على رد التحدي أو القيام بأية حركة. استخدم شباب الدورية كدروع بشرية ورهائن كبّل أيديهم وجعلهم غير قادرين على الصد والرد والقيام بأضعف الإيمان وهو رشقهم بالحجارة وروث الدواب. خافوا على شبابهم المشبوحين على مقدمات الآليات وقد بدت وجوههم شاحبة وصدورهم عارية وآثار التعذيب واللكمات ظاهرة على وجوههم وأجسادهم. الآباء والأمهات والأعمام والخالات وقفوا يشاهدون أولادهم المصلوبين كعبيد الرومان وعيونهم جاحظة وأفواههم مفتوحة من الدهشة والذعر، ولم يقولوا إلا يا رب، ويا قشل راسي، وآه يا ويلاه! وحتى تلك الأقوال والتعبيرات قالوها همسا وفي أعابهم خوفا على أولادهم وعلى أنفسهم وعلى ما قد يصيب القرية والممتلكات والمزروعات وتعاد المأساة كما حدث يوم استشهاد أبو كمال حين قتل القائد الكبير في أرض المشاع.

وقف المختار في الجامع، وقال لهم إن ما حدث هو أمر أصعب من أن يَحْتَمَل، فبالإضافة إلى سرقة الأرض جهارا نهارا وأمام العيون بقصد الإذلال وكسر الرؤوس، فقد أخذوا الشباب كرهائن واستباحوا القرية والممتلكات. وهذا يعني أن كل شيء مستباح ومهدد، وأن المستوطنين باتوا سلطة بدل الانجليز، بفضل الانجليز، فماذا نفعل؟ وجم الناس وطأطأوا رؤوسهم بذل ومشاعر مختلطة. فبدل أن يقول لهم المختار ما يتوجب عليهم فعله ها هو يسألهم ماذا نفعل؟ ! أحدهم قال بصوت جهور، ورأسه في الأرض: جيتك يا عبد المعين

لتعين... فردد آخرون من خلفه: لقيتك يا عبد المعين تنعان!

هب أحد أعضاء المجلس القروي، وقال مساندا المختار:

- المختار يقول وأنا أقول أشيروا علينا. المجلس القروي والمختار وكل واحد منا مستعد أن يقدم أولاده وروحه وماله في سبيل استرجاع شباب القرية.

عقب فلاح:

- والأرض يا جماعة، الأرض، الأرض؟

قال المختار موافقا:

- والأرض، الأرض، طبعا الأرض.

رفع الزبيق صوته من بين الجالسين وقال معاتبا:

- أنا قلت لكم أنا عندي رجال وعندي سلاح. واليوم أعود وأكرر: أنا عندي رجال وعندي سلاح. إذا كلنا تعاوننا عليهم بإذن الله نكسر راسهم. مين معي يا شباب؟

همس أمين في أذن أخيه:

- هذا انتحار!

هز خالي الكبير رأسه، وهو يتذكر ما حل بهم حين قتل الزبيق الضابط اليهودي وكان السبب في اندحار الثورة وهي ما زالت بعد وليده، لكنه لم يقل إلا كلمات: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الفلاح وقد وجد قشة يتمسك بها:

- الزبيق عنده رجال وسلاح. خلينا نهجم عليهم، نخلص الشباب وناخذ الأرض، إحنا قدها.

قال المختار بحزن يائس:

- إحنا قدها؟ يا ريت قدها. حتى أبو كمال ما كان قدها.

قال آخر:

- يعني نسكت؟ واولادنا كيف نرجعهم؟
قال المختار مهدئا:
- فيه ألف طريقة وطريقة. نرفع دعوى، نشكي عليهم، نوكل محامي يقاضيههم.
- ضحك البعض وتذمر آخرون فصاح الزبيق:
- عيب عليكم! أولادكم شبحوهم على دبابات والأرض أخذوها قدام عينكم وانتم واقفين زي النسوان!
- همس أمين:
- شوف الملعون، نازل ينفخ ويهيجهم.
- هزّ خالي الكبير رأسه بدون تعليق، فدغره أمين:
- والحل يا وحيد؟
- التفت إليه وابتسامة صفراء على وجهه، وقال بأسى:
- الحل عندك يا تبع القدس!
- سأله أمين:
- الجهاد المقدس والحسيني؟ نلحق بربيع؟
- هز رأسه مفكرا وقال كمن وجد ما كان يبحث عنه:
- هذا هو الحل!
- لكن الزبيق كان يصيح بالقرويين ويهيجهم:
- يا الله يا رجال، يا الله عليهم. إن ما خربناها ما بتعمر.
- وقف أمين وصاح محاولا إيقافه عند حده:
- بسكاكين وخناجر عليهم؟ أصح يا مجنون، إعقل، فكر، وخذ الله! خلينا نفكر بالمعقول.
- لم يسمعه أحد، إذ كان الجامع قد انقلب إلى ساحة فوضى.
- بعضهم قاموا ولحقوا بالزبيق وهم يلوحون بقبضاتهم ويصرخون

بغضب مستميت: الله أكبر! وبعضهم انسلوا وانسحبوا لبيوتهم ليحذروا عائلاتهم أو يفروا معهم من صانور قبل أن تقوم القيامة ويبدأ الهجوم، وبعض الشيوخ وكبار السن وقفوا في ساحة الجامع يراقبون الزبيق ومن معه وهم يضربون أكفهم ويحوقلون. ونحن تركنا صانور قبل بدء الهجوم بدقائق. خالي الكبير وخالي الصغير ومعهما حسنا تسللوا عبر الجبال متوجهين نحو القدس للالتحاق بالجهاد المقدس والحسيني، ونحن تسللنا عبر الطريق الفرعية في شاحنة الخضار نحو نابلس. سِتِّي جلست بجوار السائق، ونحن جلسنا في الخلفية بين الصناديق الفارغة والسلال المليئة بحوائجنا وحقائب السفر والهجرة. وحين نظرت لأودع مرج الزنبق وكرم الزيتون والذكريات وربيع العمر، رأيت المستعمرة الغربية وهي تتوهج في شعلة نار.

بدأ الهجوم. الزبيق ورجاله تسللوا إلى المستعمرة وأشعلوا النار في مخازن الجبوب وإسطبل الدواب، والفلاحون قتلوا الحراس ودخلوا ينتقمون لما حل بشباب الدورية والزرع الأخضر في أرض المشاع.

وصلنا نابلس وسمعنا الأخبار عبر الراديو وحديث الناس. قالوا صانور قصفت من الأرض وقصفت من السماء وقتلى وجرحى واعتقالات، ولم نعرف إن كان شباب الدورية نجوا من الأسر أم اعتقلوا، لكننا عرفنا أن الزبيق ورجاله انسلوا وعادوا لموقعهم فوق الجبال وهجروا صانور.

الحادث برمته، قالت سِتِّي طوال سنين، كان نذير شؤم وإشارة. إذ بعد أيام أعلنت هيئة الأمم عن قرار التقسيم، فنزل القرار كصاعقة زلزلتنا، ونسينا صانور وأهل صانور ودخلنا في نفق التقسيم والإضرابات وبداية حرب جراحة بدأت هناك وظلت هنا حتى رجوعي من بعد سنين، طوال سنين، وقصة ياسمين والمركابا والاجتياحات،

ومنع التجول والإغلاقات، وأنا هنا أعيد ترتيب غرفة خالي وما تبقى
من صور وأوراق منسية، وأنتظر الفرج في دار قحطان.

30

حمرا سطوحاتك حمرا كلاً عشاش عصفير
 خضرا طرقاتك خضرا رح بتلفك وتطير
 وشباييك يا ضيعة مضويه ليل نهار
 كل شباك وفيه حلوه ورده مليانه زرار

لا شيء ينسينا هذا السجن إلا أغنيات الصباح ومحمل فيروز
 وطرقات الضيعة ولون القرميد وأعشاش الدوري والعصفير وورق
 تشرين.

طريق المحبة تتحفنا في كل صباح بباقة مترعة بالألوان حتى
 ننسى. وما بين الأخضر والأحمر تلقى إلينا بخبر انفجار أو حاجز تتبعه
 بأغنية حلوة فيها كلمات رقراقة ننسى معها أو نتناسى ما كان بالأمس
 وما هو آت.

بالأمس فقط، وقبل منع التجول بساعتين، جاء الكهربجي
 ومعه الجهاز المتطور وركب سماعة في كل غرفة وفي الليوان وفي المطبخ
 وحتى الساحة. وحين سمعت الموسيقى تصدح في الدار كما لو كانت دار
 الأوبرا قلت لنفسى: الآن فقط أنا في أمان. لن أسمع شيئاً من الخارج، لا
 الانفجارات ولا المظاهرات ولا جلبة العمال في الساحة وسطوح الدار،
 ولا حتى نداءات جارجي ياسمين لأن الجهاز والساعات والموسيقى
 ستغلطني بشرنقة من حرير ومحمل فيروز، فأعود لألواني ولوحاتي
 وقصائد خالي المنسية وتلك الأوراق.

لكن طريق المحبة وقفت فجأة، وقال المذيع بعد دقائق من

صمت مرىب: خلل فنى بسبب انفجار قطع الإرسال. فهرع النجار والحداد والكهربجى وهربوا من الدار. تركوا أدواتهم متناثرة فى كل مكان، وركضوا ليختبئوا فى بيوتهم قبل الإغلاق ومنع التجول والتفتيش، وبقيت وحدى أتقل بين الزوايا المهجورة والغرف الفارغة المدهونة وأعيد الأدوات لأماكنها، وأعلى صوت الموسيقى حتى أشعر أنى فى الدار لست وحيدة وأن الانفجار لا يعينى.

لكن الطرق على البوابة الحديدية اخترق أذنى رغم الجهاز المتطور ومخمل فيروز. قلت لنفسى إن النجار كعادته نسي شيئاً وعاد ليأخذه. أو أن التفتيش فى الحارة وصل إلينا وسيندفع الجنود إلى دارى بحثاً عن صبي رشق حجراً أو عن شباب. ألم تكن هذه الدار مسرحاً للشباب ثم الزعران ثم الشباب ثم الزعران طوال سنين؟ لا بد أن أفتح حتى أثبت للجنود أنى بريئة من هذا وذاك، وأنى وحيدة ولا شيء لى إلا الأوراق والألوان والموسيقى وصوت فيروز.

فتحت البوابة وأنا أتوقع الأسوأ، وحمد الله لم يكن الجيش ولا النجار كعادته ولا ياسمين. كان رجلاً غريباً بسكسوكة، كبيراً بالسن، شعره أبيض، بنظارات طبية، وقميص أميركى بكاروهات وجينز أزرق لونه باهت، وهيئة تدل على أنه موظف أجنبى متطوع فى إحدى المؤسسات الأوروبية التى تملأ البلد لتسعفنا، ولا تسعفنا، لكنها أفضل من لا شيء.

توقعت أن يمد يده باستمارة دراسة أو نشرة، لكنه لم يفعل، بل ظل يحدق فى وجهى بنظرة غريبة كما لو كان يطلب شيئاً ويحجل أن يقول. تذكّرت الولد فى الخزانة صاحب ياسمين، لكن هذا كبير بالسن وشكله لا يدل على رشق حجارة ومتراس وخزانة، شكله يمنحه الحصانة، كبير بالسن وسكسوكة وقميص أميركى ونظارة طبية، فماذا

يريد؟

قال الرجل بصوت مألوف:

- تغيرت كثيرا يا نضال!

قلت بدهشة:

- إذن أنت ربيع!

من خلف النظارة رأيت عينيه هما عينيه، والغنة القديمة في صوته، وطوله القديم، أقصر بقليل، ربما أقصر، لأنّي قصرت أنا أيضا بسبب الهشاشة وانضغاط المفاصل والغضاريف، أو ربما، لأنّي كنت أراه في ذلك الوقت أطول بكثير. لكنه الآن في طولي أنا، وشعره أبيض وقد بدأ يخف، والنظارة، والقميص الأميركي وجينز راقٍ، وحذاء كوتشوك يبدو ثمينا أو من البالات. لكن شكله لا يدل على البالات أو عصيرة، ورائحة عطر رجولي من جفنشي أو أرماني، وأسنانه مشغولة بعناية لونها أبيض، ربما مصنوعة من الفينير أو الزركون.

ابتسم وقال:

- أظن في الباب؟

فتحت البوابة فتحة صغيرة وأغلقتها بعد دخوله، ومشيت أمامه كي أقوده إلى الساحة تحت الخشخاش حيث كراسي البامبو الجديدة ومظلة شمس.

سألته إن كان يريد قهوة ففضل الشاي وماء بارد حتى يرتاح من تعب الطريق. قال إنه كان قادما ليسلم عليّ حين سمع بالانفجار وبدأ التجار يغلقون الدكاكين والناس يتطايرون مثل العصافير. وجد نفسه محشورا في المدينة، فالطريق أغلقت والسيارات أوقفت ولم يجد أمامه إلا أن يكمل طريقه إليّ حتى تفرج وتفتح الطريق.

أول شيء فكّرت فيه وأنا أستمع إليه أنه سيظل عندي هنا في

الدار حتى تنفتح الطريق ويعلنون وقف الإغلاق ومنع التجول. رجل غريب في داري في هذا الزقاق؟ غير ممكن! ماذا يقول الناس عني؟ ماذا يقول عني الجيران؟

لم ابتسم وأنا أتذكر كلمات سَيِّ المعهودة: شو يقولوا الناس، الآن الواقع هو الواقع. نحن لم نتغير عن أيام سَيِّ ولا شعرة، بل تراجعنا عدة خطوات. البلد مليئة بالجلاليب والبراقع، وأصوات المآذن تتحفنا في كل صباح وكل مساء بهتافات مدوية مسعورة عن الكاسيات العاريات الفاجرات العاهرات، حتى بتنا نخاف من المشي في الشارع، خوفا من لعنه أو رشقة حجر أو ماء النار. نمشي بالكم والمستّر ونقف أمام المرأة قبل الخروج، لتتأكد من المظهر حتى لا نغضب الشارع وشيخ الجامع. صرنا نخاف من الجامع ومن الشارع ونظرات الناس. صرنا نخاف. صرنا نسمع عن ذبح نساء اتهمن جزافا بسوء الخلق والتجسس. سوء الخلق يعني لباس مفتوح وتبرج، أو قصة غرام وفضيحة، الآن الغرام يعني فضيحة ويعني تجسس. هذا ما وصلنا إليه في هذا السجن، هكذا صرنا!

نظرت إليه وأنا أقلبه من فوق لتحت، وقلت لنفسي: هل يستحق هذا الغريب أن أقتل بسببه أو أتهم بسوء الخلق والتجسس؟ أنا بالكاد أعرفه أو أعرفهم، أقصد ناسي، وهم بالكاد يعرفون من أنا سوى أنني بنت القحطان أبوها فلان وجدها فلان وتسكن بالدار القديمة، دار القحطان، لكن من هي؟ الله أعلم، وشكلها الشاذ الغريب المتعثر، شكل أخرق، لأنها مجذوبة أو شاذة. مظهر غريب، سحنة غريبة بصندل رهبان وقميص فضفاض وعقود فضية وتعاويد من حجر الجعران وجيد الصين. أراهم ينظرون مباشرة دون أن تطرف لهم أعين، وكأنهم يتساءلون: من هذه الغريبة المهووسة؟ أهى حقا بنت القحطان؟ وأنا

بدوري أتساءل: أنا منهم؟ وأعود لأختبئ في زوايا الدار وألواني وأوراق خالي وما حوته تلك الصناديق من ذكريات وقصائد وصور العيلة أيام زمان.

قلت له ونحن نشرب الشاي بحرج بالغ إن الإغلاق قد يستمر عدة أيام، وهذا يعني أنه سينام في هذه الدار طوال أيام وليالي. وصمتُ بحرج حتى يفهم أن هذا الوضع سيزعجني. فقال بسرعة إن لديه قريب في حي قريب سيتسلل إليه مع حلول الظلام. تذكّرت ياسمين والولد سعد خلف الخزانة فخجلت من نفسي، وقلت له إني سأفكر بحل عملي ولن أدعه يجازف بحياته. وفكرت فورا بشكل جدي: أترك له الدار وأذهب وأنام عند ياسمين، وبهذا استرحت.

بدأت أسأله عن حاله، وماذا يعمل، وماذا فعلت به الدنيا منذ النكبة وضياع البلد والهجرة ثم الاحتلال والنكسة ثم أوصلو ثم غزة ثم الأوضاع الغريبة في هذا الجو؟

بدأ يتحدث عن الأوضاع بشكل تقليدي كما نفعل، يعني إحباط، يعني احتلال، يعني انحلال، يعني هزائم، يعني دمار وكوارث، ثم دخلنا في صلب الجد وأوضاعه. قال إنه جاء من دبي قبل سنتين واشترى دارا في زواتا على سفح الجبل من طيب هاجر إلى كندا. الدار كبيرة وجميلة حولها أشجار وسور وسياج خوفا من الجيش والتسلل وبركة سباحة وعدة دونمات يزرع فيها الخضار والعنب والفواكه ويقضي الأيام وهو يجرب أنواع البذار والفسائل يحضرها من كل مكان يسافر إليه.

رأني أحدق في وجهه، وقرأ في عيني عبارة "من أين لك هذا؟" فأسرع يفسر كما لو كان يقدم أوراق اعتماده ويدافع عن ثروته وأملاكه، وأن تلك الثروة لم تهبط عليه من السماء ولم يسرقها، بل جمعها بعرق جبينه

واجتهاده. قال إنه بدأ حياته رجل مطابع. تعلم كيف يصف الحروف في جريدة الزوبعة حين هرب مع خالي أمين إلى لبنان وحزب سعادة، يعني الزوبعة الشهيرة في ذاك الوقت، وهناك تعلم صف الحروف. صف الحروف تطور منذ ذاك الزمن، ومع تطوره تطور هو من صف الحروف باليد حتى الإترتايب والمونتايب والزينكوغراف والأوفست ثم الطباعة الاليكترونية والكمبيوتر. وهو الآن لديه في الإمارات شركة ضخمة للكمبيوتر وآلات النسخ والتصوير والطباعة يستوردها من كوريا واليابان والهند وألمانيا والبرازيل. يستورد كمبيوترات وبرامج ويتابع الثورة التقنية في كل مكان في العالم.

كان يتحدث وكأن ما يقوله شيء عادي، وبنفحة ذكية من غرور خفي. هو رجل أعمال ومبرمج، بدأ صغيراً وبات كبيراً، أو بالأحرى بات غنياً، لديه كمبيوترات وبرامج وشركة ضخمة، ودار كالقصر فيها بركة سباحة وعنب وخضار وفواكه، وشركه في الإمارات يدير فروعه أبنائه من امرأة كندية ماتت منذ عدة سنين بسرطان الثدي. هو الآن متقاعد يستمتع بشيخوخة مريحة وميسورة بين الإمارات وزواتا، ويتمنى أن أزوره في داره لأرى الخضار والمستنبت، حيث يجرب أنواع البذار والفسائل، والطبيعة الهادئة الجميلة في قرية بعيدة عن هذا الجو.

طوال حديثه وأنا أتأمله وأفكر كم تغيرنا واختلف ربيع! أهذا ربيع حفيد أم نايف بائعة اللبن والخبيزة وابن خالي بالروح وورث الحسيني وسعادة؟ كنت قد سمعت من خالي أنها حين ذهباً للقدس بعد صانور التقيا بربيع في مقر قيادة الثورة عند الحسيني بقرية بيرزيت. كان قد التحق بالحسيني وقواته وظل معه حتى استشهاده في القسطل، وبعد القسطل ذهب مع أمين إلى سعادة، وبعد سعادة هرب لكندا، وهناك انقطعت أخباره. وها هو الآن، رجل غني ومبرمج يحكي

بالويندوز والانترنت والكمبيوتر ويتشدد بفروع الشركة العملاقة في الإمارات، وأولاده من زوجة كندية ماتت للأسف بسرطان الثدي، وها هو الآن بين الإمارات وزواتا ويعيش بعيدا عن هذا الجو!

ذكرني شكله وحديثه برجال الأعمال في عمان، وفي كل عاصمة عربية. هؤلاء يثيرون مللي ونفوري، فأهرب من جو التبجح والسطحية وأعود لجوي المتكشف والطبيعة، أرسم أشجارا وحوانيت وشوارع مرصوفة بالباعة والحمالين وعرق السوس والشاورما ووجوه نساء مكبوتات منكوبات وأطفال العلكة والبسوسة. أنا فنانة، وهو رجل أعمال متبجح. هكذا صرنا وعلى هذا نموت، فماذا بقي من هذا العمر حتى نغير؟ وهل كنا نملك أداة التغيير لنغير أو نتغير؟ أم أن الأقدار تقذفنا وتفرطنا قصاصات ورق في مهب الريح؟

سألني عن حالي فوصفت باختصار شديد ما آلت إليه أحوالي بعد ستي. ستي ماتت وأمي اختفت، فألحقني خالي بمدرسة الراهبات حيث عولج في المستوصف. الراهبات اكتشفن موهبتي فدبرن لي بعثة فنية إلى روما، ومن هناك بدأت حياتي كفنانة وعشت حياتي بالطول والعرض. تزوجت وطلقت ثم تزوجت ثم تمرت ثم أحببت ثاني مرة وثالث مرة وعاشر مرة، ثم قررت ألا شيء يستحق انشغال القلب إلا فني ورسوماتي، وها أنا أعود إلى داري حتى أرمم ما آل إلي من آل قحطان.

كان يحدق فيّ وأنا أحكي وكأنه يبحث فيّ عن تلك الصبية الحساسة ذات الجمال ولأناقة، بنت القحطان، ذات الحذاء اللميع وأشرطة الرأس، وكيف قال لي في يوم ما وهو يراني بصندل كوتشوك وفرنستان صنع من الطراريح أن فستاني القديم كان أحلى. ولا بد أنه يفكر الآن كما أفكر أنا، أن فستاني القديم كان أحلى، وشكلي القديم كان

أحلى، ووجهي القديم كان أحلى، وزمني القديم كان أحلى. هل كان
يفكر في ذلك أم أتخيل؟

قلت بحسرة كما لو كنت أخطب نفسي:

- كنا أحلى!

قال بجدية وتأمل:

- كنا أصغر.

قلت بحسرة:

- كنا أحنّ، كنا أجمل.

قال بجمود:

- كنا نحلم.

قلت بجفاء كما لو كنت أتهمه:

- أنا ما زلت.

ابتسم برأفة وسبّل عينيه:

- هذا، لآئك فنانة.

سألته بفضول:

- وأنت ألا تحلم مثل كل الناس؟

هز رأسه:

- الناس لا يحلمون، فقط يعيشون، فقدنا الحلم.

- وأنت فقدته؟

قال بسرعة كما لو كان يبق حصاة في فمه كانت تزعجه:

- أنا؟ من أنا؟ أنا واحد من الناس فقد أحلامه وإيمانه. فقد

التاريخ. أنا بعد أبو كمال والحسيني والشيخ قحطان وسعادة ما عدت

أنا. ذهب الأبطال فتيتمنا. بتنا بيادق برقعة شطرنج ولا نعرف من

يحركنا. أهم الحكام أم الاستعمار أم غباء الشعوب أم الأقدار؟ كل من

آمنت بهم ذهبوا عني، ماتوا، سُحقوا، وكل الثورات سحقت بالأرجل
والبساطير أمام أعين هؤلاء الناس. هؤلاء الناس من أعطيناهم كل شيء
تخلوا عنا. رأونا ننسحق فداسوننا، ونسوا ما كنا وفعلنا. هل يذكرون
الشيخ قحطان؟ هل يذكرون أبو كمال؟ هل يذكرون الحسيني؟ هل
يذكرون سعادة لبنان؟ هل يذكرون ما فعلت أنا وما فعل أمثالي من
أجل الحرية والاستقلال؟ أنا يا سيدتي ما عدت أعيش إلا للذاتي. ضريبة
الدم دفعتها، وخدمة العلم أديتها، وأحلام الثورة جربتها، وطُردت
وسُجنت وعُذِّبت وشُرِّدت ثم وقفت على رجلي بعنادي، وها أنا أعيش
براحة تامة، لأنني كبرت على الأحلام.

لم أجد الوقت الكافي لأجاده أو أتأمل ما قال وما عبّر عنه، إذ
سمعت ياسمين تنادي من العليّة: يا جارتنا، اليوم العزيمة، ما تنسي!

31

حين دخلنا دار ياسمين أخذ يعتذر اعتذارات همة وكأنه يقوم بعمل مخجل، لكنه لم ينس أن يقطف زهرة من ساحة داري ويقدمها للسيدة العجوز بعد أن قبَّل يدها كما يفعل أي جنتلمان متحضر، ويتسم لياسمين ابتسامات أخاذة، جعلتها تتلوى وتتمايع منذ البداية، وتلثغ بالراء لثغة خفيفة، وترد حلزونات شعرها للوراء مع كل تعليق أو بسمة. والسيدة العجوز أم ياسمين استردت حيويتها وأخذت تحكي بدون انقطاع عن ذكريات ونهفات من هنا وهناك، وتتذكر سِتِّي في الدار وأمِّي في الشام وأيام الثورة وأبو جلدة وآفات الحرب ثم الهجرة. كانت في الشام وقت الهجرة ورأت أمِّي واللاجئين في سوريا وسمعت الأخبار، لكن الأخبار تلك الأيام لم تكن صعبة كيومنا هذا، كان الناس لديهم أمل، وهي كانت بعد صغيرة، ولم تفهم آنذاك أن الأسوأ بعد قادم، وأنها ستموت تحت الاحتلال وجنازتها ستكون ككل الجنازات بلا معزين ولا مشيعين ولا زفة، فالكل يخاف من الاشتباكات ومنع التجول والإغلاقات.

قالت ذلك عن جنازتها وهي تضحك، كما لو كانت تنكت أو تسخر من شيخوختها ومن الأقدار، وابنتها تردد بحنان زائد، ربما للفت النظر والاستعراض: بعيد الشر، أنا ولا أنتِ، انشا الله العدا، وروحي فداك يا ست ماما. وهو يتسم لها بسمه رقيقة، فتظهر أسنانه الرائعة ويبدو أصغر، أصغر بكثير! فبالمقارنة مع رجال البلدية وأبو سعد لم يكن سميना ولا مترهلا وبكرش كبير. حتى الصلع في رأسه كان خفيفا، وبطنه مشدود، وقامته مستقيمة، ومشيته ثابتة وقوية. أما التجاعيد في

وجبهه وتحت عينيه، فبالكاد تبدو واضحة، كأنه خففها بفلتر حساس، أو مسحها بواسطة الكمبيوتر، أو شدها بعملية شد. يبدو أصغر، أصغر بكثير حتى مني، مع أنني أصغره بعدة سنين. الآن الزمن لا يشوه الرجل كما المرأة؟ لكن رجال البلدية كانوا صلعاء ومكرشين ومترهلين، وأبو سعد كان ذابلاً كشجرة زاوية احترقت بالشمس جف مأوها وتعاني من الإهمال وعدم التسميد. أما هذا، رغم جفاف مائه الطبيعي، فمن الواضح أنه مسمد جداً، ولا يعاني الإهمال والتصحّر. كان يبدو ابن سِتِّين رغم أنه وسط السبعين فلماذا؟ أهى الإمارات أم كندا أم التقنيات والكمبيوتر؟

كنت أراقبه وأنا مندهشة من شكله، ومن حيويته وتفاؤله. وتزداد دهشتي حين يفاجئني بلفتة ذكية أو عبارة انكليزية يسرّع بترجمتها إلى العربية كما لو كان يعتذر عن زلقة لسان خرجت سهواً، ويوزع النظرات علينا بالتساوي كما لو كان في اجتماع مجلس إدارة ويحاول تسويق بضاعته أو أفكاره - يعني مبرمج ومبرمج، ولم يخرج عن برمجته إلا حين دخل سعد، صديق ياسمين، وهو يحمل كعادته عنقود عنب وقطع بسبوسة صنعت في الدار.

ياسمين وأمها استقبلتاه بالترحيب والضحكات، لأنه صار ابن العيلة. وهو كذلك، كان مليئاً بالحماس والحرارة وروح النكتة، فأخذ يصف ما حدث بعد الانفجار والاشتباك المثير عند الجامع، وكيف هرب الناس قبل انتهاء الصلاة، واختلطت أحذيتهم، وما عاد الواحد يعرف إن كان لبس حذاء أم حذاء غيره لأن الأحذية كلها بنفس المقاس، لأن الاحتلال جعل كل الناس بنفس المقاس!

ياسمين ضحكت كثيراً للنكتة، والعجوز باركته وأثنت عليه، وأنا سألتها كيف تسلل في منع التجول، ألا يخاف؟ سألتني بعد أن أجاب

وهو يرمقني وضيئي بألفة وفضول: وأنتم أيضا كيف وصلتم؟ وصفت له باب الطوارئ في حبس الدم، فوصف أسوار الجنائن والحواكير وكيف يتسلقها الشباب بأرجلهم ويتسلقها الجنود بالجرافات والمركابا. كل ذاك الحديث وشجون التسلسل ورشق الحجارة والمتاريس والاعتقالات وضيئي صامت، يسمع بوجوم، وينظر من تحت النظارة بدون تعليق، وينقل عينيه ما بين الشاب الصغير، الولد - الشاب، وبين ياسمين وأم ياسمين، ويلمحنى مجرد لمحة، ثم يبعد عينيه كما لو كان يخاف من عيني ولا يريد أن يتذكر. وأنا أيضا لا أريد أن أتذكر. والحق يقال، لا أتذكر. سنين كثيرة وطويلة مرت علي ولم أذكره. لم أتذكره إلا هنا في هذه الدار بين اللوحات وصور العيلة وغرفة ستي وأوراق خالي المختلطة. صحيح أفي لم أنس القضية، كما لم ينسها أي منا، لأنها ما زالت تلاحقنا حتى في وحشة غربتنا، سواء في روما أو نيويورك أو لندن، إلا أنها كانت مبدأ، شبه عقيدة. هي ليست حياة كما هنا في حبس الدم، ليست عيشة. كنا نتظاهر أحيانا ونحمل لافتات مكتوبة بلغات أجنبية محسوبة في داونغ ستريت وأمام حراس البيت الأبيض وهيئة الأمم ومتاحفها. كنا نجتمع ونتبرع لدعم الانتفاضة ونشارك بالمؤتمرات، وأحيانا نبكي وتتوجع أمام شاشات التلفزيون. لكن مع الصباح، نأخذ دوش ماء ساخن، ونلبس ملابسنا النظيفة، ونحمل حقائبنا العملية، ونذهب للشغل عبر شوارع فيها أضواء وإشارات وناس يسرعون أو يتباطئون أمام المحال والفترينات بلا صراخ ولا عجقة إلا إزعاج السيارات وحوادث السير والتلوث. لكن هنا، هنا نزيه وجناز، هنا غلاء وبطالة، هنا اختناق وحواجز. وهذا الولد، الولد - الشاب، هو المشروع والمستقبل، وهذا المشروع في علم الغيب.

انتهى الغداء وهو صامت، وأكلنا البسبوسة والكلاج وهو

صامت، وشربنا القهوة البيضاء وهو صامت. هم يتحدثون ويعلقون ويسخرون ويتذمرون وهو صامت. سألته ياسمين وقد ساءها سكوته وجوده وعدم اهتمامه أو تراجع اهتمامه وما كان يبيده من رقة ونظرات الأنس، سألته إن كان يريد شيئاً، فقال شكراً وهو يهز برأسه كما لو كان بيتسم ابتسامة صفراء أو يسخر، فامتعضت منه وأهملته واستدارت بكليتها لصديقها الصغير، الذي كان يضحكها ويسليها ويسألها عن أخبار خزانيتها وعن الراديو وهي تضحك، وأنا أضحك، وأمها ترمقها بامتعاض خفيف، لأنها تشعر أن ابتها ليست راكزة وثقيلة، وتضحك بخفة ورعونة كالمهفوفات، لكن ياسمين لم تأبه لنظرات الأم وهزات الرأس وظلت تضحك.

قبل أن تغادر همست في أذن العجوز أني سأنام عندهم، لأنني سأخلي داري للرجل الضيف فهزت رأسها بتفهم واستحسان، لأن ما أفعله هو عين العقل، هو الأصول وهو الواجب. لكنني استأذنت لبضع ساعات حتى أرتب أمور الضيف في غرفة خالي، وهي الغرفة الوحيدة الجاهزة للاستعمال. سأغير الشراشف والأغطية وأقوم بواجبات الضيافة ثم أعود إليهم مع حلول الليل.

وهذا ما كان، عدنا من باب الطوارئ كما جئنا، ودخلنا الدار

مع المغرب.

دار هو في أنحاء الدار يتفرج على الإصلاحات ومد المواسير وتغيير البلاط في المطبخ والحمامات، وأنا انشغلت بغرفة خالي أغير الشراشف وأزيع الصناديق واللوحات حتى لا يتعثر بالأغراض وكتب خالي، وينام في غرفة نظيفة بلا كراكيب ولا غبار.

حين انتهيت كان ما زال في المطبخ. سمعت حركته فتبعت

الصوت.

كان يغلي القهوة ويعد الفناجين على صينية ويعيد البن والسكر إلى الخزانة حين رأي. نظر إلي نظرة طويلة، وأنا نظرت نظرة طويلة، وأحسست أنني أتذكر ذاك الإحساس كما لو كان يتسلل من بين ضباب. ورأيت في عينيه هو الآخر شيئاً يشير إلى التذكار والتأثر، ومشاعر حزينة رقراقة تطفو على السطح بعد أن كانت غائصة تحت طبقات من الغربة وركام السنين والتصحّر.

سأل بأسى: تذكرني يا نضال؟ لم يقل "حين غلينا القهوة قبل نصف قرن أو أكثر"، ولم يقل "حين كنا صغاراً ومراهقين"، ولم يقل حين كان خالي بمثابة أبيه وكانت الدار مليئة بالأهل والأمل والثوار. لم يقل كل ذلك، وما كان بحاجة لأن يقول، لأنّي تذكرت وتذكرته. تذكرته قبل مجيئه. تذكرته حين رأيته في اللوحات وذكريات الصبا وتاريخ الدار. تذكرته مذعدت إلى الدار وأشياء، وكأن الدار ولوحاتي فتحت لي صندوق عجب وصناديقي. تذكرت الحب، حبي الأول، وأهلي وصباي وتاريخي. تذكرت الرحلات الربيعية والصيفية إلى عصيرة ثم زواتا والمحاجر ثم صانور والشهباء والمهرة ومرج الزنبق، ثم أحداثاً سريعة كشريط تالف ابتداءً بوفاة ستي، واختفاء أمني وأنا في الدير لدى الراهبات، ولا أذكر من ذلك الدير إلا خيالات شاحبة لبنات صغيرات كن مثلي، ورسوماتي، ثم الغربة. حتى الغربة غابت عني كما لو اختفت خلف ستارة ولم يبق منها في هذه الدار إلا من غابوا وسكنوها وأنا وصباي وذاكرتي. عدت إليهم، أو عادوا إلي، وهو معهم مثل الأشباح، لكنه الآن عاد حقاً، عاد فعلاً، لكن لا أنا هي تلك النضال ولا ربيع هو ربيعي. كنا قد بتنا على الحافة. هو في السبعين، وأنا مثله بشعر أبيض وحياة حافلة بالأحداث والهزائم والانتصارات. أهى انتصارات؟ بتنا نسميها انتصارات، وهى لا أكثر من إنجازات. إنجاز هنا وإنجاز

هناك لكن الحلم، ذاك الحلم، أيام الثورة والأبطال، أيام الأمل، أيام الشجاعة والنخوة، أيام الرجولة والعنفوان، كانت لقطات ومشاهد في فيلم قصير كان طويلا وقصر مع الوقت ثم تقزّم أو تناثر قصاصات ورق... ولن أقول في مهب الريح، لأن الريح ما زالت تهب وتعصف بنا وتطيرنا ولا تبقي لنا إلا شظايا، بقايا أشباح. نساء ورجال كانوا يوما في عز الشباب، يركبون الموج بلا أشعة ولا مراسي، ولكن أشجع، أشجع بكثير، كانوا أنبل.

ظللنا صامتين طوال المساء، ثم تركته بعد أن أشرت عليه بما يفعل وأين يجد هذا أو ذاك، ويتصل بي بالموبايل أو بالتلفون إذا احتاج شيئا نسيته. وتصبح على خير، وإلى اللقاء على الإفطار.

32

في التاسعة صباحا عدت إليه، وكانت الدار بلا حركة. دخلت المطبخ لأستعد لغداء اليوم. الفريزر مليء بالخضرة واللحم والسمك. اعتدنا تخزين مآكلنا في فريزرات، أحيانا نفرغها كاملة ونلقي بها في الزبالة حين تنقطع الكهرباء عدة أيام. يقطعون الكهرباء قصاصا لنا، ويقطعون الماء والتلفون وحتى النفس. وأيام الاجتياح يبولون ويتغوطون في صهاريج الماء حيث نشرب، وأحيانا يقوسون الصهاريج حتى تصبح مثل الغريال وتشرشر الماء مثل النوافير. لكن بصراحة تمسحنا. بتنا نتقبل كل شيء، ونهني أنفسنا على طول النفس وامتداد الصبر. نقول لهم ها نحن هنا، باقون هنا، مزروعون هنا مهما فعلتم. هذا استعمار، هذا أبارثايد، وكل استعمار لا بد أن يزول كما الإنجليز والأتراك والصليبيين وما شابه في كل مكان. هذا سيزول، لكن متى؟ في زمن من؟ أم ياسمين تحكي عن جنازتها بشكل ساخر، لكن ياسمين والولد - الشاب، وهو المشروع، هل يسخر أيضا كما نسخر؟

حوالي العاشرة سمعته يتجول في ساحة الدار، رفعت الراديو بأغنية لماجدة الرومي تقول فيها: يسمعي حين يراقصني كلمات ليست كالكلمات، وتنتهي الأغنية بالتفجع لأن الرقص والسعادة لم يبق منهما إلا كلمات. لكن الأغنية تطربني رغم الهزال وعقم الكلمات.

طرق الباب عدة طرقات كي يندرنى، فرحبت به بصباح الخير دون التفات، وسألته إن كان نؤوم الضحى، فقال معذرا إنه لم ينم إلا مع الصبح. علق بمرح: القلق اللعين في هذه السن؟ فقال أبدا، أنا أنهلك نفسي خلال النهار بالعمل والمشى والرياضة وأنا م باكرا وأستيقظ

باكرا مثل العصافير. لكن النوم في غرفة مليئة باللوحات والصور القديمة ومذكرات خالك أمين، كأني عدت إلى الماضي عشرات السنين. نبشت الصناديق وأعدت ترتيب الأوراق بالتسلسل، وإذا أذنت لي أقوم بنشرها حتى تظل ذكرى وتاريخاً للأجيال.

لم أجه بنعم أو لا، لأنني لا أريد أن ألزم بشيء. والحقيقة أن الفكرة كانت قد راودتني عدة مرات، لكن تشتت الأوراق وتبعثرها وانشغالي بإصلاح الدار والعفش والدهان واحتياجاتي جعل عملية فرز الأوراق وترتيبها عملية مضيئة أؤجلها من يوم ليوم، حتى باتت مثل عبء ثقيل يربكني وأتهرب منه. لكنه هو فعل ذلك، ألف شكر له، لكن مذكرات خالي أمين وصور العيلة هي ملك لي، هي ميراثي، فلماذا أتنازل عنها لهذا الغريب؟

بدأنا بتحضير الفطور. هو غلى الشاي وأعد الفناجين وسخن الخبز المثلج من الفريزر، وأنا قليت البيض ووضعت صحنونا صغيرة فيها زعتر وزيت وزيتون ولبنة ومربى وقطع بندورة وحببات خيار. حاول أن يقنعني أثناء الفطور بضرورة نشر مذكرات خالي أمين وأنا أتهرب من الالتزام. قال المذكرات هامة جداً لأمثال الولد الصغير صديق ياسمين. هؤلاء لا يعرفون عن ماضينا ولا يعرفون عن الأبطال. هم يعيشون في زمن القحط وضياح المثل. لم يعيشوا زمن الحسيني وسعادة وأبو كمال.

لم أجه وتشاغل بصب الشاي وتحليلته، فعاد يلح أن مذكرات خالي أمين فيها ما كان وقت الثورات، فيها بطولات لا تحصى، فيها أبو كمال والشيخ قحطان وحسنا ووداد وسيد الأبطال الحسيني ثم سعادة، وفيها المفكر والشاعر أمين القحطان وهو العاشق، ذاك الإنسان. كم كان جميلاً ورقيقاً، هل تذكرين؟

- طبعا أذكر.
 - هل تعرفين كم أحبّ ليزا وعشقها؟
 - طبعا أعرف.
 - وهل تعرفين عن أمك؟
 - ماذا أعرف؟
 - أمك أحبّت الحسيني كما أحببتك.
- فوجئت بأقواله عن أمي وتذكره لي كيف أحبني وخفت أن يضيف كم أحبته. وهذا أخرجني قليلا، لأنّي الآن في هذه السن لا أريد الدخول في قصص الحب والعواطف. أنا تقاعدت. ما عاد للحب في حياتي مكانا يؤويه ويرحب به. أنا هكذا براحة تامة. ما عاد لدي وقت للحب. انتهى الوقت. ثم ما دخله بقصص أمي، لم يذكرها؟ وكيف عرف أنها أحبّت الحسيني؟ وهل أحبته؟ أثار فضولي.
- قال بحسرة:
- في ذاك الزمن كم أحببنا! ذاك الزمن كان زمن الحب.
 - قلت أذكره بما قاله:
 - كنا صغارا، كنا نحلم.
 - هز رأسه:
 - كنا الأبطال والعشاق والثورة. حتى الحب في ذاك الزمن كان بطولة. كان أحلاما ونكرانا للذات. مثلاً خالك، أقصد أمين، أحب ليزا حب عبادة دون أن يلمسها ولو لمسة. كان يعشقها ويتألم. ورغم ألمه، ظل يقدها حتى الموت.
 - سألته بشك:
 - وكيف عرفت أنه أحبها حتى الموت؟
 - سأل بدهشة:

-
- ألم تقرئي مذكرات خالك أمين؟
أحسست بإحراج فاعتذرت:
- كنت مشغولة بإصلاح الدار، وأوراقه كانت مبعثرة كل ورقة بواد، ورقة من هنا زمن أبو كمال، وورقة من هناك زمن سعادة ثم الحسيني والقسطل وحتى أمي، يعني سَلْطَة، وأنا ما زلت مشغولة. لكنني أكيد، في يوم ما، سأجد الوقت وأعيد ترتيب تلك الأوراق.
قال مذكرا:
- لكنني رتبت تلك الأوراق. رتبها وقرأتها، طوال الليل وأنا أقرأ، وأحسست أنني أعود لذاك الزمن عشرات السنين. وأقول الحق أنني بدأت أحسّ بذاك الإحساس حين التقيت بالولد سعد، ألم أكن مثله في ذاك الوقت؟
- هززت رأسي بدون تعليق، فانطلق يحكي بحرارة:
- ذكرني بنفسي في ذاك الوقت. والحقيقة أنني بدأت أعود لذاك الوقت مذ وطئت قدماي عتبة دارك. كل الأشياء المنسية عادت إلي. وما زاد علي قراءة خالك وأيضا الدخول بتلك اللوحات. ألم تكن لوحات الجبل وحرش الصنوبر وزواتا وقرية صانور؟ لوحة الشهباء ذكرتني بذاك الإسطبل حين ودعتك وقلت سأهيج بحثا عن أمل ومستقبل.
سألت بحيادية تامة:
- وهل وجدت المستقبل؟
- وجدت المستقبل، لكن للأسف أضعت الأمل.
لم أعلق حتى لا أدخل في عمق الإحساس والعواطف وأوجاع القلب. فسأل بدوره:
- وأنت يا نضال هل وجدت الأمل؟
قلت باقتضاب كما لو كنت أعيره على ما قال بالأمس:

- وجدت نفسي .
- هز رأسه، وقال بأسف:
- كم محظوظة!
- لم أجبه فعلق:
- تشبهين ستك في ذاك الوقت. كانت ذكية وقوية.
- ابتسمت، وقلت:
- وكانت تفتح بالمرأة.
- هز رأسه:
- أعرف، أعرف. وأنت، هل تفتحين بالمرأة؟
- أنا لا أفتح، أنا أتوقع. أرسم الأشياء فأتوقع.
- وماذا تتوقعين؟
- هذا سري، سري وحدي، أنا لا أفشيهِ. أعبر عن سري بلوحتي، من يفهم لوحاتي يفهمني ويفهم سري، وإن لم يفهم فهذا شأنه. من لا يفهم لا يستحق أن أفشي له عمق الأسرار.
- أف، أف، ما هذا الغموض؟
- دعك من هذا وحدثني عما قرأت.
- قرأت عن الحسيني وعن أمك. هل تعرفين كيف أحبته؟
- أُمي أحبته؟ أُمي وداد المسكينة عرفت الحب؟ أُمي وداد كانت طفلة، كانت ساذجة مقهورة تبحث عن ضوء. حاولت اللحاق بليزا ولم تقدر. هربت للقدس والمستشفى حتى تلحق. أنا لا أصدق أن أُمي عرفت الحب. وتحب من؟ الحسيني؟ أهذا معقول؟ لا أصدق. امرأة ساذجة مقهورة تحب الحسيني بطل الأبطال؟ هذه نكتة.
- هي مرّضته ثم أحبته.
- ألاّتها مرضته يعني أحبته؟ ربما أنقذته فتعلقت بمن أنقذته،

- هذا طبيعي.
- هي أحبته كما أحببتك. أنا رأيته تقبل يديه وهو نائم، غائب عن الوعي.
- لأنه بطل، وهي صغيرة، يعني مراهقة تحلم كما حلمت أنا بمحسن سرحان. أحببت نجما ليس حقيقة. هل كانت تعرفه حتى تحبه؟ هل كانت تعرفه كابن آدم، يعني كإنسان؟
- طبعاً عرفته. عرفته عن قرب وآمنت به وأحبته والتحقت به، أقصد حزنه. عرفت عنه كل الأشياء.
- كل الأشياء؟ !
- كل الأشياء. رجل لا يأبه بالعائلة والمال والجاه ووهب نفسه، لم ييخل بشيء. آه تذكريني بذاك الرجل، ذاك البطل، كم أحببته!
- مثل أمي؟
- أنا رجل وهي امرأة. أنا مختلف. هي أحبته كرجل.
- وأنت؟
- وأنا أيضاً أحببته كرجل. كان عظيماً، لم يهزم قط، كان شعله. لم يهزم الحسيني إلا الموت. يجب أن تقرئي عنه، اقرئي خالك. خالك فصله ووثقه ورسمه كما ترسمين أنت لوحة. أنا أستغرب، لديك هذا الكنز ولم تفتحيه؟ لديك أسرار وتواريخ. اقرئي خالك. ألا تريد أن تعرفي كيف أحبته، أقصد أمك، لماذا أحبته، وأين اختفت بعد موته؟ ألا تريد أن تعرفي كل ذلك؟
- لم أجبه، فقط حدقت. بلى أريد أن أعرف، لكن الآن، انتهى الوقت. ما عدت الآن بحاجة إليها. حين احتجتها هربت مني، ولّت، ضاعت، تركتني وحيدة ونبذتني. لا أحقد عليها ولا أهتم، كبرت على الهم. لكن الزمن، ذاك الماضي كان غريباً، كان مليئاً بقصص الثوار

والأبطال وأيضا مليئا بالنكبات. اختفاؤها كان لغزا لم أفهم منه إلا شذرات، هربت كما هرب الزعماء إلى دمشق وكما هرب أمين إلى لبنان. أُمِّي هربت مثل الباقيين، هذا ما عرفت، أما التفاصيل وقصص الحب والحسيني وأُمِّي تحبه وتقبّل يديه وهو نائم، فهذا اختراع وإشاعة! هذا الرجل يسخر مني لأنّي تشدقت بالأسرار، هو يسخر فقط، كيف أصدقه؟ هو رجل غريب لا أعرفه.

33

لم أقرأ خالي، لم أجِد الوقت. كنت منشغلة بوجود الضيف وتنقلي المستمر بين داري ودار ياسمين. فمن ناحية، كنت أؤدي واجبات الضيافة وإكرام الضيف، ومن ناحية ثانية أواظب على أن أثبت لياسمين وأم ياسمين أنني بريئة من علاقة مريبة مع رجل غريب. هو رجل غريب لا أكثر. الماضي انتهى، ولّى ورحل، ونحن الآن بعد الألفين. كنا مراقبين وصرنا عجوزين على الحافة. عشنا الحب المراهق بضع سنوات ثم انقطعنا عدة عقود. خمسون سنة، ستون سنة، ربما أكثر. وطوال السنين كيف عشنا؟ ماذا فعلنا؟ ماذا أحبنا وكرهنا؟ كيف تبلورنا كإنسانين؟ رجل وامرأة، شخصيتين منفردتين، كل شخصية لها شكلها وملاحظها، عمقها، سطحها وزواياها؟ كيف أعرف أنه صادق؟ كيف أعرف أنه موثوق؟ كيف أعرف أنه أمين؟ كيف أعرف إن كان تقليديا ككل الرجال يخرج من عندي ويقول فعلت وقمت ونمت ويتبجح باقتحاماته؟ كيف أعرف أنه لن يطعنني في الظهر كما صداقات كثيرة فجعتني وطعنني في الظهر؟ كيف أعرف أنه لن يتصرف كما لو كنت في جيبه وملك يمينه لمجرد أن كانت لي معه قصة صغيرة تخلو من الشك؟ في ذاك الوقت ما كنا نشك، كنا صغارا. لكن الآن يملؤنا الشك، أو بالأحرى يملأني الشك. أما هو، فيبدو مرتاحا مع نفسه، يتصرف بعفوية تامة، كأنه في بيته وبين أهله. وأحيانا يتصرف كما لو كنت غير موجودة على الإطلاق!

يستيقظ صباحا في نفس الوقت، وينام أيضا في نفس الوقت. يأكل بحساب ويركز على أكل الخضار والفواكه، ويلعب تمارين

رياضية، ويمشي بسرعة حول ساحة الدار كما لو كان يتدرب لمعركة الغد، ثم يجلس مع الأوراق والقصائد والمقالات، ويرتب الصور حسب الأزمنة والتواريخ ويسألني بعد أن يضع قائمة طويلة من الأسئلة: هذه الصورة أخذت سنة كم؟ وهذه اللوحة رسمتها في سنة كم؟ وهل صحيح أنك كنت تشعرين أن أمك وداد هي أختك؟ وهل صحيح أنك كنت تنادينها باسمها وداد؟ وهل صحيح أن وداد كانت نائمة على العائلة وعلى ستك وعلى وحيد؟

بدأ يتدخل فيما لا يعنيه! يسأل أسئلة لا أسأله، أخاف منها، أو ربما اعتدت عليها واعتبرتها طوال حياتي شيئاً طبيعياً مفروغاً منه. كما انه يتصرف كما لو كان مدير مطبعة أو ناشر كتب ويستعد لنشر كتاب أو وثيقة. وهذا أخافني. ما يدريني ماذا سيقول في ذاك الكتاب؟ أو ما ينشره في ذاك الكتاب؟ أو ما يدع الآخرين ينشرون في ذاك الكتاب؟

يقول إن أمي أحبت الحسيني حبا جارفاً أفقدها العقل. وأن خالي أمين أحب ليزا حبا أحق لدرجة أنه انخرط في الزوبعة من أجلها ولحق بها حتى لبنان. فهل سيذكر تلك الأسرار في ذاك الكتاب؟ هل ينشر قصة أمي وحبها المراهق للحسيني ويجعل من القصة سرا مفضوحا للعيان؟ هل يشوه سيرتها بأن يلبسها قصه غرامية مختلقة برجل متزوج وله أولاد؟ لكن بالأساس، هل كانت أمي تحب الحسيني؟ وهذا الرجل ليس أي رجل، كان بطلا، كان نجما، وكان مفصلا تاريخيا اقترن استشهاده بضياح القدس بعد القسطل، وبعد القسطل ضياح فلسطين. ماذا سيفعل بتلك الأسرار؟

لكنه كان يتصرف كما لو كانت تلك الأسرار أسراراً، وهؤلاء الناس هم أهله، وذاك التاريخ تاريخه. وأحيانا يقرأ فقرة عن هذا أو ذاك ويقول بصوت مشحون متأجج: اسمعي يا نضال، اسمعي هذا.

ويبدأ بالقراءة وأنا أسمع. أكون أفرم الخضار أو أرتب المطبخ أو أكوي الملابس وهو يتبعني من مكان لمكان وييده ورقة أو مقالا قديما كتبه خالي للنشر ولم ينشره، وربما نشره ولم أقرأه، كنت صغيرة.

يقف خلفي أو فوق رأسي أو أمامي ويقول اسمعي هذه، اسمعي، اسمعي. أليس عظيما؟ أليس جميلا؟ أليس مذهلا كيف كنا في ذاك الوقت؟ هذا تاريخ! هذه تجارب ووثائق! اسمعي هذه!

في البداية كنت أغتاض من أسئلته، وكنت أغار على أهلي من حشريته واهتمامه، وأحسّ بالأسى على خالي الكبير لأن هذا الرجل، أو ذاك الشاب، الولد- الشاب، نسي خالي وتنكر له حين التحقق بالحسيني وجعله مرشده وقائده بدل خالي. المقارنة المجحفة بين خالي والحسيني جعلتني أغار على خالي، جعلتني أخاف. فماذا لو كتب عن خالي أنه كان مهزوما ومأزوما أو كان رخوا أو متزمتا أو محدودا؟ ماذا لو كتب أن الحسيني كان شعلة بعكس خالي البسيط الساذج على باب الله؟ الحسيني كان متمردا على كل شيء، على العائلة واسم العائلة والمال والجاه وزعماء القدس، وخالي الكبير لم يتمرد. الحسيني كان متعلما وخالي الكبير شبه أمي. الحسيني درس وتغرب وشاف الدنيا، وخالي لم يرح مكانه ولم يتثقف، لم يخرج لأبعد من حيفا وحواري القدس، حتى لم يخرج من جلده، وظل الإيمان مرشده وظلت أمه الشخص الأهم في حياته. أما الحسيني فلم تكن له أم توجهه وتملي عليه خياراته. تيم وهو طفل صغير، وعاش منطلقا بدون أربطة تعيق تقدمه وإقدامه. نشأ عصاميا بالمعنى الفذ، عصامي العواطف والاتجاهات والاهتمامات والدوافع. كان متقدما في كل شيء، ولامعا في كل شيء، ربما لهذا سحر الولد، الولد - الشاب، كما سحر أمي وسحر الجميع. ربما بهر الاثنين، أمي وربيعة، فهل نسمي الانبهار غراما وعشقا أفقدها العقل؟ كيف أصدقه؟

بعد يومين على الإغلاق، وكنا محشورين في محيط الدار، حكى لي قصة التحاقه بالحسين وكيف اكتشف قصة أمي. قال إنه بعد أن ترك صانور ذهب لحيفا حتى يعمل في مصفاة البترول أو الميناء، وهناك رأى الإنجليز واليهود والعمال العرب ومدى الإذلال والاستغلال. رجع إلى صانور فأخبرته حسنا عن الحسيني والثورة. قالت الحسيني رجع إلى البلد وأرجع الثورة وأججها، صارت أقوى، صارت أنظم. ما عادت مجموعات متناثرة بلا تنسيق ولا تخطيط، صارت قوات عسكرية في جيش أسموه الجهاد المقدس، ونصحته أن يلتحق به.

ذهب إلى بيرزيت حيث أقام الحسيني رئاسة أركانه. أوقفه الجنود. كانوا جنودا بالكاكي ومعهم أسلحة وقنابل. منعه من الدخول. حققوا معه وفتشوه ثم أمهلوه حتى يسألوا عنه ويتأكدوا من معلوماته.

وقف في الخارج ورأى عدة مباني كما لو كانت عدة وزارات، وعلى كل واحدة لافتة تشير إلى الاختصاص ونوع الميدان. مبنى للإدارة، ومبنى لشؤون الموظفين، ومبنى للمخابرات، وثالث ورابع وخامس وسادس... يعني نظام، شبه حكومة، والحرس يحيطون بالمباني ولا يدعون أحدا يدخل إلا بعد تمحيص هويته أو قيامه بعمل رسمي. ظل واقفا تحت شجرة بانتظار التأكد من هويته ومعلوماته. وحين طال الانتظار جلس على حجر تحت الشجرة، وظل يراقب وهو مراقب. كان يعرف أنه مراقب، لكن الوضع أعجبه وأثلج صدره. أحس أن هناك قيادة قوية وتنظيم حقيقي وجيش دفاع ومخابرات، أي تركيبة تشبه ما يقوم به اليهود، مثل الوكالة اليهودية. وهذا يعني أن الثورة ما عادت جزافية وعشوائية وبلا نظام ولا انضباط. صارت مؤسسة رسمية. صارت جيشا وله قائد، وبشائر دولة وطنية.

ظل يراقب على بعد أمتار من مبنى القيادة. أخيراً سمع دربكة وطرق خطوات وسكيك سلاح وصيحة مدوية: "استعد"، فتحفز، ورأى القائد. كان بالكاكي والخطّة، وأحزمة الرصاص حول صدره. لم يتبين وجهه بسبب الخطّة ووقوفه يتحدث مع الحراس لكنه لاحظ أنه مربوع القامة ممتلئ الجسم. وحين التفت رأى وجهها وسيما لوّحت الشمس وشارباً عصرياً وبسمة مرحة لا تفارق شفّته، وعينين مشعتين لا تتوقفان عن الحركة. كان يحرك يديه وهو يحكي، وكل إشاراته ولفاتاته تدل على رجل دينامي متحرك.

بسرعة غريبة، وجد ربيع نفسه يقفز من مكانه ويقف على بعد متر من القائد ويؤدي السلام العسكري وهو يصرخ: "جاهز!" أشهر الحراس السلاح وسحبوا الأзнّة، فصاح ربيع: أنا من فصيل الشيخ قحطان، أنا مجاهد. رفع القائد يده، وهو يتسم ويتأمل الشاب بدهشة وحذر، وقال له: ما اسمك يا شاب؟ من أين جئت؟ لماذا جئت؟ وكيف وصلت؟ أخذ ربيع يعيد ما قاله للحراس فوضع القائد يده على كتفه، وقال بلطف: تعال معي. احك لي ما حلّ بكم.

ركب معه السيارة وأخذ يقص عليه ما كان وما صار وما وصلوا إليه. حكى عن أبو كمال والشيخ قحطان. حكى عن الجبال والمحاجر. حكى عن صانور وزواتا. وحكى عن والده وكيف التحق بالزبيق، وكيف انفرطت مجموعة الشيخ قحطان وأمثاله.

ربت القائد على كتفه، وقال يطمئنه: أنت معنا. فقال ربيع وهي يدمع: روعي فداك وفدى الثورة. قال القائد: كلنا الآن جيش واحد، لا عصابات ولا مجموعات ولا فوضى. قيادة واحدة وقائد واحد وقوات واحدة للدولة. تقسم؟ اقسم. وضع ربيع يده على صدره وحلف اليمين، فقال القائد: تبدأ تدريبك منذ الغد، لباس عسكري،

نظام عسكري، انضباط وأخلاق وشهادة. شهادة الناس وانضباطك. بدون أخلاق لن ننضبط، وبدون انضباط لن نتحرر. غدا تبدأ.

بدأ التدريب، تدريب على السلاح، تدريب على الانضباط، ودروس في الأخلاق والتأديب. كان الهدف تدريب الشباب على الانضباط وحسن الخلق. الناس نبذوا الثورة بسبب الفوضى والتشردم واستغلال السلاح للابتزاز والتسلط، وسرقات واغتيالات ومؤامرات ودسائس. هذا مرفوض، قال القائد، كله مرفوض وتحاكم عليه. تشدد في الضبط والرقابة. الكبار يراقبون الصغار والصغار يراقبون الكبار، وفي اجتماعات دورية تناقش الأخطاء والهفوات وتحاسب. الفر يحاسب ويحاكم مهما كان منصبه أو علاقته. لا مكان للمحسوبية، ولا امتيازات لأحد على أحد مهما كان أصله أو فضله أو حمولته وعشيرته. كلنا واحد، كلنا ثورة، ومشروع شهادة أو دولة.

ثم كان اليوم الذي خاض فيه الاشتباكات مع القائد. وفي كل اشتباك أو إعداد كمين أو انفجار كانوا يخرجون بانتصارات مدوية زادت من شعبية الحسيني والجهاد المقدس ورجاله وأنعشت الأمل بالاستقلال. استرد الناس معنوياتهم وصاروا يحلفون برأس الحسيني ورؤوس مجاهدي الجهاد المقدس. الإنجليز جنّ جنونهم، فرصدوا الألوف مقابل الحصول على الحسيني ورؤوس جيشه. لكن في يوم، غدر بهم مختار إحدى القرى وأعد لهم كميناً بالاتفاق مع الإنجليز. دعاهم للغذاء وبلغ عنهم. تأخر الغذاء حتى صلاة العصر وبدأوا يتململون والمختار يمهلهم ويمنيهم بأكلة شهية. وحين حضر الغذاء جسده القائد فوجده بارداً ففهم اللعبة وأمر رجاله بالانسحاب، لكن الطائرات وقوات الإنجليز كانت قد أحاطت بهم، وكانت معركة مباغته فاجأتهم. قتل الكثيرون وجرح الكثيرون وهرب ربيع مع

الهاربين، أما القائد فقد أصيب إصابة بالغة جعلته يتدحرج ويرتطم ببلوطة. أغصان البلوطة ظللته وحجبتة عن الأعين. وحين جاء قائد الحملة الانجليزي يركل الموتى بقدمه بحثا عن الحسيني وقواده، وجد ضابطا برتبة رفيعة ظنه الحسيني فهرع إلى قواته يبشر بالنصر. في المساء جاء أهل القرية وجمعوا القتلى ودفنوهم، وظل الحسيني تحت البلوطة مهملا منسيا طوال الليل. وفي الصباح مر به بدوي سمع أنينه فأركبه على ناقته دون أن يعرف هويته وذهب به إلى طبيب عربي وممرضته. الممرضة كانت وداد القحطان، وهذه الوداد وقفت على خدمته واعتنت به وسهرت عليه. وهكذا ابتدأت قصة وداد القحطان والحسيني، أو قصة وداد والقائد، أو قصة الحب المزعومة بين بطل نجم، وامرأة نكرة منسية لم تذق الحب ولم تعرف إلا الإخفاق فانبهرت، ثم أحبته، ثم تبعته، ثم فقدته فاختلّت وهربت للشام.

هذا ما قال في ذاك المساء، وأنا استمعت لكل القصص والأحداث واندججت بالرواية وتأثرت، ولم أعرف هل كان تأثري على القائد البطل أم على أمي المحبطة المنسية أم على الولد - الشاب الذي بدأ حياته مناضلا عاشقا مؤمنا ثم مع الوقت، فقد هويته وإيانه وبات رجلا غريبا بسكسوكة، يعمل بالويندوز والكمبيوتر ويعيش بعيدا عن هذا الجو!

34

انتظرت أن يحدثني عن أمي وقصة حبها المزعومة للقائد
البطل، وكيف اكتشف تلك القصة، وأين ومتى فاجأها وهي تقبل يده
وهو نائم؟ لكنه لم يفعل. ففي كل يوم أعود إليه أجده بمزاج مختلف
عن اليوم السابق. يوم أجده نشيطا مبتهجا مليئا بالأمل والتفاؤل، ويوم
أجده عابسا متورم العينين من أثر القلق وعدم التمكن من النوم حتى
طلوع الفجر أو حتى الضحى. يوم يقول وهو مشرق الوجه يأكل بنهم
وشهية أننا سطرنا في التاريخ أروع أمثلة للتضحية والبطولة، ويوم
يقول وهو عابس الوجه وبنفس مسدودة عن الأكل يدخن السجارة
من الأخرى أننا كنا أسوأ الشعوب ولا نستحق إلا هذا... ويشير بيديه
حواليه كما لو كان يعني الاحتلال والحصار والكوارث. وحين زاد
الحصار وتالت أيام الإغلاق وصرنا نخاف على الأكل أن ينضب،
قال بتهكم أدهشني: هل تعلمين أننا في يوم ما حاصرناهم؟ حاصرنا
مئة ألف يهودي في مستعمرات حول القدس. حاصرناهم حتى كادوا
أن يموتوا من الجوع والعطش والخوف. حاصرناهم. في ذاك الوقت
حاصرناهم. قطعنا عنهم الماء والكهرباء والإمدادات والتموين
والقوافل. نحن فعلا حاصرناهم.

لم أصدقه فأخذ يصف لي كيف فجروا أنابيب الماء ولغموا
محطات الكهرباء وهاجموا قوافل التموين والإمدادات ودمروها
وحرقوها في باب الواد. باب الواد هو الطريق الرئيسية بين القدس وتل
أبيب محاط بقرى عربية في المرتفعات. عشرات القرى مثل القسطل
ودير ياسين والعيزرية والعيسوية واللطرون وأخرى، وأخرى. كانوا

يترصدون للقوافل في تلك القرى وأعلى الجبال وينسفون مصفحة أو اثنتين في المقدمة، فتتعطل مسيرة القافلة. حينئذ يهجمون على اليهود والإنجليز من كل حذب وصوب ويفتكون بهم، فيتطايرون مثل العصافير تاركين وراءهم المصفحات والقتلى والإمدادات.

ويواصل حديثه وهو ساهم مقطب الجبين ثم تنشرح أساريره، ويستغرق في الكلام حتى ينسى ما بدأه وينسى سؤاله الأساسي عن أمي وداد وعن القائد. أحيانا أظن أنه يعاني بداية الخرف، وأحيانا أظن أنه بسبب الحصار الجسدي بات محاصر الرأس والمشاعر. أسأله عن أمي فيبدأ بالحديث عن المستشفى والجمعية وليزا وأمين والحركة النسائية والقومية، وإذا به ينتقل إلى القائد وما فعل القائد وسوى القائد حتى بت أشك أنه هو المغرم بالقائد لا أمي.

أغلي له القهوة أو أفتح الراديو أو أقدم له طبقا جديدا من البيض حتى نشعر أننا نمر بيوم جديد وحدث جديد. بيض عوينات أو بيض بالجن أو بيض بالبصل والبقدونس أو بيض بالبصل والبندورة. يتأمل البيض بالبندورة، ويقول: هذا يذكرني يوم أكلناه بقرية كذا في الجبل الفلاني يوم كذا. والبيض بالبصل والبطاطا أكلناه في قرية كذا بعد معركة كذا في يوم كذا. ثم ينتقل إلى البيض عند اليهود أثناء الحصار، فيقول فجأة: في حصار المستعمرات صار سعر البيضة عندهم ب 3 قروش وفي قرانا كان البيض بسعر البلاش. ثم ينتقل إلى الرصاص وسعر الرصاص. يقول الرصاصة في ذلك الوقت كانت بسعر البيضة عند اليهود، أي ب 3 قروش. لدينا الرصاصة ب 3 قروش ولديهم البيضة ب 3 قروش، والقرش كان في ذلك الوقت يعني دينار في هذا اليوم، يعني البيضة ب 3 دنانير، والرصاصة أيضا ب 3 دنانير. ويحدق في وجهي، ويسألني مثل المجنون: أيها كان الأهم بيضة واحدة ب 3

دنانير أم رصاصة ب 3 دنانير؟ ولا أجيب لأنني أحتار، فعلاً أحتار. فلو كان لدينا رصاص بدل البيض في ذاك الوقت هل كنا نعيش في هذا الحصار؟ وهل هذا الحصار يختلف كثيراً عن ذاك الحصار؟ وهل سنظل في هذا الحصار حتى نقوى عليهم ونحاصرهم؟ وإن حاصرناهم ما يدرينا إن كانوا سيقبضوا علينا ثانية ونعود من جديد إلى هذا الحصار؟ يعني الحصار مثل اليويو، لعبة أطفال، لكنها لعبة مميتة، وهل نزل مثل الأطفال؟

يعود ثانية للتخريف، فيقول ساهما: أذاقونا الويل أولاد الحرام، ونحن أيضاً جنتناهم. بلا مال ولا سلاح جنتناهم، فكيف لو كان لدينا سلاح مثل البيض؟ ما نفع البيض من غير سلاح؟ ما نفع السلاح بلا سلاحك؟ ما نفع الرشاش بلا سلاحك؟ السلاحك يعني ذخيرة وأحزمة رصاص. كان القائد دوماً بسلاح وسلاحك. كان لديه رشاش برن سريع الطلقات، لكن أحياناً بلا طلقات. ورغم ذلك كان القائد أخطر واحد بصنع الألغام. في كل بيت انتقلنا إليه كان يقيم مختبر كيمياء يجري فيه تجارب مهولة على المتفجرات وصنع الألغام. أخذ دورات في ألمانيا قبل رجوعه وعلمنا صنع الألغام.

أسأله بفضول:

- يعني أنت تجيد صنع الألغام؟
يحدجني بتوجس لأنه يظن أنني أسخر من أقواله، فيقول بغلظة:

- أنا أجيد صنع الألغام؟ في هذا العمر، في هذا الزمن، أنا أجيد صنع الألغام؟ اليوم الألغام بالكمبيوتر، بالريموت كنترول.
أقول بلطف حتى لا يهيب في وجهي كرشاش الماء:
- وأنت تجيد الكمبيوتر.

يقول بغيط:

- أنا أجد الكمبيوتر؟ أنا أأاجر بالكمبيوتر. أولادي يجيدون الكمبيوتر. أنا تعلمت الكمبيوتر على كبر، أهجىء تهجئة بالكمبيوتر. الكمبيوتر لهذا الجيل، لجيل الصغار، للشباب الصغير صاحب ياسمين. هذا أسأليه عن الكمبيوتر فيخرج كرجا عن ظهر قلب كما كنا نجيد صنع الألغام. علمنا القائد في ذاك الوقت، لكن الآن ماذا نعرف؟ لا نعرف شيئاً في الدنيا، كله استيراد، كله من أميركا وأوروبا ثم من الصين. اليوم الصين ستبلعنا، ستبلع أميركا وأوروبا، وتبلع الدنيا وما فيها.

- وتبلعنا نحن.

- فلتبلعنا، نحن بطبيعتنا مبلوعين، فلتبلعنا مقابل أن تبلعهم ونشمت بهم.

- وتبلع كندا؟

- كندا، كندا، مالك وماها. كندا جميلة. أنا في كندا كنت مثل الملك. كندا والله مثل الجنة.

- لكن كندا ليست معنا.

- ومن هو معنا؟ قولي يا ست، من هو معنا؟

لا أجيبه، وأشعر بالحزن.

في اليوم التالي أعاد علي قصة ما حدث يوم جرح القائد في معركة بني نعيم. أعاد القصة 3 مرات، وفي كل مرة يضيف شيئاً جديداً كان قد نسيه أو قفزت عنه ذاكرته.

أقول أذكره:

- لكنك ذكرت هذا قبل يومين، ألا تذكر؟

يتسم بحسرة، ويهز رأسه معتذراً:

- العمر، العمر، لعنة الله على هذا العمر. في هذا العمر نسي

الأسماء والأرقام والوجوه وحتى القصص. لكن القصص القديمة تبقى معنا، والأسماء القديمة تبقى معنا، وحتى التاريخ. هل حكيت لك ما حدث في معركة بيت هتكفا؟

ولا ينتظر الإجابة، ويبدأ بالقص من البداية حتى النهاية. كيف سحبه القائد من كتفه وزاحه خلف الصخرة، وصرخ فيه: أنت مجنون!

وينظر من خلف النظارة الدبل فوكال نظرة طويلة، فأرى عينيه الخضراوين الباهتتين المعكورتين منقسمتين كما وجهه. عيناه منقسمتان بالدبل فوكال ووجهه منقسم بالسكسوكة، وعقله منقسم بين الماضي والحاضر في هذا الحصار وذاك التاريخ.

تقول باسمين بأسف وحزن:

- كان ما أحلاه! ماذا جرى له؟

ولا أجيب، لكنني في قلبي أتذكر ما كان ربيع، فأشعر بالحزن. وحتى أسليه وأخفف عنه أقول له:

- أحكي لك قصة إبريق الزيت؟

يحدجني بغیظ ويقول باسم:

- يعني قصدك أني خرّفت؟

أضحك وأقول:

- وأنا مثلك. لكن، إن أنت خرّفت أو ما خرّفت، أحكي لك

ما حدث لإبريق الزيت؟

يسكت ولا يجيب، فأقول مغیظة:

- إن أنت أجبت أو لم تجب، أحكي لك ما حدث لإبريق

الزيت؟

هذه المرة يضحك ويقول متهكما:

- ما حدث لنا!

أعيد ثانية حتى أفرط روحه كما يفرط روحي بذاكرته:

- ما حدث لنا أو لم يحدث، أحكي لك ما حدث لإبريق

الزيت؟

يفز عن كرسي المطبخ، ويقول ضاحكا:

- حلي عني، ناقصني حصار؟!

ويعود ليقراً مذكرات خالي أمين ليغطس أكثر في ذاكرته،

وأنا أعود لأتفقد ما بقي لنا من لحم وخضار في الفريزر وأذهب لغرفة

الخزين لأتأكد من العدس والفول والفاصوليا، فول يابس، وفاصوليا

ناشفة ولوييا ناشفة وخبز يابس أحتفظ به للطوارئ، وأقول غدا

أطبخ فاصوليا بالزيت والبصل والبندورة، يعني صومي، حتى أوفر

ما في الفريزر، وبعده نأكل معكرونة بالجبن، ثم مفركة بيض بالبطاطا

والبسطرمة، ثم العدس لازمة الأكل في هذا الحصار، كما كلمات ماجدة

الرومي، وكما قصة إبريق الزيت.

35

أعاد علي قصة المختبرات وكيف نسفوا الوكالة اليهودية
وشارع بن يهوذا بمتفجرات صنعها القائد بمختبره، وكيف جاء
سماسرة السلاح ليشتروا منه المعادلة الكيميائية للمتفجرات. المتفجرات
التي صنعها القائد في مختبره كانت أقوى من العادة بعشر مرات. أرادوا
معرفة ما فعل بها حتى تصبح أقوى من العادة بعشر مرات. لكن القائد
سخر منهم، وقال هازئا: أنا لا أبيع أسراري! هذه معادلتني وأسراري.
ونظر إلي، وقال مستفزا:

- يعني مثلك.

- مثلي أنا؟

- أنت لا تفشين أسرارك، وهو لم يفش أسرار.

تذكرت ما قلته عن أسراري فابتسمت بكبرياء وتواضع.
كبرياء، لأنّه يشبهني بالقائد، وتواضع، لأنّي أعرف ما أنا وما هو
وزني وما تزنه أسراري في هذا الوقت. أسرار القائد كانت متفجرات
في مختبرات ومعارك كانت تهز الدنيا، أقصد هزت، وأنا كلمات مثل
كلمات ماجدة الرومي ونزار قباني ومحمود درويش، مجرد كلمات. وهذه
الكلمات في النهاية، مجرد كلمات. أي أن الغناء والموسيقى وحتى الألوان
لا تحمل لنا إلا كلمات. فما قيمة الكلمات إذا قيسَت بالتفجيرات؟

قال بجديّة مفاجئة لم أتوقعها:

- أنا برأيي أن الكلمات هي تفجيرات.

سألته مواربة:

- هذا رأيك؟

قال باقتناع بدا لحظتها كما لو كان لا يتزحزح:
 - لو لم تكن الكلمات كالتفجيرات، لماذا إذن كتبنا البيانات
 والمنشورات؟ لماذا نشرنا الجريدة وخالك أمين كتب المقالات؟
 قلت بحسرة:

- وماذا بقي من المقالات والمنشورات؟

- بقي هذا!

وهز أوراق خالي أمين بيده اليمنى:

- هذا تاريخ.

- تاريخ من؟

- تاريخنا نحن.

سألت بأسى:

- وهل نحن نحن؟

حذق في وجهي يستطلعني، فقلت بحسرة:

- هل أنت ربيع هو ذاك الربيع؟ وهل أنا نضال هي تلك
 النضال؟ وهل أبو كمال هو هذا الكمال؟ وهل ذاك القائد هذا القائد؟
 وحتى وداد، هل كانت وداد هي حقا وداد أم تتخيل؟ تقول إنها أحببت
 القائد حبا أفقدها العقل، فكيف عرفت، أو أين قرأت؟ أنا قرأت ولم
 أجد ما أشرت إليه، فهل رأيت؟ ماذا رأيت؟ قلت إنك رأيتها تقبل
 يديه وهو نائم، وقلت إنها قبلت يديه وهو مغمى عليه، فهل أنت
 واثق مما رأيت؟ وحتى لو قبلت يديه وهو نائم أو مغمى عليه، فهل
 هذا دليل على أنها أحبه وعشقه وماتت عليه؟ ألا يكون تقبيلها ليديه
 اعترافا ببطولته وتضحيته؟ ألا يكون احتفاء برجولته ونخوته؟ ألا
 يكون امتنانا لما قدمت يداه من إبداعات وتفجيرات؟ تقول إنه كان
 مبدعا في اختراعاته، وأنه كان شجاعا ومتهورا في اندفاعاته. أعطى كل

شيء حتى روحه، نسي زوجته وأولاده، ونسي أمجاد عائلته وعاش في الكهوف والمحاجر، ألا يستحق تقبيل اليدين؟ لو كنت مكانها لقبّلت يديه.

قال بحرارة مدافعا عن رؤيته ووجهة نظره:

- لكنها قبّلت يديه وهو نائم!
- وماذا لو قبّلت يديه وهو نائم؟ رجل أعطى كل ذلك العطاء،
ألا يستحق تقبيل اليدين؟
- ولماذا تقبّل يديه وهو نائم؟
- لأنّه جريح ومغمى عليه، لأنّه بطل، لأنّه رجل، لأنّه لها في ذلك الوقت كما كان لنا عبد الناصر.
- ولو عاد الآن عبد الناصر تقبلين يديه؟
- في ذلك الوقت طبعاً أفعل، لكن الآن في هذا الحصار، أنا أحاسب.

- وأنا يا نضال؟
- أنت ماذا؟
- في ذلك الوقت؟
- في ذلك الوقت ربما أنا كنت مثل وداد، أو أن وداد كانت مثلي، ما يدريني؟

- يعني أحبته كما أحببتني؟
- أو أنني أحببتك كما أحبته، يعني البطل وعبد الناصر. لكن حقاً، هل أحبته؟ ولو لم تكن أنت ذلك الربيع، ولو كان ربيع غير ذلك الربيع، هل أحبته؟

- ما هذا الغموض؟ عدنا لغموضك وأسرارك؟
رفعت الراديو فارتفع صوت ماجدة الرومي، فقلت له وأنا

أصغي:
- اسمع، اسمع، لم يبق لها إلا كلمات.

36

جاءت ياسمين لزيارتنا ومعها طبق فريكة بالفول وزبدية لبن.
لم تكن فريكة حقيقية، لأنّ الفول كان يابساً وليس أخضر. نقعته بالماء
حتى نفس وأصبح قابلاً للطبخ كالفول الأخضر، لكن قشرته قاسية.
طبخته مع الفريكة وزادت كمية الكزبرة والثوم حتى تموه لون الفول
وتمنح الطبخة لونا أخضر. ومع طبق الفريكة أحضرت زبدية لبن،
قالت بأنها رويته من حليب نيدو.

- حليب نيدو!

صاح هو بصوت أبح من أثر السعال ورشح ثقیل نزل على
حلقة وزلا عيمه. وقرب الزبدية من نظارته وأخذ يتفحص وجه اللبن
كما لو كان يقرأ منشورا أو وثيقة وتسائل بامتعاظ واستهجان:

- حليب نيدو! لا حول ولا! هذا اللبن من حليب نيدو؟
حتى في كندا لم أروى اللبن من حليب نيدو.

سألته ياسمين:

- أنت تروى اللبن؟

نظر إلي وقال بحسرة:

- قولي لها حتى تعرف.

وكان يقصد أن أقول لها عن لبن سته أم نايف ولبن أمه، ولبن
النساء القرويات أيام زمان. لكن الآن صار اللبن بعلب بلاستيك من
شركات عربية وأجنبية سرقت الصنعة ولم تفلح، فبات اللبن بلا هوية،
لا كثافة، ولا حموضة، ولا يذوب مثل الزبدة.

مد إصبعه وغرف من اللبن قدر ملعقة صغيرة وحقن مكان

غرفة إصبعه حتى يرى مدى تماسك القوام وهل سينز ماء متخثرا يشي بصنعتة وضموره. ثم قرب إصبعه من عينيه ومن أنفه وشم اللبن وهو يدعكه بين سبابته وإبهامه كما لو كان يختبره. وبعد أن شمه 3 شمات ودعكه بين أصابعه 3 دعكات تذوقه بحذر وجدية كما لو كان ينصت لنغمة غريبة، أو يتذوق أكلة غريبة، أو طعاما باثنا يختبر مدى صلاحيته، أو صلصة هندية تحتوي قدرا بليغا من الشطة ويخاف من حرقتها وحرقتها إذا جازف وبالغ بالأكل. فعل كل ذلك وقد ارتسمت على وجهه سيماء الجد والأهمية، وبدا وجهه أكبر بكثير مما تخيلت. بدا كما لو كان كبر فجأة، أو ربما عاد لسنه، سنه الحقيقي لا المفبرك، وحتى أسنانه الأمامية التي أذهلتني في أول يوم بدت صناعية كالضبة، وهي بالفعل كانت ضبة، لكنها ضبة محترمة تبدو متماسكة طبيعية، لكن مع الوقت، والاقتراب منه، والعطاس المستمر والسخونة، والذكريات المتفجرة واختناق الحصار، تزعزعت أركان الضبة وكشفت الواقع والحقيقة. والواقع أن أسنانه العلوية كما جسوري، لكن جسوري ثابتة لا تتزعزع، أما ضبته فتتزعزع. وها هي تصدر طقطقة مكتومة مع كل لحسة وتمطق. قلت لنفسي وأنا أشاهده يفعل ما يفعله المسنون مثل جدي قبل وفاته: يا الله! هل كنت أعرف في ذاك الوقت أن هكذا سيكون ربيع؟ وحتى أنا، هل كنت أعرف أنني سأكون أنا في هذا الوقت؟ وهل كنا نعرف ونحن صغار أن ما نراه هو الواقع؟ وما هو الواقع في الواقع؟ هل ما كنا أم ما صرنا؟ وهل ما كنا نراه هو الواقع أم جزءا منه؟ وهل جزء منه أم وجه منه؟ ما يدريني؟

حدجته ياسمين بنظرة مستاءة وغضب مكتوم، وسألني

وهي تقرب فمها من أذني:

- قليل الذوق، يفعل هذا أمام عيني ولا يخجل! على الأقل

ينتظر حتى أقفي، ويفعل ذلك خلف ظهري.

انتبه هو، فابتسم معتذرا وحنى رأسه حتى كتفه كما لو كان يطلب السماح أو المذدرة، وقال لي حتى يشهدني على حسن نواياه وصدقه:

- قولي لها عن لبن ستي. قولي لها عن اللبن الحقيقي والأصلي، لبن الغنم ولبن الماعز، قولي لها.

ولم ينتظر حتى أقول لها، إذ أمسك بيدها وسحبها نحو كراسي البامبو تحت الخشخاش، وهو ما زال ممسكا بزبدية اللبن، وقال لها وهو يضع زبدية اللبن على طاولة الوسط أمامه:

- تعالي أخبرك عن اللبن كيف يصنع. اللبن الحقيقي المعتبر، اللبن المدخن ورائحة الغنم والعشب تفوح منه وكل لحسة منه تصل لرأسك. لبن يذوب مثل الزبدة. لبن، لبن، ولا أي لبن في العالم كلبن عصيرة. هل تعرفين لبن عصيرة؟ هل تعرفين أين عصيرة؟

نظرت إلي ياسمين وعلى وجهها نظرة حائرة كما لو كانت تسألني: هل هو مجنون أم ماذا؟ ابتسمت أنا لأنني أعرف أن المسكين يعاني احتقاناً في حلقه، ويعاني قلة النوم والسخونة، ويعاني ارتداد ذاكرته لزمن ولّى كان بعيداً وكان مثيراً وعاد إليه في زمن الحصار والتحصّر، ثم الاختناق من هذا الحصار، والمقارنة الغريبة بين هذا الحصار وذاك الحصار. ذاك الحصار وما كان هناك، وهذا الحصار وما هو كائن، ونشرة أخبار طريق المحبة في الراديو تحذرنا من حاجز جديد وانسداد الطرق.

قالت ياسمين بتأفف:

- يعني الحصار ما زال هنا!

سأل ياسمين وهو يحملق:

-
- هل تعرفين أننا نحن في يوم ما حاصرناهم؟
سألته بدهشة:
- حاصرناهم؟ من هم؟ اليهود؟
قال بحماس:
- كنا بلا سلاح وحاصرناهم. كنا بلا مال وحاصرناهم. كنا بلا جيوش ولا ذخيرة، لكن فعلا حاصرناهم. هل تعرفين ذاك التاريخ أم لا تعرفين؟
- قالت ببسمة معذرة:
- أنا كنت في الشام.
قلت أُنْبَهَ:
- هي بنت الشام وصغيرة، أصغر منا بعشرين سنة وربما أكثر. هزت ياسمين رأسها مصادقة باعتذار، وربما موافقة باستحسان:
- أنا صغيرة. كنت صغيرة.
قال محتجا:
- حتى ولو كنت صغيرة، هذا تاريخ، تاريخك. وحتى الشام، ألا تعرفين أن الشام كانت السبب في مقتلنا، قتلت الحسيني وسعادة.
قلت أهدئه:
- وما ذنب الشام؟ زعماء القدس كانوا في الشام، ما ذنب الشام؟
- قال محتدا:
- بل ذنب الشام.
التفتت ياسمين إلي، وسألته بدهشة:
- الشام قتلت؟ هو يقصد من؟

صاح بها:

- قتلت الحسيني يا حبيتي.

التفتت إلي وسألتني كما لو كانت تشهدني:

- أنا حبيته؟ !

أشرت إليها إشارة خفية أن تغض النظر، لكن اللعين لاحظها والتفت بوجهه لجهة أخرى حتى يخفي ضيقه مني، لأني لا أجاريه في شطحاته وبالذات عما يدعيه عن أمني وقصتها المزعومة مع القائد، وأيضا ما يدعيه عن هذا الحصار. هو يقول أن هذا الحصار ما كان ليكون لو كان لنا مثل القائد، قائده هو في ذاك الزمن، زمن الأبطال. هو يقول أن القائد هو الأساس، وأنا أقول إن القائد، حتى لو كان يسوع المسيح عليه السلام، ما كان ليقيم الموتى من هذا النعش، من هذا التلف، من هذا الخراب، ما كان ليتمكن من درء الموت عن الموتى في زمن النحس.

قال بصوت خفيض ونبرة جدية رصينة حتى يثبت أنه ليس ساخنا وأن السخونة لم تؤثر على رأسه وعلى قواه العقلية، وحتى يثبت لجارتي ياسمين التي لا تعرف اللبن التقليدي من الأصلي، ولا تعرف نابلس من عصيرة، ولا تعرف أن الشام هي من قتلتها:

- الشام يا سيدتي في ذاك الوقت كانت الأم والحظيرة. كل

الوفود كانت هناك، والمفتي هناك، وحتى الجامعة العربية.

مازحته ياسمين كي يهدأ:

- يعني اللفات والمكانس؟

- أي مكانس؟

- يعني اللحى والسكسوكات؟

مد يده بتلقائية وأمسك بسكسوكته كي يخفيها أو يدرأ عنها

تهمة اللغات والمكانس، وقال بجدية أستاذ رصين:

- رحنا للجامعة العربية نطلب الدعم.

فزت عن الكرسي وسألت ببرود:

- ودعموكم؟

ولم تنتظر جوابا بل التفتت إلي وسألتنى:

- تعطيني الصحن وهو فاضي أو وهو مليان؟ والزبدية.

والتفتت إليه وإلى الزبدية أمامه، وقالت بمرح:

- زبدية لبن، لبن نيدو، وفريكة بالفول، فول منشّف، وكزبرة

مفرّزة بالفريزر، والثومة مستوردة من الصين. هذا الموجود. هذا

الحاضر. آخذ الصحن وهو مليان والآ فاضي؟

ابتسمت، وقلت:

- طبعا فاضي، هذا الموجود.

37

عدت صباحا ووجدت ملابسه منشورة على حبل غسيل.
كان قد شغلّ الغسالة الجديدة وغسل ملابسه كلها، من فوق لتحت،
ولبس بدلا منها روبي الحمام، وجلس في الشمس وهو يرتجف من البرد.
كان ما زال يعاني الرشح وسعالا حادا يؤرقه فوق أرقه. لكن العرق
والسخونة وتمادي الحصار جعلوه يهتّب من الفراش مع الصباح ويغسل
ملابسه كلها، من فوق لتحت.

أنّبه تأنيبا شديدا، وقلت له إن الأوضاع لا تسمح أن نمرض
وأن نتقل للمستشفى. ماذا لو أصيب بنيمونيا؟ ماذا لو أصيب بالتهاب
حاد في القصبات؟ ماذا لو طرحته السخونة وبات يهلوس أكثر من الآن
ويخرّف؟ هل نسيت أننا في هذا العمر نصبح عرضة لكل الأمراض؟
ألا تعرف أننا نصبح كالصيغان في بيض الخداج؟ ألا تعرف أننا في هذا
الخريف كورق الخريف؟ ألا تعرف أننا في هذا الحصار نفتقر للدواء
والماء والهواء؟ ألا تعرف أن أي طبيب لن يجازف بالخروج من بيته
لزيارة أي مريض لأن الشوارع والزرايب والحواجز وجنود الصواعق
والصواريخ مرشوشون على وجه البلد مثل الحصبة؟ ألا تعرف أن
الانفجار جرح مستوطنا فجرحوا العشرات؟ يعني المستشفى يا
صديقي مليئة بالشباب والصبايا ولا متسع فيها لعجوز مثلي أو مثلك؟
جن جنونه لأنّي قلت إنه عجوز، ولأنّي قلت يا صديقي. فتح
عينيه الحمراوين وبدا الأخضر ليس بأخضر، بل رماديا باهتا كلون
الغبار، والبياض معكورا ومحمرا، وقال إنه ليس عجوزا وليس صديقا.
- ما أنت إذن، ألسنت صديقي؟

حلق في وجهي، فرأيت عينيه دامتين بدموع الرشع وأنفه
أحمر، وشعره منكوش مثل الريش فوق رأسه، وقال ببطء:
- أنا حبيبك.
- نعم؟ !

صرخت في وجهه ثم حزنت لأنني أحسست أنه مريض
ويهلوس. السخونة ضربت رأسه وبات يهذي. هي السخونة وذاكرته
وأجواء الدار. ألم تفعل بي أجواء الدار ما فعلته به؟ كل اللوحات
والأوراق والمقالات والجرائد سحبته هناك، إلى التاريخ، وها هو الآن
يعيش التاريخ بذاكرته ويرتد للخلف ستين سنة، أي قبل خروجه من
بلده، أي قبل قيام دولتهم، أي قبل سقوط حضارتنا، أي قبل الخريف
وهذا الخريف.

سحبته من كفه، فاستجاب كطفل صغير، وأخذته فوراً إلى
غرفته، غرفة خالي، وأدخلته السرير وغطيته، وهربت للمطبخ حتى
أجد ما يسعفني، أسبرين، بندول، كولدكس، أو أي شيء يساعده على
تخدي الرشع والسخونة. رأسه ملتهب وجسمه يرتعش كصوص
صغير. أحسست بإحساس أم مضطربة ملهوفة، ضربني الخوف
والحزن والشجن. لم أكن أتوقع ما قاله، لكنه حين قاله، اخترق شيئاً في
قلبي وجعله يسيل. بعد هذا العمر، في هذا الوقت، في هذا الحصار هو
حبيبي؟! هناك حبيب في هذا الوقت؟ هناك صديق في هذا الوقت؟
أهناك أهل أو إسعاف؟ أهناك دعم؟ أهناك جامعة عربية؟ وضربتني
كلماته "من معنا؟" وقلت لنفسي لا أحد معي إلا نفسي. وهو إن شئت
أم أبيت، جزء من نفسي وذاكرتي وهذا التاريخ والواقع ورفيق الحصار.
وبالنسبة له، لا أحد معه في هذا الجو إلا أنا فأنا الأقرب، وهو ضيفي،
وأنا المسؤولة عن ضيفي. وهذا الضيف والحق يقال ما كان ثقيلاً

ممجوجا، كان لطيفا، وكان ظريفا، ومسليا إلى أبعد حد. ورغم اختلافنا في الأفكار والتحليلات، إلا أنه ضيف خفيف ومهذب وهو حضاري. يساعديني في المطبخ، يغسل الأطباق، يحكي القصص والذكريات، ويقرأ لي فقرات من مذكرات خالي أمين ومقالاته. يلحق بي أينما أذهب، من مكان إلى مكان، يشذب معي شجر الخشخاش والياسمين، يسقي الريحان، يغلي القهوة وبعد الصبحون حين نأكل ولا يبقى شيئا من خلفه، بعكس زوجي وأصدقائي وكل الرجال في عائلتي. هؤلاء كانوا يتركون المنافض لأفرغها، والأطباق لأغسلها، وأواني المطبخ والحمام وورق التواليت وحتى الكلسات والكلسونات مع أن الواحد كالمارد ولن ينقص يدا أو رجلا إذا تحرك وقام ليعخدم حاجاته. لماذا علي أن أغسل له؟ لكن هذا يغسل له، ويغلي القهوة وبعد الشاي ويسليني. فماذا لو انه... لا لا يمكن، أنا هكذا سيدة نفسي، وهو ضيفي، وعلى الأكثر يبدو صديقي.

هرعت إليه بفنجان شاي بالبابونج وحبتي بندول وإبريق مليء بالليمونادة. لم أجد ليمونا ولا برتقالا ولا بندورة، فعصرت الخشخاش وحلبته ووضعت فيه ملعقة كبيرة من ماء الزهر، فصار بديعا، صار ليمونادة. وقلت له إشرّب، فشرب، ابلع، فبلع، اسمع فسمع. قلت له: - اسمع يا ربيع، لا أنت صغير ولا أنا صغيرة. لا تجعل مهمتنا صعبة. إن أنا ارتيمت فمن يقوم بك؟ من يقوم بنا؟ عليك أن تساعدني كي تشفى حتى لا أمرض أنا مثلك وتنتقل إلي عدوى رشحك. قال بلهجة طفل يعاتب أمه:

- لكنني لم أقبلك ولا قبلة حتى أعديك من رشحي!
- طيب اشرب، سأطبخ لك شوربة دجاج لأن الشوربة هي أحسن علاج.

قال متأففاً:

- تعامليني كما لو كنت طفلاً صغيراً وأنت أُمي.

- أُلست كذلك؟

لم يجب، وظل يمسك بفنجان الشاي يدفع يديه عليه ويتأمل. سرح بعيداً، أخذه الحال، أو ربما فعل البندول فعله السحري فهدأ هيجان أعصابه. الآن سينام، بندول الليل سيجعله ينام. لكنه لم ينم بل انطلق يحكي عن زوجته لأول مرة. أنا لم أسأله، هو استرسل. فتح سيرتها وتحدث عن تلك الحياة، أقصد كندا. طوال إقامته في الدار لم يتحدث إلا عنا، أقصد ماضيها وحاضرنا ومذكرات خالي أمين والحسيني وما حدث في الشام وفي لبنان وفي القسطل. أما حياته في كندا، وظروف هجرته إلى كندا فيمر بها على شكل عبور ولا يقف عند محطة. قال إنه حين هرب سعادة إلى دمشق وبدأ رجال الأمن اللبناني يعتقلون أعضاء الحزب، فر من فر، واختبأ من اختبأ، وهو لجأ إلى السفارة الكندية. كان قد تعرف على موظفة هناك كانت تزورهم في مقر الحزب وتحضر أنشطة ثقافية. كانت ناضجة، كبيرة في السن، ليس كثيراً، في الثلاثينات وهو ما زال في العشرينات. خباته في السفارة بضعة أيام ثم هربته إلى كندا. هربته وهربت معه وعاشا معا عدة أشهر ثم تزوجا وخلفا وعلمته الانجليزية والفرنسية وساعدته، وكانت له خير رفيقة. أولاده منها في الإمارات رجال كبار بيض وشقر ولهم أولاد. وهي، كاثرين، عاشت معه كل تلك السنين كما أمه، وها أنا الآن أعامله كما عاملته مع انه كان يحلم، كل تلك السنين، ويتساءل، لو انه عاد إلى صانور، لو أنه عاد إلى عصيره، لو انه عاد إلى زواتا، لو انه عاد إلى الماضي، هل يجد الحب؟ قلت له إننا كبرنا على هذا الكلام. لا أنا الصبية الصغيرة ذات اللميع وأشرطة الرأس ولا هو ربيع ابن عصيره. انتهى الوقت، صرنا

عجائز! فقامت قيامته من جديد واحتد بالنقاش ورغى وأزبد وحاول أن يقنعني بالعكس، أي أنه قوي ونافع وفعال ومجرب. ضحكت في عبي لأنّه يتحدث ككل الرجال، كرجل فعال ومجرب، وكأنّ الرجولة في دبره! غريب أمرهم، ألا يفكرون إلا بهذا؟ وأنا في الحقيقة والواقع كيف أفكر؟ أما زلت أحسّ؟ وهل أرغب؟

طردت الأفكار كما أطرّد ذبابة سخيّة وقلت لنفسي إن هذا الحصار هو المشكلة، مشكلة العمر، حصار الوقت، حصار المدينة والذاكرة، وأنا لا أعني إن كان الوقت هو العلة، أو كان الفراغ أو الذاكرة وحتى الألوان، أو ما توحيه أجواء الدار.

ونظرت حوالي وهو يغفو مثل العصفور، ورأيت الكتب مرتبة في صفوف، وتلك الأوراق والمجلات والجرائد، كل على حدة، في أنظم حال، ولوحاتي، مصفوفة بتسلسل على الدوائر، كما حياتي، أو ذاكرتي. الأولى هنا، والثانية هنا، والثالثة والرابعة وآخرها، كلها تحيط بالسريّر القديم، سريّر خالي، وتعيد مشاهد ما كنّا، وما كان هنا.

تركته وذهبت إلى المطبخ وأنا أتذكر ما قاله حول أمي وحول القائد. بالنسبة لي، وأنا التي نشأت في دير للراهبات بعيدا عن أجواء القتال والمعارك، واندججت كلياً في هوايتي الجميلة ومزج الألوان، ما كانت أخبار القائد تهمني من قريب أو بعيد. ما كنت أعرف ما فعله في القدس وحول القدس وفي بير زيت والجهاد المقدس وحصار المستعمرات وجيش الإنقاذ. كنت محصورة في ذاك الدير ولا أرى من القدس من خلف السور إلا القباب والجرسيات والمآذن وقبة الصخرة وأشجار السرو. خالي يزورني ما بين الفينة والأخرى، ثم يغيب طوال أسابيع لا أرى فيها إلا رفيقات الدراسة والراهبات وأسوار الدير وألواني. عشت بعيدة، عشت وحيدة، ثم تغربت في بلاد الله، وعشت

هزائم أمتنا مثل الآخرين، من بعيد لبعيد. أما هذا، هذا الرجل، هذا الماضي، فقد أعاد لي ذكرى أمي، وذكرى خالي وخالي الثاني، وما كان يدور خلف الأسوار، أسوار القدس، وأنا غافلة عن الواقع وتلك الأسرار، وبالذات السر الغريب حول أمي.

أمي كانت بالنسبة لي في ذاك الوقت أخت كبرى، كئيبة، ضعيفة، شاحبة الوجه، دوما تتذمر وتتأفف، وتهرب من الدار وتلجأ للقدس حيث ليزا. وليزا كانت بالنسبة لنا، أنا وسيتي، هي السبب في تلف أمي وعذاب أمين. كانت تسيطر على الاثنين، فحقننا عليها أنا وسيتي. كنت صغيرة وسيتي كبيرة وأمي ضعيفة وأنا مشدودة إلى سيتي. وحين ماتت سيتي واستقرت أمي في مستشفى القدس، مستشفى الملكة فيكتوريا، وأنا رزحت في ذاك الدير، ظل إحساسي تجاه أمي أنها فاشلة وضعيفة، فشلت في الزواج والأمومة، فشلت في نيل رضا سيتي وخالي الكبير، فشلت بالالحاق بخالي أمين وأفكاره، وفشلت في تقليد ليزا المثقفة العصرية. وظلت علاقتنا جامدة، فيها نفور وبعض الشكوك، ثم الإهمال. هي أهملتني، أو هكذا خيل إلي، وأنا بدوري أهملتها، وعشت أجوائي في ذاك الدير بعيدا عنها. اعتدت على بعدي عنها، واعتدت حياتي بلا أمي.

ثم جاء ربيع في هذا الخريف، ليذكرني ويفتح عيني على أسرار ما كنت أبدا أعرفها، ولا خطرت يوما على بالي. أمي تمرض القائد! أمي تحب البطل الشاب! أمي تنتسب إلى حزبه! أمي تتطوع في خدمته وخدمة جيشه وتلحق به إلى كل مكان يذهب إليه! يعني أمي ما كانت وداد الهزيمة الشاحبة الفاشلة والكئيبة! كانت مناضلة عاشقة وذات مغامرات لا أعرفها! قال لي قبل نومه، قبل الليموناده وحبتي البندول وهذيانه وهو يشير إلى الأوراق: إقرأ أي خالك! ثم عاد ليهذي عن

القائد وما حدث في الشام وفي القسطل. عاد يردد وهو يهذي: الشام
قتلته وزعماء القدس! وأنا أعلم علم اليقين أن القائد قتله اليهود في
القسطل، فلماذا يقول قتلته الشام وزعماء القدس؟!

39

دخلت الغرفة وكان السكون يلف الكون والمدينة، والسماء شاحبة تنذر بغيوم ماطرة مع بدء الشتاء، لكن الخريف ما زال يجرجر أقدامه ويتمطى فوق الياسمين وورق الريحان، وحب الخشخاش أصبح داكنا، بدأ يحمرّ.

أغلقت نوافذ غرفته بإحكام وأشعلت مدفأة كنت اشتريتها للطوارئ، وجلست على كنبه قديمة كانت بجوار النافذة، وحملت الأوراق أبحث فيها عن أمني في شهادة قريب موثق به عاش الأجواء وعاشها، عايش أمني، عرف عنها، كما كرر ربيع عدة مرات، وعرف عن القائد والقسطل وأسرار الشام. من قتل البطل، أهم اليهود أم هي الشام وزعماء القدس؟ لكن للحق، لم يكن يعنيني في ذاك المساء إلا أمني. أردت أن أبحث عن أمني، عن الوجه الآخر لأمني، هل كانت عاشقة ولهانه؟ هل أحبته؟ هل أسعفته؟ وهل تبعته لربوع الشام والقسطل؟

أخذت أنقب، أفتح أوراقا وأهملها، أتصفحها، أقرأ العناوين وبعض السطور، وحين لا أجد ذكرا لأمني أهملها. عناوين كثيرة ومواضيع غريبة ونقاشات محمومة ووصف لمعارك لا تحصى. معركة عرتوف، معركة بني نعيم، حي القطمون، الشيخ جراح، النبي صموئيل، الدهيشة، شارع بن يهوذا، المنتفوري، شارع هاسوليل، نسف الوكالة اليهودية، ثم باب الواد وعشرات القرى فوق باب الواد. أخيرا وصلت إلى دمشق وزعماء القدس، معظمهم هربوا، لجأوا للشام، والزعماء العرب وجامعتهم قرروا الدخول لتحرير القدس وهم في الشام وشكلوا ما يسمى بجيش الإنقاذ.

أقلب الصفحات وأقرأ العناوين وأتلهف على وصف حقيقي موثوق به لقصة الحب المزعومة، قصة أمي، والوجه الآخر للوجهين. وجه أمي ووجه القائد، والسر الحقيقي للقسطل ومن قتل البطل، زعماء القدس، زعماء العرب أم القسطل؟

خالي يقول إن القائد اكتشف أبعاد خطة نخشون. ما هي نخشون؟ من هو نخشون؟ هو أول يهودي دخل فلسطين. متى دخلها، كيف وأين؟ فوت فوت، فوت فوت، لا تعيني. لكن الخطة واسمها نخشون، كما اكتشف القائد من أعوانه في السفارتين الأميركية والبريطانية، تنص على قتل القائد وكل القواد لأن العرب لا يستطيعون العمل بلا قائد. هذا ما قالوا، أو ما قال. قالوا القائد بالنسبة للعرب هو البديل عن الوالد، يعني البديل عن الراعي، لأنهم بلا قيادة مثل الغنم بلا راعي. هذا ما جاء بخطة نخشون. وأيضا جاء أن الهاغاناه وأرغون وشستيرن مع البالماخ، يعني المنظمات اليهودية، بدعم من الانجليز، سيعملون على إفراغ القرى والمدن بترويع الناس. يقومون بمذابح جماعية فيخاف الناس ويهربون من قراهم ومدنهم فيقطنها اليهود. هذا ما جاء بخطة نخشون.

أقلب الصفحات حتى أصل لموقع أمي. أين أمي؟ أين القائد؟ كيف أحبته؟

يقول خالي إن القائد اكتشف خطة نخشون، والاجتماع السري بين بن غوريون وموشي دايان وجولدا مائير ورجل كبير من الاستخبارات البريطانية، وعلى إثر الاجتماع فتح الإنجليز أبواب معسكراتهم في صرفند ورأس العين ووادي الصرار. أعطوا اليهود الدبابات والمصفحات والمدافع الثقيلة والطائرات، وفتحوا لهم ميناء تل أبيب على وسعة ببواخر تأتي من روديسيا وروسيا وانجلترا وفرنسا

وحدود الهند. اجتمع برجاله والقواد ومن ضمنهم خالي الكبير وخالي أمين مستشار الإعلام والصحافة، وقال لهم إن المعركة لن تصمد ولن يستمر الحصار إذا لم يحصلوا على أسلحة ثقيلة وذخيرة. الأسلحة الخفيفة وشغل العصابات ما عاد يفيد، الإنجليز ينفذون وعد بلفور، والقناصل العرب وعدوا بعدم التدخل في المعركة إلا بعد انتهاء الانتداب في 15 آيار. ليس هذا فقط، ووعدوا الإنجليز بعدم تسليح الفلسطينيين وتدريبهم، ويتوسطون الآن لدى المفتي، ربما بخبث وبلاهة، حتى نفك الحصار عن المستعمرات اليهودية، وهي الورقة الوحيدة في أيدينا. قلنا لهم، نفك الحصار شريطة أن يلقوا بأسلحتهم ويتوقفوا عن القتال ويعيشوا معنا كبقية المسلمين والمسيحيين سواء بسواء. رفضوا ذلك، قالوا إنهم شعب مختار فواصلنا الحصار. قالوا فلسطين كانت لهم منذ التاريخ فواصلنا الحصار. قالوا داود والهيكل ولا نبي إلا موسى فواصلنا الحصار. ناس المستعمرات ماتوا من الجوع، أكلوا الأعشاب، أكلوا السحالي والجرذان، شربوا ماء الآبار العتيقة ومضغوا الخرفيش، ورفضوا التسليم فواصلنا الحصار. وأنا أقول، قال القائد، ليتوسطوا أرواح الأنبياء والمرسلين فلن نرضخ ولن نفك الحصار. تسليم السلاح هو المنفذ، وهم لا يريدون هذا المنفذ، يريدون القدس، وحيفا ويافا وكل فلسطين. دولة يهودية بدون مسلمين ولا مسيحيين، هذا ما يريدون، دولة عنصرية فقط لليهود. ونحن نقول لا دولة عنصرية ولو ماتوا أو متنا نحن. موقفنا الآن أقوى منهم. نحن نمسكهم من مقتل. نحاصر مئة ألف يهودي في مستعمرات القدس. هذه الورقة إذا سقطت سقطنا معها. إن خسرنا باب الواد وقرى المرتفعات والقسطل سقطت القدس، وإن سقطت القدس سقطت فلسطين. لا بد لنا من سلاح. علينا أن نبيع ملابسنا في سبيل السلاح. كل مواطن، شاب أو عجوز،

رجل وامرأة، حتى العميان، حتى المقعدين، حتى المجانين والشحاذين والمرضى والعاملين في المستشفيات والجمعيات وكل فلسطيني على وجه الأرض عليه أن يساهم ويدلي بدلوه حتى لا نضعف ونفك الحصار. ذهب إلى الاتحاد النسائي وذهبنا معه. أنا كنت معه. في كل مكان أنا كنت معه. مستشار الإعلام والصحافة، أنا كنت معه. ذهبنا هناك ورأينا النساء، وكانت وداد في ذاك الوفد. سألت عن ليزا فقبل لي ذهبت لبيروت، التحقت بسعادة والزوجة. أهذا وقته؟ صحت بوداد، فهزت كتفيها وابتعدت. تذكرت ما قالته ليزا بعد اجتماعنا في حيفا حين جاء الزعيم. قالت الأحزاب الفلسطينية خيال محلق، قصب فارغ، يصدر الأصوات ولا يكسر بل يتكسر. كنت اعتقد أنها تمزح، في ذاك الوقت كنا نمزح، وكانت تتأفف وتتمرد وما كنت أظن أنها جادة، وحين اكتشفت نقمت عليها. أهذا وقته؟ نحن الآن في أسوأ حال، في أصعب وضع. نحن بحاجة لكل النساء وكل الرجال وحتى الأطفال. ليزا ذهبت لكن وداد بقيت معنا. كانت هناك في الجمعية، وكانت في الشام مع وفد النساء، وكانت في بيرزيت مع فرق الإسعاف، وكانت وراءنا في القسطل.

قلبت الأوراق، قلبت، قلبت. لم يقل أحببت القائد، لم يقل عشقته وماتت عليه، لم يقل بكت من ذوب العشق، لم يقل مغامرات وجنون واختلال العقل. لكن القصة شغلتنني، أثارتني، قصة القائد والقسطل. من قتل البطل، زعماء القدس أم زعماء العرب أم القسطل؟ قال خالي: اجتمعنا بالنساء وقلنا لهن إن الموقف بات خطيرا. نحن بحاجة للعون الكثيف، للعون السريع. عليهن الاتصال بنساء العرب، جمعيات العرب، والحصول على أكثر ما يمكن وفي أسرع وقت. النساء تجاوزن لأبعد حد، لكن المصيبة والكارثة كانت الناس. الناس

اجتمعوا أمام الجمعية وسدوا الشارع، وهم يصرخون أين القائد؟ أين
 الجهاد المقدس والإنقاذ؟ أين الجهاد؟ أين الإنقاذ؟ فانتفض القائد،
 وقال لنا: نذهب للشام، حالا، فورا، نذهب للشام. نحن سنموت من
 غير سلاح. الأخوة العرب لديهم سلاح، نأخذ منهم.
 تركنا القدس كقدر يغلي. ركبنا السيارة وبيع يسوق مثل
 المجنون. وصلنا الشام عند المغرب، يوم 3 نيسان، أي قبل النكبة بأيام
 فقط. لكن ما حدث بتلك الأيام، كان عاصفة مجنونة.

40

وصلنا الشام عند المغرب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها، أنا وربيع، مدينة عربية بهذا الحجم! شوارع وأضواء ومبانٍ ومحال ما زالت مفتوحة، والناس يمشون بتلكؤ كما لو كانوا في نزهة، وأشجار سامقة ونهر يجري محاط بالمقاهي والخضرة. أنا وربيع كنا نحدق في كل شيء مبهورين ومسحورين بالجو الهادئ ومزاج الناس، فلا استعجال ولا توتر وبضائع ما زالت مفروشة على الأرصفة أمام الحوانيت، والناس يشتررون ويأكلون ويدخنون الأراجيل في المقاهي خلف الزجاج لأن نيسان ما زال في أوله والبرد يجرر أقدامه. ربيع فقد الانتباه وهو ينظر وكاد أن يرتطم بعربة برتقال لولا أن سارع قائداً وأمسك بالمقود ثم نحّاه وجلس مكانه وساق ما تبقى من الطريق حتى منزل عمه، ساحة المفتي، وطلب منا أن نسبقه إلى الفندق، وأعطانا بعض الفرנקات حتى نتعشى في مطعم قريب قبل رجوعه، كما طلب مني الاتصال بالصحفيين حتى يعقد مؤتمرًا يبلغ العرب من خلاله عما وصلنا إليه، وينبههم ويناشدهم أن يقدموا لنا غير دعم الكلام حتى نستمر وندراً الخطر عنا وعنهم.

ذهبنا إلى الفندق، أنا وربيع، وحجزنا غرفتين، واحدة لنا وواحدة منفردة للقائد، ثم خرجنا نبحث عن مطعم أو مقهى نأكل فيه ما يسد الرمق لأننا لم نذق الأكل منذ الصباح، وكنا نلهث ونشعر بالبرد. دخلنا أول مقهى وجدناه في طريقنا قرب الفندق، وكان يعج بالزبائن ودخان الأراجيل والسجائر وأصوات النرد، وطريقة الحجارة تدوي هنا وهناك، ومجموعات من الرجال يلعبون الورق والطاولة، ويشربون

الشاى أو القهوة، وآخرون يأكلون الشطائر والفطائر أو حمص وفول. انتحينا في زاوية قرب الزجاج حتى نتأمل المارة وأصواء الشام، وطلبنا صحنى حمص وفول وكوبي شاى، وأخذنا نراقب ما حولنا ونحن ما زلنا مبهورين بجو اللثام والألفة، ونقارن بين هذا الجو وذاك الجو. هنا ناس يأكلون ويشربون ويلعبون الورق والنرد ويتنزهون ويعيشون بدعة وهدوء واسترخاء، وهناك جو ينهشه الخوف والتوتر والناس قلقون على مصائرهم ولا يعرف الواحد منهم إن كان نهاره سيمر على خير أم أن انفجارا سيقع قريبا منه، فيذهب ضحيته هو أو أحد أفراد عائلته. هنا استقلال وحرية، وهناك انتداب واستيطان. هنا حكومة وطنية، وهناك حكومة انتدابية معظمها يهود، يهود انجليز، وانجليز يهود، ويهود يهود، وحكم انتداب يحايي اليهود، عينك عينك، يأخذ منا ويعطيه لهم ويقول حياد، يعطيه لبيض جاءوا من الغرب، فاختلط الحابل بالنابل، واختلط الأبيض بالأسمر، واختلطت لغات روسية على عبرية على ألمانية وفرنسية وبولندية، وبتنا نعوم في بحر النفي والغربة ونحن ما زلنا في أرض الوطن. لكننا ما زلنا نمسك بالزمام ونحاصرهم. كنا الأقوى، حتى بالضعف كنا الأقوى، وحصار المستعمرات هو المفصل والقول الفصل.

سمعنا النادل نتحدث بلهجة عربية، فسألنا من أين نحن، فقلنا من القدس. ابتهيج، وقال يا حيا الله، أصحاب الشجاعة والهمة، أخبركم والله ترفع الرأس وترد الروح، جماعتكم هناك. وأشار بيده نحو مجموعة كهول يلعبون الورق والنرد، فرأيت وجوها أعرفها وأتأشأها وأكن لها نفورا طبيعيا لا أعرف إن كان سببه اختلاف الجيل أم المبدأ أم الاتجاه والخلفية. هم زعماء السياسة والقادة، قادة الأحزاب، وأعضاء الهيئة العربية من كان بيدهم الأمر والنهي والمؤتمرات

والعرائض حتى هربوا، تركوا مواقعهم في القدس ولجأوا للشام بعد أن قسموا البلد عدة جهات، وجعلوا منها رقعة شطرنج. وها هم الآن في مقهى الشام يلعبون الورق والنرد، ويشربون الشاي ويناقشون قضايا الوطن ويتحسرون ويتأففون ولا يفعلون، بل يفعلون، إذ كل واحد يمسك بخيوط يشد بها من خلال زلم وأجندات ومصالح.

عاد النادل وابتسامة واسعة على وجهه، وقال لنا وكأنه يحمل لنا بشرى سارة إن البشوات يدعوننا لشرب الشاي والتعرف علينا والاطمئنان على ما يجري وأخبار القدس. ربيع تجهم وانفعل، وقال إنه لن يجلس مع هؤلاء لأنه لا يعترف بزعامتهم. لكني قلت إن وضعنا الحالي لا يوفر لنا مثل هذا الترف، إذ أن مهمتنا هنا في الشام أن نحصل على الدعم من أي كان، من إخوتنا العرب أو الأتراك، من الألمان والطيالان وحتى الشيطان، فما بالك بأهل البلد وزعماء القدس، وهم أولى الناس بما نطلب! وهكذا تحاملنا على نفسينا وقبلنا الدعوة لشرب الشاي وزرناهم.

كانوا 10 من أصل 12 - أعضاء الهيئة العربية، أي شبه حكومة وطنية تقاوم الانتداب وسياساته، لكن عن بعد، من مقهى الشام، وكلهم، كلهم، ممثلو عائلات ومصالح وأحزاب لا يزيد عدد أعضائها عن أفراد العائلة وأزواج البنات والأخوات والأقارب. لكنهم في عرف الانتداب وحتى اليهود، هم الممثلون والزعماء والقادة ومن شكلوا المقاومة الناعمة لمواجهة البلد حتى انفجرت، ففروا منها حتى لا يصابوا ببعض الرذاذ ولحقوا بساحة المفتي. أنا وربيعة كنا نتقول عن الآخرين أمام القائد، أي قائدنا، إلا المفتي، الآن ساحة المفتي هو عم قائدنا غير اللزم، يعني عم عمه أو ابن عم أمه أو ابن خال عمه أمه. وهو الوحيد ممن فروا كان يناصر قائدنا عبد القادر ويشد معه أو يشد

به، لا لأن قائدنا يمثل اتجاهها اجتماعيا أو دينيا يتبناه سماحته أو يرضى عنه، بل لأنه فخذ أصيل من عائلته، وقد بات الآن نجما عربيا يرفع الرأس، وصورته تظهر في صحف الشام ومصر ولبنان والسعودية، مع أن السعودية بلا قراء.

كانوا يتحلقون حول طاولتين متلاصقتين. عدد منهم يلعبون الورق، واثنان يلعبان النرد، واثنان فقط يناقشان الوضع السياسي وهما يرقبان الورق والنرد ببعض البرود، وحين يشتد الوطيس يسكتان بضع لحظات حتى يستقر الوضع ويتبينان النتائج، ثم يعودان إلى النقاش بنفس الحماس أو أبرد لأن الورق والنرد جاءا بنتائج طيبة أو عكسية. لكن الجميع كانوا يشربون القهوة والشاي، وواحد فقط يشرب قينر، لأن نيسان ما زال باردا والطقس في الشام أبرد وأجف من جو القدس، لكن ألطف.

الاثنان اللذان يناقشان السياسة ترحزا عن مقعديهما ورفع الواحد منهما مؤخرته بضع سنتمترات عن كرسيه وهما يمدان يديهما ويصافحانا. كانا يعتبران وقفتيهما أو ربع الوقفة دليل على الاحترام أو الابتهاج أو التكريم لأبناء البلد من حملوا معهم أخباره الطازجة ورائحته. والحقيقة أنني ما كنت أتوقع أكثر من ذلك، فهم كبار السن ونحن شباب، وهم زعماء شاركوا في المفاوضات والمؤتمرات ونحن نكرة، وهم منفيون بإرادتهم، ونحن ما زلنا على أرض الوطن بلا هالات النفي واللجوء وسخاء العرب وموائدهم. كما أننا، وهذا الأهم، نلبس الكاكي ونعتمر الحطة وهم يبدلهم الأنيقة والطرابيش ومسابحهم.

سألانا من أين، فقلنا القدس. وحين قلنا "القدس" رفع اللاعبون أعينهم وتمعنوا بنا لحظة واحدة لا أكثر، وأحدهم هز رأسه، وآخر ابتسم بسمة خفيفة، وثالث غمزني تعبيرا عن رضاه وتكريمه، ثم

عادوا للعب بنفس أقوى، لأن اسم القدس يحمسهم، وربما ليشبوا لنا أنهم مهرة ولا أحد بالورق والنرد يغلبهم.

سألانا جماعة من نحن؟ فقلنا: جماعة الحسيني. قالوا باهتمام: أي حسيني، حسيني المفتي أم عبد القادر؟ قلنا: طبعاً عبد القادر، فساد الصمت وعبست وجوه، وتوقفت الأيدي عن رمي الورق أو قذف النرد، ورفع اللاعبون حواجبهم ونظروا إلينا نظرة متشككة كما لو قلنا من البالماخ أو المستدروت. لكزني ربيع وتمتم بكلمات لم أسمعها، لأن النرد وحجارة الطاولة عادت تترقع وتفرقع وتزحف بضجيج، وأحدهم قال مدمماً "عبد القادر!" وكأنه يقول لا حول ولا.

سألانا بفضول أقرب ما يكون إلى التحقيق عما نفعله هنا في الشام؟ صمت ربيع ولزم الصمت إعلاناً عن نفوره أو حرده، لكني أنا بحكم موقعي الإعلامي والصحفي فقد طوّلت بالي وأخذت أشرح وأفسر. حكيت لهم عن حصار المستعمرات - الورقة الوحيدة بأيدينا. حكيت لهم عن خطة نخشون واغتيال القادة وإفراغ البلد بارتكاب مذابح جماعية. وحكيت لهم عن سلاح اليهود وما أخذوه من معسكرات الإنجليز، وحاجتنا الماسة لسلاح حديث ومدافع حتى نستطيع أن نستمر بمحاصرتهم ونقاوم. بعد كل ذلك الشرح والإطنا، قال أحدهم بلهجة عتاب وتساؤل: الله يصلح عبد القادر! لماذا نقسم البلد إلى جبهات؟ جيش الإنقاذ يمثلنا وجيش الإنقاذ سينقذنا وجيش الإنقاذ هو الأجدر.

لم أشأ أن أذكرهم بأن البادئ بتقسيم البلد إلى جبهات هو حضرتهم لأنني في مهمة رسمية إعلامية شبه دبلوماسية، وعلي أن أعمل بمتهى الصبر والجدية على كسب الحلفاء مهما كانوا، من أي بلد أو جنسية، فما بالك بزعماء القدس، أعضاء الهيئة العربية! فقلت لهم إننا

أبناء البلد ونحن أدرى الناس بشعاب البلد وشعاب القدس، كما أن القدس هي المرتبط، وحصار القدس هو المفصل، وقائدنا البطل لم يدخل معركة وخرج منها إلا مكلاً بالنصر، بدليل أن الصحافة العربية تتابع معاركه وأخباره وتضع صورته في الصفحة الأولى مع كل خبر.

قال أحدهم متناغشا:

- لأن شكله يعجبهم.

وقال آخر مثنياً:

- وشوارب دوجلاس أميركية.

وقال ثالث:

- تفصيل الجامعة الأميركية.

صاح ربيع محتداً:

- كأنكم تحكون عن ممثل أو مطرب!

فألقي أحدهم بزوج النرد كقذيفة، وقال ضاحكاً:

- ممثل ومطرب؟ معقول جداً!

فقام ربيع عن مقعده وزاحه بقفاه، فأصدر صوتاً كالزعيق،

وقال صارخاً: قائدنا بطل لم يهزم قط، هو لم يخبى ولم يهرب.

تصدى أحدهم، وقال ببسمة لثيمة وصوت كالضحك:

- ومعركة بني نعيم؟!

وعقب آخر:

- أنقذه بدوي مع جملة وممرضة عربية من نابلس، قالوا عنها

بنت القحطان، هل تعرفها؟

شدني ربيع من كتفي وأنا مشدوه متجمد لا أقوى على التنفس

والحركة. وحين رأني لا أتحرك، رفس الكرسي، فارتطم بالطاولة واندلق

الشاي وتمازجت حجارة اللعب والأوراق واختلطت، فهب البعض

وقوفا خوفا على بدلاتهم الأنيقة من سيل الشاي ورذاذه، وصاح واحد:
ما به هذا؟ وآخر نهر: أما وقاحة! ونظروا جميعا في وجهي تعبيرا عن
الغضب والتبرم فوقفت بأدب، وقلت معذرا بلباقة:
- ما تؤاخذونا، هذا فدائي دمه حامي، وراجع للقدس حتى
يقاتل.

41

حين خرجت من المقهى لفح هواء الليل البارد وجهي وأحسست بأنفي يتجمد. خرجت من رأسي رائحة التبناك والقهوة، واخترقته رائحة الليل المندي برطوبة بردى وخضاره. رائحة الطحلب وخيرير الماء وهداة الشارع، وقد بدأ ينام ردني إلى ذاتي بعد أن أضعتها وسط البشوات. أحسست أني عدت شابا، فمشيت خطوات واسعة كي ألحق به. كان يقف عند الدرايزين ينظر للنهر وجريانه. كان حرنا، وربما غاضبا مني، لأنني قبلت دعوة البشوات لشرب الشاي، وحكيت لهم عن الحصار، وخطة نخشون، والهدف من زيارتنا للشام وهم لا يستحقون، كما قال لي، أن أحكي لهم حتى نكتة. قال لي وكأنه يقذف حصاة من فمه: هؤلاء، هؤلاء، ألا تعرفهم؟!

لم أجه. كنت غاضبا مثله، وربما أكثر. لكنني كنت أفكر بأبعاد المشهد، وأقول لنفسي: إن كان هؤلاء أبناء بلدنا وزعماء القدس يقولون ما قالوه ويفعلون ما فعلوه، فماذا سيقول زعماء العرب؟ ماذا سيفعلون؟ هل يقتنعون؟ هل يتجاوبون؟ هل يستجيبون؟ وكيف سيكون موقف قائدنا إذا ما ووجه بالنكسة، وهي قادمة على ما أظن. أتمنى أن أكون مخطئا أو متشائما أكثر من اللزوم. ولكن، هل يتوجب علينا أن نقول له ما دار بيننا وبين البشوات في المقهى، وكيف قالوا جيش الإنقاذ يمثلهم؟ جيش، الإنقاذ يمثلهم؟ ونحن إذن ماذا نمثل؟ هل نقول له أم لا نقول؟

سألني ربيع عما قصده البشوات بذكر شارب القائد الأميركي تفصيل الجامعة الأميركية، فحكيت له باختصار شديد قصة القائد

مع الجامعة الأميركية وما لتلك القصة من أبعاد. حكيت له كيف طردته الجامعة الأميركية في بيروت بسبب أنشطته الوطنية، والجامعة الأميركية في القاهرة حاولت سحب شهادته بعد تخرجه بسبب ما فعله يوم تخرجه. بعد طرده من بيروت قرر أن يهادن ويتكتك، وهذا ما فعله طوال سني دراسته في القاهرة. تظاهر بالهدوء لكن من تحت لتحت، واصل التحريض وأنشطته. كان نشيطا منذ صباه ومراهقته. شخصيته ومزاجه أو تربيته في بيت تصدر واجهة النضال الوطني خلقت منه مقاتلا متمردا منذ نعومة أظفاره. هكذا بدأ، وهكذا استمر. ولم يكن مقاتلا فحسب، كان مناورا ولديه عقل يتكتك ويخطط. لهذا صبر عليهم حتى حصل على تعليمه وشهادته، ووقف على المنصة في الحفل الضخم أمام الوجهاء والسفراء والصحفيين، وكشف خلفية رئيس الجامعة وإدارته التبشيرية، وما لهذه الجامعة من أهداف سياسية. ألقى كلمته فكانت مدوية كالانفجار، وفر هاربا وشهادته تحت إبطه. حاولت الجامعة إخماد الانفجار واحتوائه، لكن الصحافة المصرية تناقلت الخبر وعلقت عليه وأشادت به. حاولوا سحب شهادته ولم يقدرُوا، لكنهم قدرُوا على استصدار أمر من رئاسة الوزراء بإبعاده. خرج مطرودا بمرسوم وزاري على اعتبار أنه ضيف مشاغب غير مرغوب فيه. خرج مطرودا من مصر، لكن بشهادة علمية. علمه أهله للاستمرار في تجاربه الكيميائية وتطوير ألغام ومتفجرات فعالة. ولو كانت لدينا الإمكانيات لطورنا مصانع أسلحة حربية.

ربيع استمع لكل ذلك ولمعة ضاحكة في عينيه. ربيع الشاب ما زال صغيرا سريع التأثر، وحركات كهذه تستثير مشاعره ومخيلته. قال متعجبا، والضحكة ما زالت على شفثيه واللمعة تتوهج في عينيه: طيب، إذن، لماذا هم... وأشار بيده نحو المقهى. وأعاد السؤال بحيرة

وعجب، لأنّه يعرف أن البشوات يكتنّون المشاعر نفسها ضد أميركا وبريطانيا وسائر الدول الغربية:

- لماذا ينقمون عليه وكل واحد منهم يتمنى القيام بما قام به،
الأنّهم يتمنون ولا يقدرّون؟

لم أجب عن السؤال، لأنّي كنت أفكر بأبعاد المشهد وتواليه،
فقال ربيع حائرا:

- أهذا هو السبب أم لأسباب عائلية؟

لم أجه فواصل:

- أم لأسباب حزبية؟

لم أجه، فواصل:

- أم عشائرية؟

لم أجه فلكنّي، فقلت بشرود:

- ربما لفارق السن والخلفية.

قال ربيع ضاحكا:

- تقصد الشوارب والألقاب والمسابيح؟

لوحث بكفي ومشيت مطرقا، لأنّي ما زلت منشغل البال

مضطربا، وقلت بقنوط:

- ربما لهذا كله، أنا لا أعرف!

42

في الصباح، وكان عدد من الصحفيين قد استجابوا لدعوتنا، وقف قائدنا بلباسه العسكري والخطّة الوطنية حول عنقه، وقال بثقة وتفاؤل:

- النصر لنا. بإذن الله النصر لنا. قوات الجهاد المقدس تسيطر سيطرة تامة على منطقة القدس بأكملها، كما أنها تشرف على خطوط المواصلات اليهودية في أريحا وبيت لحم. مصير المئة ألف يهودي ليس بأحسن من مصير الألوف من اليهود في تل أبيب لأن القتال وحدة لا تتجزأ.³

علق ربيع في أذني، وكأنه يجب على تساؤل كان يقلقه منذ ليلة أمس: هذا هو السبب، القتال وحدة لا تتجزأ، يعني الثورة لا تتجزأ، وهذا ما يخيف حضرة البشوات، أليس كذلك؟

نهرته حتى يصمت فأسمع ما يقول قائدنا.

قال القائد:

- أنا كقائد عسكري يتولى الدفاع عن سلامة العرب في القدس لا يهمني ما يجري في لندن من نقاشات ومفاوضات. ما دام مشروع التقسيم قائماً فإن القتال سيستمر، ولن نسمح بإنشاء دولة عنصرية تستثني كمسلمين ومسيحيين. ستكون دولتنا مفتوحة لكل الأديان والمذاهب والمعتقدات. ستكون دولتنا عصرية.

نخزني ربيع، وقال بصوت متهدج:

- هذا هو السبب، ستكون دولتنا عصرية، هم ضد التحديث

٣ * جريدة المصري ٤ نيسان ١٩٤٨

والحادثة، أليس كذلك؟

قلت له ثاني مرة: اسكت، اسمع، دعنا نسمع. لكن القائد كان قد أنهى اللقاء، وقال بسرعة:

- اعذروني يا أصدقاء، أنا لم أجمعكم إلا لأقول إننا بحاجة للدعم الفعلي لا بالكلام. ساعة الحسم قد اقتربت، وإن ضاعت القدس ضاعت فلسطين، وإن ضاعت فلسطين ضاع العرب، وإني على هذا أشهدكم. اللهم اشهد، إني بلغت.

تلقت حولي ورأيت الصحفيين إما محمقين أو مطأطين يكتبون أو لا يكتبون. كان القائد قد استثار حميتهم وأقلقهم. هم صحفيون معظمهم شباب مثقف وذوو اتجاهات قومية، بعضهم يعرفون وبعضهم لا يعرفون. من يعرفون كانوا يتأملون القائد الشاب بملابسه العسكرية ويستوعبون كلماته. هم يعرفون ماذا يقصد، ويعرفون أيضاً ما في الجو الفلسطيني والعربي من تشققات وانقسامات وتخلف، وينظرون إلى القائد الشاب بقلق وأسى خوفاً عليه من الواقع وانتكاساته. ومن لا يعرفون تغلبهم العاطفة والتفاؤل، يتقدمون منه يصافحونه ويقبلونه، ويقولون له: أنت الأمل، أنتم الثورة والتحرير والتحرر. وهم يقصدون أن الثورة - كما قال لهم أو ما فهموه - وحدة لا تتجزأ تبدأ بالأرض وتتعدى السطح إلى الداخل، أي لب الوطن وبنيتة وتقاليده، يعني العائلة والعشائر، يعني الانفتاح الديني والتحرر، يعني المعاصرة والتحديث. وهو ما اتضح لي لاحقاً أنه السبب في هزيمة القائد وهزيمتنا، وهذا ما سأصفه لاحقاً حتى تكون التجربة وثيقة تاريخية لما حل بنا في لقاء الشام، وما سيحل بنا مستقبلاً في الأردن ولبنان وسوريا، وما أفرزته السعودية!

43

قبل الذهاب إلى الاجتماع بالقادة العرب وممثلي الجامعة العربية حاولت أن أنوه بما دار بيننا وبين الزعماء في مقهى الشام وما قالوه عن جيش الإنقاذ والتنكر لنا. قلت له بلهجة لطيفة - قدر المستطاع - أنهم كما يبدو لا يعترفون بنا ويستخفون بحصار المستعمرات ولا يستوعبون أبعاد خطة نخشون. قلت له إني فسرت لهم كل هذا وذلك لكنني لم أجد منهم أذنا صاغية ولا التشجيع والتفاعل. وحين رأيته غير عابئ بما أقول، قلت له إنهم أهانونا أنا وربيعة واستخفوا بنا - ولم أقل له إنهم استخفوا به هو شخصيا وسخروا منه، خجلت أن أقول، خجلت وخفت. وقلت له كيف قالوا جيش الإنقاذ يمثلهم، وهذا يعني أنهم لن يدعمونا أمام العرب، بل ربما يشجعونهم على إهمالنا وعدم دعمنا وبذلك يوطدون الانقسام والتشرذم.

كنت مهتاجا وحزيناً، وأكاد أشرق بدموعي، لكنني أقسو على نفسي حتى لا أنهار أمام عينيه فيتهمني - كعادته - بالركة والنعومة والرومانسية. تجلدت كثيرا حتى أهينته لما أتوقع أنه آت، حتى لا يفقد أعصابه، لأنني أعرف أنه عصبي ونيراني وبكبرياء لا تعرف التمويه ولا التنازل. قلت له إن بعض المقالات والتقارير الصحفية والصور عن المعارك والبطولات قد تقنعهم - مع أنني أعرف أنهم سمعوا وقرأوا، وربما لم يقرأوا، وهذا ما أعتقد أنه حاصل. حينذاك التفت إلي، وقال ساخرا: يعني نتباهى بما نفعل؟ يعني نتباهى بالواجب؟ لم أجبه، لكنني بقيت أتأمل جانب وجهه الجميل، وأتساءل: لماذا لا يرون ما تحت هذا الجمال من قدرة؟ لماذا لا يقدرّون كفاءته واندفاعه؟ كيف لا يفخرون

أنه منهم؟ لكن المثل المحبط ذكرني ألا نبي في قومه، فصمت وكمدت ما أخفيته.

سألته عما قال له المفتي، وهل طمأنه وفسر له أبعاد الجو؟ هذه المرة التفت، وقال مندهشا: ما بك يا أمين؟ أظنني لا أعرفهم؟ أنا ابن البلد وأعرفهم. وأضاف بعد دقيقة صمت: أصمت، ركز، دعنا نحتاط لنفهمهم.

سألته بحذر: كيف نحتاط لنفهمهم؟ قال باسما: الآن ترى، وحتى ترى، اهدأ واصمت.

هدأت وصمت بضغ لحظات وحاولت الابتعاد عن وجهه، لكنني عدت أتأمله وهو يسوق بسرعة وانتباه ويخرج بنا من وسط المدينة إلى ضاحية وهو غارق في التفكير ويدمدم. التقت إيقاع الدمدمة وتسربت إلي بعض الكلمات فعرفت وتوقعت أنه يشعر. كنت أعرف أنه مغرم بالشعر والغناء والموسيقى، لكنني لم أتوقع أنه في هذا اليوم، في هذا الوضع، لديه النفس أو المزاج حتى يشعر. كان يتغنى بأشعار إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو قاسم الشابي، وأحيانا يتغنى بأشعاره. ومرة أو اثنتين أقرأني ما كتبه في الغربة حين كان بعيدا في العراق أو إيران أو تركيا. أقرأني قصائده وقال لي وهو يضحك: حتى تعرف أن القائد أيضا شاعر. قلت له: يعني تنافسني في الصنعة؟ قال بجدية وتأمل: وحتى تنافسني بالقتال والمعارك. قلت أذكره: أنا رجل قلم! قال باقتضاب وهو يتعد: لهذا اخترتك. وكان يقصد، أو ما فهمت أنه يقصد، أن الشاعر هو من يشعر، يعني يحس، يعني يعطي، وأن القيادة لن تكون إلا لشاعر. ومع أني متشكك بأبعاد ما يقصد، أو ما فهمت أنه يقصد، إلا أن قوله أطربني، عزز إيماني وشجعني، جعلني أحس كم يثق بي، وأيضا كشف لي كم وجهها له، وأن تحت المقاتل هناك

شاعر.

أوقف السيارة أمام مبنى مهجور بصف دكاكين مغلقة بأبواب حديد. كان هناك بعض الحراس يأكلون البرتقال تحت شجرة وكان ربيع بينهم يأكل معهم. قفز ربيع حين رأنا واقترب منا وفي يده نصف برتقالة مقشرة قدّمها للقائد، فأخذها بدون تعليق وقسمها بيني وبينه. وفيما هو يمزغ فهمت القصة. هو أرسل ربيع ليكشف ما في مخازن الأسلحة في المزة، حتى يعرف ما لدى إخواننا العرب من سلاح، وحتى يعرف ماذا يطلب.

قال ربيع إن المخازن مليئة بأسلحة من كل نوع وجنسية، فيها الخفيفة والثقيلة ومدافع وقنابل وذخائر. وأخذ يصف لنا وهو يهدر بالفرح والانفعال أن هذه الأسلحة تكفي جيش الإنقاذ وتكفيها وربما تزيد عن حاجتنا أو حاجتهم. وحتى يثبت لنا ما يقول، فنأدى أحدهم فجاء الحارس وهو ما زال ممسكا ببرتقالة كاملة مقشورة. قدمها لنا وهو يسلم ويرحب بحرارة، ويقول للقائد إنه يتشرف برؤيته، وأنه كان يحلم بلقائه لأنّه فخر الأمة، ولأنّه قرأ وسمع عن بطولاته. وهرع نحو أحد الأبواب وفتحها، وقادنا وسط دغل من الأسلحة الحديثة، جديدة تلمع، معظمها ما زالت بورقتها أو في الخشب أو الكرتون وبفخر واعتزاز، قال إن الشحنات القادمة ما زالت في الطريق، وإن السلاح سيتضاعف وسيضطرون لاستئجار مخازن جديدة لتخزينه - ونظر إلينا باسما - ما لم نأخذ حصتنا منه وننقذهم من الازدحام والاستئجار ونريّجهم.

كل ذلك والقائد يتفقد الأسلحة والذخائر، وهو يهر رأسه ويمزغ البرتقالة ويفكر، ثم يتسم للحراس المتحمس ويربت كتفه، ويقول له إن البرتقالة ممتازة، لذيدة جدا، ومن أي نوع ومن أية جهة،

وهل هي من الشام أم الساحل؟ وانه ما كان يظن أن البرتقال السوري
 ينافس البرتقال اليافاوي بجودته وحلاوة طعمه. واستمر الحديث عن
 البرتقال والمندلينا والليمون طوال معاينتنا للأسلحة والذخائر. ولو
 أن أحدا مغمض العينين أو أعمى سمع ما نقول لظن أننا نعاين مخزنا
 للبرتقال بأنواعه. وحين اقترب بقية الحراس منا وسلموا على القائد
 بحرارة وإجلال يكاد يبلغ حد التقديس، استدار إلي، وقال لي: أترى ما
 هو شعبنا يا متشائم؟ قلت مجاريا: طبعاً، طبعاً، وأخذت أبارك وأجامل
 حتى ركبنا السيارة وأنا أقول طبعاً، طبعاً، وفي جعبتي كلام وأفكار
 ودوائر، لكنني صمت وهو صامت، وربيع يقود السيارة، والقائد
 يسجل في مفكرته، ويحسب ويدمدم ويدندن.

44

دخلنا قاعة الإفطار، فوجدناه قبلنا هناك، على نفس الطاولة والمقعد، يأكل منقوشة بالزعر ويشرب الشاي بالميرمية. لكزني ربيع، وقال هامسا:

- هذا مثلنا يجب الزيت والزعر والميرمية!
- رأنا نبتسم، فصاح من مكانه بصوته الجمهوري الضاحك:
- تستغيبون من؟
- اقتربنا منه، وقلت له ما قال ربيع، فابتسم، وسأل محققا وهو يحدق في وجه الشاب:
- مثلكم يعني من؟
- قال ربيع متلجلجا:
- يعني الفقراء والفلاحين!
- ظل يحدق، وسأل ثانية بلهجة تحقيق:
- وأنا لست من الفقراء والفلاحين؟
- احمرّ ربيع وبقي صامتا، فنهره أبو موسى - بتنا نناديه أبو موسى على اسم ابنه، ولأنّه يصّر على ذلك - وقال لربيع وهو ما زال يحدق في وجهه:
- قل يا رجل، قل لي رأيك؟ أو بالأحرى قل لي رأيكم، ألسنت من الفقراء والفلاحين؟
- قال ربيع وهو يواجهه لأول مرة:
- أنت حسيني!
- قال القائد - أظّل أقول عنه القائد، لأنّي اعتدت على ذلك لكنه

ينهرنا، ويقول : أنا أبو موسى، أنا مثل الناس، أنا أبو موسى. قال أبو موسى:

- ولأني حسيني لست مثلكم؟ اسمع يا شاب، وأنت يا أمين، أنا لولا زوجتي لكنت معدما وأفقر منكم. ولولا ضيق الوقت لحكيت لكم، لكن الآن علينا التركيز. علينا أن نركز لنفهمهم. عليهم أن يفهموا أن حصار المستعمرات هو المدخل. لا جيش الإنقاذ، ولا الجهاد المقدس، ولا أي جيش يغلبهم ما لم نمسكهم من مقتل، وهذا المقتل.

قلت بقلق:

- أنا حاولت يا قائدنا...

قاطعني مصححا:

- يا أبو موسى!

- أنا حاولت يا أبو موسى أن أشرح لزعماء القدس هذه النقطة، وفشلت تماما مع الزعماء، ولا أظن أن القادة العرب أفضل منهم.

قال بجدية:

- لكن القادة عسكريون، معظمهم، والعسكريون يفهمون لغة التقارير والأرقام والخرائط، وهذه التقارير والخرائط ستفهمهم.

قال ربيع متهمكا:

- إن فهموها.

حدق في وجهينا وبدا أنه يستوعب ما نقول ويتفق معنا في الرأي، لكنه يقاوم ذلك حتى لا ييأس ويظل مندفعاً بدون تردد. وقال بعد فترة صمت، وهو يفكر:

- كلوا، كلوا، يجب أن نكون أقوياء ولدينا الطاقة والحشاشة

فهذا اليوم هو الحاسم.

هزرت رأسي وأنا أمضغ وأفكر بما قال، بأخر جملة، هذا اليوم هو الحاسم، كما اعتدنا منه أن يردد في كل موقف أو مفترق طرق: هذا اليوم هو الحاسم، هذه المعركة هي الحاسمة، هذا الحصار هو الحاسم، وهذا القول هو قول الفصل. وأنا أفكر، أهنأك حسم أو فصل في دنيانا؟ هو عسكري ونيراني ويرى الأمور بمنظور الحسم. وأنا أشك، بل متأكد، أن لغة الحسم أبعد منهم، لكن القائد لا يأبه، أو ربما يأبه، لكنه يخفي ويكابر حتى يظل مندفعاً مثل الصاروخ نحو هدفه، وهذا ما جعله يخترق كل الصعاب ويخرج منها منتصراً كل مرة. لكن اليوم، مع القادة العرب وزعماء القدس، هل يحسمهم؟ هل يفحمهم؟ أمل ذلك. ضرب الطاولة ضربة خفيفة وفز واقفاً، وقال مطمئناً كأنها يطمئن نفسه:

- كلوا، كلوا، أنا أكلت وسأذهب إلى غرفتي لبضع دقائق، ثم نلتقي في الاستقبال في الثامنة تماماً. الطريق تستغرق 15 دقيقة أو 20 دقيقة على الأكثر. علينا أن نكون هناك قبل الموعد حتى نستعد ونسبqهم، وحتى نقابل القائد العام قبل الاجتماع ونتفاهم، جاهز؟ قال ربيع بلهجته العسكرية مكرراً:

- جاهز، جاهز.

ورأيانا يمشي بسرعة ونشاط، بدون حطّة، وشعرة الكثيف منبوشاً أو واقفاً كما لو كان لم يمشطه أو تركه مبلولاً بعد الحمام وجف من تلقاء نفسه بدون بريل كريم، كما أصبح مألوفاً لدى كل الرجال، معظمنا، لكنه هو، مسكين هو! وأحسست بإشفاق فجائي لا أدري سببه. أهو خوفي عليه من الخذلان والنكسة؟ أم لأنّي تذكّرت ما قاله حول فقره وقد أنفق ما يملك على الثوار والمختبرات؟ أم لأنّي تذكّرت

.....

ما قاله زعماء القدس في المقهى خلف ظهره؟ أم ما أتوقع أن يقولوه
اليوم في وجهه، وهذا اليوم هو الحاسم؟

45

كان قد نصحه المفتي بلقاء القائد العام للقوات العربية قبل الاجتماع الرسمي ببقية الأعضاء والساسة. أفهمه أن هؤلاء لا يفهمون لغة التقارير والأرقام والخرائط ولا يفهمون ما لحصار المستعمرات من قيمة. كما أن التفاهم مع كل عضو على حدة، وبالذات القائد العام، قد يلين المواقف ويجعلهم جاهزين لأخذ القرار بدون تلكؤ. لهذا وصلنا مكتب القائد العام قبل الموعد بنصف ساعة، وكان ما زال مغلقا، بدون موظفين ولا سكرتير ولا حارس. فوقفنا في الباب ننتظر ربيع وهو يدور حول البناء ويصعد الأدراج وينزلها بحثا عن البواب أو الحارس. بالنسبة لي، كانت تلك إشارة شؤم، فأنا بالعادة أتطير من هذه المؤشرات والبوادر. ربما ورثت ذلك عن الوالدة، وربما بسبب طبعي الشكاك المتشائم، وربما بسبب عدم ثقتي بسلوكيات الناس وطبائعهم. لهذا بدأت أهز رجلي وأنا أستند إلى الدرايزين وأراقب القائد بطرف عيني خوفا عليه من الإحباط المبكر. لكنه كان غير عابئ، أو بدا لي في تلك اللحظة غير عابئ. كان يجلس على درجة عالية، أعلى مني، وقد فرد الملفات والخرائط على البسطة وأخذ يراجع ما ينوي قوله ويعيد تحديد المواقع على الخريطة ويؤشر عليها بأسهم وعلامات ودوائر. كنت أعلم أنه رتب الأوراق وراجعها قبل مجيئنا عدة مرات، وأغلب الظن أنه لم ينم يوما حقيقا تلك الليلة، وظل ساهرا يراجع ويدرس ويدقق، كما لو كان طالبا مجتهدا يستعد لامتحان عسير، أو محام على وشك المرافعة أمام القضاة في إحدى المحاكم.

أخيرا جاء ربيع وبواب المبنى خلفه بالبيجاما، وقد وضع

فوقها معطفا باليا من مخلفات الجيش أو الحراس، وفي يده رزمة مفاتيح تطلق رنيناً واصطكاكا مع كل درجة يصعدها. كان من الواضح أنه كان نائماً وسحبه ربيع من فراشه، لهذا ظل مسدل العينين لا ينظر في وجوهنا، إما غضبا من إزعاجنا أو خجلا من أن نرى آثار النوم في عينيه وجفاف الريق حول فمه.

سألته متشككا:

- اليوم عيد أو عطلة؟

لم يجبني، لكنه فتح الباب، وقال بغلظة:

- لا أحد يجيء الآن. الدوام الساعة 9 ولا أحد يجيء قبل

9:30.

سأله ربيع:

- والقائد العام؟

قال البواب دون أن ينظر إلينا:

- السكرتير الساعة 9:30 ومدير المكتب الساعة 10 والقائد

العام الساعة 12.

- نعم!!

صاح ربيع فرن صوته مدويا في خواء بيت الدرج واهتز صداه:

- القائد العام الساعة 12؟ موعدنا معه الساعة 9:30!

لم يجب الرجل بل فتح الباب، وأخرج المفتاح من السكرة،

وقفل راجعا من حيث أتى ورزمة المفاتيح ترن وتصطك مع كل درجة

ينزلها. التفت ربيع، وقال لي بدهشة وغضب:

- القائد العام الساعة 12؟!

قال قائدنا خلف ظهري:

- ادخل، ادخل، سيبك منه، هذا نائم.

قلت مدمدما:

- الظاهر الجو كله نائم.

نزل ودفعني في كتفي:

- ادخل، ادخل، يا متفائل.

يسخر مني، طبعا يسخر، ويصفني دوما بالمشائم، لكنه اليوم يقول لي يا متفائل حتى يبعد صبغة التشاؤم عني وعنه فلا أغضب، ولا هو يغضب، على أمل أن نظل نواجه العثرات بصدر رحب فلا نفتر لأن لهم، كما كان يقول، هي النتائج. وهذا ما أسمعه يقول في كل مرة: المهم يا جماعة هي النتائج، المهم يا جماعة هو الهدف، المهم يا جماعة ما نحقق. مفهوم؟ مفهوم. ربيع يقول مفهوم، جاهز، وأنا أقول بوجه جامد: طيب وحاضر. لكني اليوم، وأنا أدخل المكتب المعتم وأبدأ بفتح الستائر ورائحة الدخان البات وغياب الملفات والأضابير تلفع وجهي بقيت صامتا ولم أقل طيب وحاضر.

لم يكن البواب مخطئا، إذ أن قدوم الموظفين لم يبدأ إلا بعد التاسعة والنصف، وفي العاشرة شرف مدير المكتب والسكرتير والآذن، وبدأنا نشم رائحة القهوة والشاي بالزهورات واليانسون، والآذن يروح ويحيي بفناجين القهوة وأكواب الشاي والزهورات، وطبعا نالنا من كرمهم عدة أكواب وعدة فناجين قبل أن نسمع الهرولة ووقع البساطير على الأدراج، ودخول المرافقين والحراس، وتكتكات السلاح والسلام العسكري، وقرع الأقدام، ثم دخل القائد العام كما لو كان من أصحاب الجلالة أو الفخامة. فوقف الموظفون في أماكنهم، وقال الواحد بعد الآخر بصوت ذليل متهدل: صباح الخير سيدي، صباح الخير سيدي، سيدي، سيدي، صباح الخير، ولم يقل هو صباح النور أو صباح الفل لأي منهم. وانتظر منا وهو يشملنا بنظرة كريمة أن نقول له صباح الخير

أو سيدي فلم نقل، بل وقفنا بتهذيب واحترام وانتظرنا منه أن يقول لنا صباح الخير، لأنه هو الداخل علينا ولسنا نحن، وهو المتأخر أكثر من ساعة ونصف ولسنا نحن، وهو من حدد الموعد وتوقيت الساعة ولسنا نحن. وحين رأنا جامدي الوجوه بلا ترحاب ولا نفاق ولا سيدي، قال مبتسماً بلا حرارة وكأنه فوجئ بوجودنا في هذا الوقت:

- أنتم هنا؟ أهلاً، أهلاً.

ثم التفت كي لا نرى حمرة عينيه وانتفاخ النوم في أوداجه، ونادى بصوت مجلجل:

- يا أبو محمود أين القهوة؟ هات قهوة وشاي للبهوات.

قال قائدنا وهو يجلس مكانه حيث كنا، في مكتب السكرتير أمام مكتب القائد العام مباشرة:

- شربنا القهوة وشربنا الشاي من ساعة ونص.

لم يعلق القائد العام، ولم يلتفت بل دخل المكتب كالطاووس، وهو يقول وظهره لنا: أهلاً وسهلاً شرفتوا. وانتظر منا أن نلحق به، فلم نفعل، وبقينا جلوساً ننظر إليه من موقعنا، وهو يجلس على الكرسي الدوار، ويفتح الجوارير، ويخرج أشياء، ويدخل أشياء وعلى وجهه سياء الجد والأهمية. وبعد دقائق نظر إلينا من مكانه وعلى وجهه علامة استفهام أو تعجب، فلكزني القائد وقال لي: قم يا الله بنا، أمرنا الله. ودخلنا، هو وأنا، وبقي ربيع ينتظرنا عند السكرتير بتجهم.

أشار لنا بيده أن نجلس في المقعدين الجلديين أمام مكتبه، لكن قائدنا توجه فوراً إلى طاولة الاجتماعات الفخمة وفرد الخرائط والتقارير، وقال بأدب وجدية وهو يشير بيده:

- إذا تكرمت.

بعد لحظة صمت وتفحص، خرج القائد العام من وراء مكتبه،

واقترب من الطاولة، وهو ينظر إلى ما كان مفرودا أمامه بنظرة باردة مستاءة، وقال بلهجة مندهشة:

- ما هذا؟

حاول قائدنا أن يكون صبوراً ومهذباً ومحترماً لأنه، كما كان يقول لنا، الحق العيار لباب الدار، والعبرة في الثمرة والتنتاج، والمحتاج ذليل حتى لأهله. وها نحن أذلاء أمام أهلنا، أو من يمثل أهلنا، والسلطة الأعلى والأهم من أهلنا لأن بيده الأمر، ومخازن الأسلحة، وما يقول هو القول الفصل والحاسم.

بدأ قائدنا يشرح وذاك ينظر ويتفرج ويتابع يد قائدنا وهي تشير إلى الخريطة، ويقول بحماس:

- هذه هي القدس، وهذا باب الواد، وهنا القسطل ودير ياسين والعيزرية وهذه مستعمرة كذا وتلك مستعمرة كذا ومن هنا، من باب الواد تمر قوافل التموين ومنعناها، أغلقنا الطرق كلها، كل الطرق، حتى الطرق الترابية أغلقناها بمتاريس وحواجز، والشارع الرئيسي بدبابات لغمناها وحصنا المرتفعات بالمجاهدين وأبناء القرى، كل القرى، أهالي القرى كلهم معنا، رجالاً ونساء وحتى الأطفال هم معنا وتحت الندهة، لكن السلاح، مشكلة السلاح والذخيرة، هذه مشكلة، مشكلة المشاكل، وبدونها يُحترق الحصار. نحن الآن في موقع القوة، جوعناهم، وبدأوا يصرخون ويستنجدون ويتواسطون، وشرتوك يصيح في مجلس الأمن أن المستوطنين أكلوا الأعشاب، وبدأوا يرسلون القناصل ورجال الدين كي نتفاهم، لكننا نقول يلقون السلاح أولاً ثم نتفاوض ونتفاهم. أترى يا حضرة القائد ما فعلناه؟ نحن فعلاً دوخناهم.

قال القائد العام وهو ما زال ينظر إلى الخريطة ولا يلتفت إلى

وجه قائدنا حتى لا يراه:

- طيب، عظيم، هذا جيد.

قال قائدنا وهو يشير إلى حزمة الملفات والتقارير:

- وهذه التقارير والإحصاءات والأرقام كلها مدققة مدروسة

وراجعتها بنفسى أولاً بأول، وما عليك إلا أن تلقي نظرة عليها لترى كم هي مرتبه مضبوطة. كل التفاصيل موجودة، كل الأسماء والأرقام والعناوين، كل شيء، كل شيء. كل ما هو هنا مدقق ومضبوط أنا راجعته، تفضل انظر.

سحب القائد العام كرسيًا وجلس حول الطاولة، وهو ينظر

إلى الخريطة بتمعن ولم يتطلع إلى الملفات والتقارير، وقال ببرود:

- طيب، عظيم، جيد، جيد.

وأخذ يتبع بسبابته فوق لون البحر الأزرق، ويسأل بفضول:

- وأين يافا؟

أشار قائدنا بأصبعه:

- هذه يافا.

- وأين حيفا؟

- هذه حيفا.

- وتل أبيب؟

- هذه تل أبيب بجوار يافا.

رفع رأسه، وقال مستطلعًا:

- ولماذا لا تحاصرون تل أبيب بدل القدس؟

- لأن مستعمرات القدس بوضع أضعف، وإمكانية محاصرتها

بإغلاق باب الواد وقرانا فوقها في المرتفعات من الناحية العملية أيسر وأسهل.

قال القائد العام متأملًا الخريطة بتمعن:

- يافا على البحر.
- نعم على البحر.
- وهي ميناء.
- نعم ميناء.
- وتل أبيب؟
- أيضاً ميناء؟
- وميناء حيفا؟
- مليء بقوات الانجليز.
- لكن القدس ليست على البحر وليست ميناء.
- القدس يا حضرة القائد العام ليست على البحر لكن أهميتها معروفة، من ناحية دينية وتاريخية، أنت تعرف، كما أنها قلب البلد، قلب فلسطين، لهذا أحاطوها بسوار المستعمرات، أترى هذه وهذه وهذه... قاطعه القائد العام:
- طيب، طيب، لكنني حتى الآن غير مقتنع بمخططكم وبهذا الحصار وأحبذ حصار تل أبيب لأنها قريبة من يافا.
- نظر إلي قائدنا وكنت أجلس على مقعد لصق الحائط وأنظر إلى الإثنيين أمامي، وأنا مكثب وقلبي مظلم. ظلام في قلبي وأمام عيني، لكنني أرى واسمع وأفهم ما يدور، والقائد يرمقني خوفاً من تشاؤمي وما سأقول بعد الجلسة، لكنه كان بحاجة لمن يشاركه إحساسه، فابتسمت له، لكن ابتسامتي كما يبدو كانت مرة، فزاح عينيه عن وجهي وعاد يركز على مشروعه وأنا أهمس بسري: يا رب، يا رب! ويبدو أن الرب سمع ندائي، إذ بدأ الأعضاء بالتوافد فوجدها القائد العام فرصة ممتازة كي يهرب من إلحاح قائدنا ومن هذا الخليط المعقد من الأسماء لقرى ومدن سمع عنها، أو لم يسمع، وأكوام الملفات والخرائط.

46

لم يرق للقائد العام عدم فهمه. أحسّ بالغضب - وربما بالحق - لأننا اكتشفنا مدى ضحائته وجهله. ظل متجهماً الأسارى رغم الترحيب والبشاشة في وجوه أصحاب المعالي والعطوفات، ممثلي أعضاء الجامعة العربية، وظل يناديهم يا بشوات ويا بكوات وهو يشير إلى المقاعد الجلدية حول الطاولة الفخمة المخصصة للاجتماعات المصرية. وفورا، قبل أن تسخن مقاعدهم، نادى السكرتير حتى ينادي أبو محمود ليحضّر القهوة والشاي والزهورات بسرعة البرق، لأن الاجتماع هام جدا، والجميع بحاجة للصحبة قبل عقد الاجتماع، لأن مصير القدس وكامل فلسطين لا يستطيع الانتظار، فالوضع خطير. وتفضلوا القهوة والشاي يا حضرات، وتفضل يا عزيزنا عبد القادر. قال له "عبد القادر"، هكذا حاف من غير باشا أو بيبك أو سيد، ورفع الكلفة على اعتبار أن عبد القادر هو فعلا عزيز ولا يتمتع بالشوية والبكوية ولا هو سيد. وبرحابة صدر وحماس واجتهاد منقطع النظير بدأ قائدنا يشرح الوضع بحرارة وهم يتابعون إصبعه على الخريطة، وأحيانا مسطرته، لأنّه استبدل أصبعه بمسطرته، كفه الكبيرة كانت تغطي أسماء المدن والقرى والمستعمرات وتضايقهم.

كان يشرح وهم يرشفون القهوة والشاي والزهورات ببطء وجود، لأنهم - كما عرفنا وكما هو واضح - ملتزمون بعهد قطعوه لبريطانيا بألا يعطونا سلاحا ولا ذخائر، وألا يدربونا على حمل السلاح، وألا يعترفوا بالجهاد المقدس وقائدنا. لهذا شكلوا جيشا جديدا وقيادة جديدة تكون تحت إمرتهم وتصرفهم واحتفظوا بسلاح جمعوه باسمنا

واسم فلسطين وخبأوه في مخازنهم وتعهدوا ألا يتدخلوا في الوضع إلا بعد انسحاب قوات الانتداب من فلسطين. وعليه، وخوفاً من تقولات الناس والصحافة وإرضاء للهيئة وضمايرهم، فهم يسايرون قائدنا عبد القادر ويستمعون لشرحه وهم يهزون الرؤوس ولا يعلقون بنعم أو لا، حتى بح صوته وطلب ماء ليشرب ويريح أوتاره ويأخذ نفساً. فاستغل القائد العام تلك الوقفة ونادي السكرتير، كي ينادي أبو محمود، ليأتيهم بجلبة أخرى من القهوة والشاي والقيصر، لأن بعضهم ما زالوا يسعلون من أثر البرد، ويعانون رشوحات مزمنة والتهابات في الجيوب والقصبات منذ بدء الشتاء، فيسان ما زال في أوله، وهواء الشام في هذا الوقت جليدي جارح.

كانت الغرفة واسعة وطاولة الاجتماعات مكتظة، ومع الجلبة الجديدة للقهوة والشاي والقيصر أخذت أراقبهم من مكاني - لصق الحائط - وأحاول أن أدقق بخلفية كل واحد منهم حتى أعرف من هو معنا، ومن هو ضدنا، ومن يقف على الحياد ولا ينطق.

كانت الطاولة كبيرة جداً، فصّلت خصيصاً لأعضاء الجامعة العربية، بالإضافة لأعضاء اللجنة العسكرية التي شكلوها لتشرف وتمهئ وتهندس وتخطط وتسعف وتسليح وتموّن جيش الإنقاذ، جيش العرب والمسلمين، لإنقاذ القدس والأقصى والقيامة وكنيسة المهدي وغير المهدي، وتدمير تل أبيب معقل الغزاة الطامعين، فتطهر جنوب سوريا - كما أسموها - وتعيد الجنوب إلى حضن الشمال والعروبة بعد تنقيته من الأغراب والشوائب.

بدأت أعد من أول الطاولة لآخرها. بدأت بالقائد العام في قمته وقائدنا في الوسط بين ممثل الأردن بقائدها البريطاني القدير

غلوب باشا^٤ وممثل جلالة الملك فاروق عاهل وادي النيل بقطرية الإفريقيين مصر والسودان^٥، وعلى جانبي المذكورين ممثلي لبنان وسوريا. وفي مواجهة هؤلاء جلس كل من ممثل العراق برئيس وزارته المعروف نوري السعيد^٦ وإلى جانبه ممثل السعودية وأبار النفط والأرامكو^٧، ثم اثنين من زعماء القدس - من استقبلانا وشرّبانا الشاي في مقهى الشام، وقالوا عن شاربي قائدنا شوارب دوجلاس وتفصيل الجامعة الأميركية. كلهم كانوا جلوسا إلا قائدنا الذي وقف في الوسط منحنيا على الخريطة الكبيرة المفرودة أمامهم، ويده مسطرة خشبية يشير بها إلى المواقع، ويتلفظ بأسماء غربية عن المستعمرات العربية المحيطة بالقدس وفي مواجهتها القرى والخربات العربية. طبعاً لم يكن على معرفة بتلك الأسماء والمواقع إلا ممثلينا، زعميي القدس، لكن هذين، كما تبين لنا في مقهى الشام، وكما سمعنا من مخبرائنا، هما وبقية الشلة، هم من شجعوا الجامعة العربية على عدم تنصيب قائدنا قائدا للقوات العربية لأنّه بنظرهم، شاب متهور و متمرد وخارج على العرف والتقليد منذ صباه، لا يلبس إلا المبهدل والكاكي، ويربي شواربه على الموضة، ويقوم بحركات استفزازية لا تستفز أقطاب وشيوخ عائلة الحسيني فحسب، بل وبقية شيوخ ومشايخ العائلات المقدسية والناבלسية، لأنّه قدم لأبنائهم النموذج والقدوة، وها هم يقلّدونه ويحاولون اللحاق به. بعد هذه الجردة لكامل الأعضاء حول طاولة الاجتماعات لتحرير القدس وباقي فلسطين فهمت أن قائدنا لن ينجح قط، لن يقنعهم، ولن يفهمهم - كما كان يقول - ولن يأخذ رصاصة ولا نكلة

٤ غلوب باشا: ضابط بريطاني كان القائد العام للجيش العربي الأردني

٥ الملك فاروق: خلع عن العرش بثورة ١٩٥٢

٦ نوري السعيد: كان معروفاً بميوله الغربية

٧ الأرامكو: شركة البترول الأميركية في السعودية

من جانبهم. فهم بالإضافة إلى عدم ثقتهم به كنموذج اجتماعي أرعن ومتمرد، فهو سياسيا في موقع الخصم لبريطانيا، بريطانيا الصديقة اللدودة المستعمرة الودودة، وهي ما زالت فوق الرؤوس وتقمعهم. ومن لا يحس بذاك القمع يبرره ويدافع عنه ويؤكد أن معاداة بريطانيا شر ماحق، وأن مسايرتها وتهدة خاطرها قد يأتينا بالامتيازات والمنافع. وعليه، فقد كان الاجتماع سوريا أو شكليا، لكن النتيجة حتمية.

رشفوا رشفات بطيئة من القهوة والشاي والقيصر، وعادوا يتابعون المسطرة الخشبية في يده ويشنفون الأذان لشروحاته.

قال قائدنا بكياسة، بعد كل الشرح والتفسيرات والحماسة، إن كل ما يطلبه من حضراتهم ومعاليهم هو أسلحة حديثة، تساعد على الاستمرار في حصار المستعمرات، لأن حصار المستعمرات.... وأعاد القصة من أولها عن أهمية حصار المستعمرات وكيف أن اليهود، بعكسنا نحن، يخافون على أرواحهم وأبنائهم، وغير مستعدين لدفع الثمن في سبيل بلد ليست لهم، وأرض لم يشرشوا فيها ولا تمت لهم، وإنهم إذا دفعوا الثمن، دفعناهم ما يكلفهم المال والأرواح والخسائر، يهربون من المعركة كما النعاج، وبالتالي نحرر أنفسنا وأنفسكم ونخلص منهم.

حين قال قائدنا "نحرر أنفسنا وأنفسكم" رأيت الامتعاض على وجوه الجميع - إلا زعيمى القدس الذين بدأ يتعاطفان مع ما يقول، لأنهم سمعا منه ما يعرفان أنه واقع ومعقول وبعيد كل البعد عن الرعونة والتهور. بدأ يحسان بالقلب الذي ساهما فيه - مع شلثهم - حين رأيا الوجوه العربية - الغربية والأجندات الزائفة والعمل الفج. بدأ يحسان أنها أقرب إلى صف قائدنا من ممثلي الدول - شبه الدول، وقواد الجامعة العربية. لهذا، حين قال قائدنا "نحرر أنفسنا وأنفسكم" لم يمتعض هذان، بل هزا رأسيهما، بعكس الآخرين الذين تبادلوا نظرات

الشك وبعض الغضب، لكن، وبما أنهم لا يريدون المواجهة وكشف الأوراق، قالوا لقائدنا: تفضل، أكمل.

أكمل قائدنا بنفس طويل استغرَبته لآتي أعرف كم هو عصبي ونيراني ولا يجب المماطلة والتسويف ويختار أقصر الطرق للوصول لأهدافه. لكنني تذكرت ما قاله وهو يهدئني ويعلمني: الحق العيار لباب الدار، والمحتاج ذليل حتى لأهله. وها أنا أراه يطبق حرفيا ما كان يقول، لكنني أعرف أن النفاق إذا استمر وجود الآخرين وعدم تجاوبهم ستفلت عفاريتهم من عقالها وينفجر في وجوههم ويفجّرهم. لكنه ما زال في طور الهدوء ومحاولة الإقناع والإفحام واستدرار المشاعر ونخوتهم. قال لهم:

- هذه فلسطين العربية بين أيديكم، والشعب العربي يناديكم، لأنكم الزعماء والقادة ومصير الأمة بمختلف أقطارها أمانة في أعناقكم. وإني والله لن أتردد عن وضع عنقي تحت سيوفكم إذا ترددت أو تهاونت أو عصيت أمرا من أوامركم. أنا جندي من جنودكم، ولا مأرب شخصي لي إلا تخليص الوطن وتحرير القدس. القدس الجريحة تهيب بكم. أنقذوها، أنقذونا فننقذكم.⁸

قال القائد العام بفراغ صبر:

- أنا يا عبد القادر قلت لك إني غير متحمس لحصار المستعمرات وأفضل حصار تل أبيب حتى نقضي على رأس الأفعى ونحقق نصرا تاريخيا ونمحقهم.

نظر إلي القائد ثانية كما نظر إلي أول مرة حين أثير النقاش حول هذه النقطة بالذات، وهذه المرة رأيت وجهه يبيض كما لو أفرغت دماءه

٨ كلمات الحوار في معظمها حرفية، أوردها أمين سر الجهاد المقدس

قاسم الرياوي في: مخطوط عبد القادر الحسيني ١٩٥٠

من عروقه، فبدأت أرجف وأحسب الحساب لانفجاره. لكنه عاد وتماسك وأخذ يفسر للحضور ما كان فسرهُ للقائد العام حول الصعوبة العملية لحصار تل أبيب وسهولة حصار مستعمرات القدس، وأن هذا الحصار مستمر منذ أسابيع وقد بدأ يؤتي أكله، لأنهم بدأوا يرسلون القناصل ورجال الدين للتواسط، وأن ما علينا إلا أن نزيد الضغط حتى نتنصر ونسحقهم.

قال أحدهم:

- ولماذا لا تزيد الضغط؟ اضغط كما تريد ونحن معك.

اضغط وخلصنا وخلصهم، من يمنعك؟

- لكنني قلت لكم إنني بحاجة للسلاح والذخيرة. أعطونا سلاحاً وذخيرة وأنا أعدكم أن أخلص على المستعمرات في غضون أيام، وبعد ذلك أتوجه إلى يافا وحيفا، وطبعاً تل أبيب، وقبل 15 آيار، أي قبل خروج الإنجليز من بلدنا، نكون قد طهرنا كل المدن والقرى ونعلن الدولة المستقلة ونقدم طلباً للجامعة العربية ونلتحق بهم.

- وماذا تنتظر؟ خخلصنا يا أخي واخلص منهم.

- نحن بحاجة للسلاح! أعطونا السلاح نخلص منهم. وإذا

فشلت بتنفيذ وعودي أهدروا دمي، اشنقوني، ارموني بالرصاص هنا في الشام، في أوسع ميدان من ميادين الشام، فأنا رهين أوامرهم.

وحين وجد جموداً في وجوههم بدأ صوته يرتفع ويتهدج:

- كل ما أطلبه هو السلاح لأن سلاحنا قديم وذخيرتنا مبردة

لا تصلح، كنت اشتريتها من السوق السوداء في بيروت ومن الصحراء الليبية، يعني بقايا الحرب ورومل. سلاحنا قديم وذخيرتنا باردة ومعظم بنادقنا لا تصلح لصيد العصافير ورصاصنا شبيه بالدمدم. نحن بحاجة لبنادق حديثة ورشاشات وذخيرة، لأن البنادق والرشاشات بلا ذخيرة

أشبه بالخطب وعصي الرعيان، يعني المناجل أفضل منها. نحن بحاجة
لسلاح وذخيرة!

ظلوا صامتين جامدين بلا حراك ولا تجاوب، فرفع صوته
درجة أعلى:

- بعد 15 آيار ستحتاجون لأضعاف ما أطلبه الآن، وحتى
عشرة أضعاف لن تكفيكم لأن الأوان يكون قد فات، ويكونون قد
استقروا وثبتوا في مواقعهم.

جمود وصمت، ونظرات متبادلة وخرج ووجوم.
بدأ يستعطف ويسترحم، فأحسست بقلبي يتهاوى، لأنني
أعرف كم هو عزيز النفس ومتمرد، لكنه كان ما زال يطبق ما كان يقول
حول ذل المحتاج حتى لأهله.
تهدج صوته:

- أستحلفكم بالله، أناشدكم. القدس أمانة في أعناقكم،
أنقذوها.

هب القائد العام، وقد نفذ صبره:
- ولماذا كل هذا الاهتمام بالقدس أنا لا أفهم! لو كانت
على البحر لاستحقت، لكنها ليست على البحر. لو كانت على البحر
لساعدناك وأعطيناك، لكنها ليست على البحر ولا هي مرفأ.
أنا صعبت، وقائدنا صعق وجمدت عيناه واهتز شارباه وأصابه
الخرس ولم ينطق. لم يكن يظن أن الغباء والجهل والعشبة قد يصلوا إلى
هذا الحد. فقد القدرة على النطق وظل صامتا شاحبا ينظر إلى أعلى
الحائط فوق رأسي، وقد وجد أن النظر في عيني لن يسعفه ويخفف عنه،
بل ربما يستفزه. واصل القائد العام وقد وجد في بعض الوجوه استغرابا
وشكوكا، فقال موجهها الكلام لقائدنا حتى يفحمه بالضربة القاضية:

- يا عبد القادر، يبدو أنكم تخافون من اليهود وتقدرون قوتهم أكثر من اللازم. نحن نعرف الحقائق والأوضاع أكثر منكم. لدينا من القوات ما نستطيع بها القضاء على اليهود أينما كانوا، في أي مكان، وليس فقط في فلسطين. دعهم يحتلون القدس وحيفا ويافا وكل فلسطين ونحن نسترجعها في رمشة عين. لكن الآن لا نستطيع الآن، أنت لا تعرف الظرف، الآن نحن نعرف الأوضاع والظروف والحقائق. وضرب على الخريطة بكف يده وكرر ثانية، وهو يتلفت في الوجوه بحثاً عن دعم:

- نحن نعرف الأوضاع والحقائق أكثر منك.

صاح قائدنا، وقد فقد صبره وأعصابه:

- أنت تعرف؟ ماذا تعرف؟

قال القائد متحدياً، وقد أصيب في كبريائه:

- أعرف كل شيء، أعرف، أعرف.

انحنى قائدنا وقرب وجهه من وجهه، وهدر فيه:

- أنت لا تعرف قراءة التقارير، ولا تعرف قراءة الخرائط.

أنت لا تعرف أين القدس وأين حيفا ويافا وتل أبيب. أتحداك أن تشير بيدك هذه أمام الجميع أين تقع القدس وحيفا ويافا، وأين تل أبيب.

واستدار بعينه في الوجوه محملاً، وقد فقد كلياً أعصابه:

- أتحداكم كلكم أن تقولوا لي هنا، على هذه الخريطة، أين تقع

عكا وصفد وأين نابلس؟ أنا لا ألومكم بل ألومه هو، وقد وكلتموه بالإشراف على جيشكم المبجل القابع فوق مزابل جبع ويحرسها. هل تعرفون أين جبع، وأين يقف جيش الإنقاذ؟ جبع يا سادة بعيدة عن خط الاشتباك 15 كيلومتر، ونحن مجاهدو الجهاد المقدس على بعد أمتار من المستعمرات ومواقعهم. نحن وسطهم ونحيط بهم ونواجههم. ويومياً،

يوميا نشتبك بهم. تريدون تحرير فلسطين من مقاعدكم؟ وأنت يا سيادة القائد العام تريد كسب المعركة من هنا؟ من مكتب بيداً الدوام الساعة 12؟

وضعت يدي على عيني، لأنّي خفت من البقية، لكنه واصل بصوت مبحوح وقلب ينزف:

- شكّلتكم جيش الإنقاذ بعد أيام من تشكيلي للجهاد المقدس، مع إني لم أشكله إلا بتشجيع منكم. طالبتوني بكتب رسمية أن أقوم بتشكيل الجهاد المقدس وفرق وخلايا في القرى والمدن للمقاومة الشعبية، ولديكم قوائم بأسماء القواد والمواقع وعدد ما لدينا من سلاح وذخيرة. أنتم تعرفون كل ذلك، وتعرفون أي أنا ابن البلد وأعرف مداخلها ومخارجها وكل مدنها وقرائها والجبال والوديان والمحاجر. ورغم ذلك أوكلتم قيادة جيشكم لرجل منكم ولم أقل لا ولم أتمرد. قلت آمين وألف شكر وكثر الله خيركم. لكنكم الآن تنكرون علي حقي في الجهاد وتبخلون بالسلاح، وأنا في عز المعركة ورجالي ينتظرون ويتحرقون ويحترقون في مواقعهم. ماذا أقول لهم حين أرجع؟ أقول لهم تريدون قتلنا؟ تريدون ذبحنا؟ تريدون تسليم رقابنا لليهود ليذبحونا ذبح النعاج، وقد بات لديهم الطيارات والدبابات والمصفحات وأسلحة تتساقط عليهم كرش المطر من بريطانيا وفرنسا وأميركا وحتى روسيا وبواخر العتاد تنقل لهم كل يوم، كل ساعة، أسلحة ودبابات وذخائر، وأنتم أخوتنا وأهلنا وعشيرتنا تبخلون علينا ببعض الأسلحة وهي مكسدة في مخازنكم؟!

قال أحدهم مهدئا:

- لا يوجد لدينا سلاح يا عبد القادر! أمن المعقول أن يكون لدينا سلاح ونبخل به عليكم.

قال القائد بصوت أخفض وقد خجل أن يواجههم بكذبهم ويفضحهم:

- لديكم، لديكم، أنا أعرف.

قال آخر:

- أبدا، أبدا، أنت غلطان، لا يوجد لدينا سلاح، أنت واهم.
قال محتدا:

- بل لديكم سلاح وذخيرة. لديكم رشاشات ومدافع، لديكم
ذخيرة بالأطنان وكلها جديدة وحديثة.

- من قال لك؟ هذا كذب، هذا ادعاء وإشاعات.

صاح هادرا وهو يضحك بهستيريا:

- إشاعات؟ إشاعات! ماذا تقولون لو قلت لكم إنى رأيت

الأسلحة في مخازنكم، في المزة، وهى ما زالت في صناديق خشب
وكرتون، ما زالت ملفوفة بورقتها وتصل سقوف مخازنكم، أنا رأيتها
بعيني هذه وعانيتهما وأحصيتها وهذه قوائم بأعدادها وأنواعها. ماذا
تقولون؟ أصدق عيني أم أصدقكم؟

بهتوا وحملقوا، وبعضهم وضع يده فوق عينيه، وآخر خبا فمه

بيده، فصاح القائد العام محتدا وقد افتضح الكذب:

- هذه الأسلحة لنا، لجيش الإنقاذ.

صرخ قائدنا:

- ما زلت تقول جيش الإنقاذ؟ وأين هو جيش الإنقاذ؟ أنا

قلت لكم أن جيش، الإنقاذ ما زال يحرس مزابل جبع، وقلت لكم أن
جبع تبعد 15 كيلو مترا عن خط الاشتباك، ولم يدخل معركة واحدة
حتى الآن، ما زال ينتظر أوامرهم والأسلحة المقدسة في مخازنكم.
جيش الإنقاذ لم يدخل معركة واحدة حتى الآن، أما نحن، أنا ورجالي،

لم نترك قرية أو مدينة إلا قاتلنا فيها ونزفنا فيها واستشهدنا فيها. من منكم يعرف ما ذقناه؟ من منكم يعرف ما عرفناه؟ نحن نعرف البلد ونعرف اليهود ونعرف الإنجليز ونعرف تفاصيل خطة نخشون. قولوا، قولوا، من منكم يعرف خطة نخشون؟ لم يجبه أحد. عاد يكرر:

- أنا ابن البلد، ابن موسى الحسيني، من منكم لا يعرف ما فعل أبي؟

همس أحد زعماء القدس، لم يسمعه قائدنا لكني سمعت:

- بدأ يتشدق بأجناد الحسيني وما خلف!

وقال آخر:

- ويتشدق بذكر المجاهدين والفلاحين وكل ما لديه 600 مقاتل لا أكثر!

سمعه قائدنا، فقال مصححا:

- بل 700 مقاتل من فضلك، وهؤلاء ال 700 مقاتل أفضل بكثير من 7 آلاف مختل.

قال القائد العام مزايدا:

- نحن لدينا 15 ألف.

وقال آخر:

- بل 50 ألف°.

قال قائدنا ساخرا:

٩ عدد أفراد جيش الإنقاذ لم يزد عن ٥ آلاف نفر من المتطوعين العرب وبعض الفلسطينيين. قيل عنهم ينقصهم التدريب والانضباط، يختبئون ليلا ويتغيبون عن مواقعهم بدون رقابة، ولم يشاركوا إلا في معركة واحدة خاسرة بعد ١٥ أيار ١٩٤٨. كتب فيهم القنصل المصري في القدس في حينه تقريرا يشكوهم ويتهمهم بما أسلف وذكر أسماء أعداد ممن استخدموا السلاح لابتزاز المواطنين وبيع أسلحتهم في السوق السوداء في بيروت.

- 50 ألف وانشاء الله يصبحون 60 ألف كعدد القوات اليهودية.

قال القائد العام مستهجنًا:

- 60 ألف؟ عدد اليهود 60 ألف؟^{١٥}

قال قائدنا مؤكداً، وهو لا ينظر في وجه القائد العام:

- عدد قوات اليهود 60 ألف جندي مدربين أحسن تدريب ومسلحين بأحدث سلاح ولديهم قيادة قديرة ومخططات، وأهم مخططاتهم خطة نخشون، هل تعرفون خطة نخشون؟
أجاب القائد العام متباهياً بمعرفته التي حصل عليها قبل الاجتماع:

- نعرف، نعرف.

لم يلتفت إليه، وقال للآخرين:

- هو يعرف لأنّي قلت له عنها هذا الصباح، لكنكم انتم لا تعرفون. خطة نخشون يا سادة، هي التالي: أولاً، يريدون اغتيال القادة بما فيهم أنتم هنا في الشام. ثانياً، يريدون إفراغ البلد وتهجير الناس بارتكاب مذابح جماعية. ثالثاً، يريدون فلسطين، كل فلسطين، من البحر إلى النهر ثم اللحاق بكم حتى الفرات والسيطرة على كل عاصمة عربية.

أخذوا يتهايمسون ويهمزون ويهزون الرؤوس ويكشون الهواء بأيديهم، فقال القائد العام وسط الفوضى:

- ما هذه المبالغات والإشاعات؟ تريد تخويفنا وبث الرعب في قلوبنا؟ العب غيرها.

- ألعب غيرها. طيب خذوا.

١٥ هذا العدد أقر به القيادي العسكري الإسرائيلي رائيغال ألون.

- وأمسك برزمة التقارير ورماها في وجوههم، وهو يصيح:
- أَلْعَبَ غَيْرَهَا؟ هَذَا فَهْمُكُمْ لِلْجِهَادِ وَالِدِفَاعِ عَنَّا وَعَنْكُمْ؟
 أَنْتُمْ خَوْنَةٌ. أَنْتُمْ مَتَأَمَّرُونَ عَلَيْنَا وَقَبَضْتُمْ ثَمَنَ رُؤُوسِنَا وَثَمَنَ فِلَسْطِينَ.
 قَالَ أَحَدُهُمْ وَهُوَ يَقُومُ عَنِ الْكَرْسِيِّ، إِمَّا دَرءًا لِمَا هُوَ أَسْوَأُ أَوْ
 خَوْفًا مِنَ الْقَائِدِ الْمُسْلِحِ أَمَامَهُمْ:
- نَرْفَعُ الْاجْتِمَاعَ لِنَتَبَايَحَ:
- فَأَيَّدَهُ أَكْثَرُ مَنْ وَاحِدٌ، وَقَالُوا مَعًا وَهُمْ يَفْزُونَ عَنْ مَقَاعِدِهِمْ:
- نَرْفَعُ الْاجْتِمَاعَ لِنَتَبَايَحَ.
- وَرَفَعُوا الْاجْتِمَاعَ لِلتَّبَايَحِ.

47

جاءت ياسمين ويدها صينية نحاسية مزخرفة بالآيات، كانت أمها قد جاءت بها معها من الشام. على الصينية فنجاني سحلب بالزنجبيل ما زال البخار يتصاعد منهما، وقد زينت وجهيهما بالفستق الحلبي وجوز الهند. دفعت الباب ببطء شديد، وهمست وهي ما زالت على العتبة: بعده نايم؟ وضعت إصبعي على فمي حتى لا توقظ المسكين وقد بات عزيزا وقريبا، أقرب وأعز، وأنا أقرأه في خالي ومع القائد في اجتماع الشام. خالي أعاد تصويره شابا حيا شديد النقاء سريع التأثير عميق الوفاء. عاد ربيع لمخيلتي شابا حلوا في ربيع العمر، وما عدت أرى في هذا العجوز المريض تحت اللحاف إلا صورة عن ذاك الشاب. اختلطت المشاعر في صدري وبت رقيقة يملأني الحب ولم أعرف إن كانت عواطفني تجاه الرجل هي ما أحسست تجاه القائد أم تجاه ربيع، فعذرت أمني وتذكرت أنني بدأت تلك الرحلة بحثا عنها فوجدت الشاب، البطل الشاب وربيعة الشاب، وأنا شابة. اختلطت الذكريات وأحاسيسي، وبت أعيش في ذاك الزمن ولم أخرج، لأنني بالفعل عدت صبية، وربيعة صبي، والبطل الشاب هو قائدنا والدنيا ربيع.

أشرت لياسمين أن تضع الصينية وتغادر، وبإشارة ثانية أسكتها، وبإشارة ثالثة أبعدتها، حتى لا توقظ النائم وتوقظني. لكن العجوز المريض تحت اللحاف فتح عينيه، وقال بصوت مبحوح من أنف يخن: وجدت أملك؟ ولم ينتظر جوابا بل استدار لجهة الحائط، وهو يتنفس بصوت مسموع، وعدت أنا أنعم بالصمت.

48

اجتمعنا الثاني من أجل السلاح كان مع المفتي والأمين العام، أمين الجامعة العربية. أخذنا المفتي إلى مكتبه وقال لنا إن الرجل ألطف من هؤلاء وأذكى وأنظف. الرجل سياسي متعلم، الرجل خلاق ومثقف، والرجل يقرأ ويفكر ولديه نزعة قومية. قلنا أمين، أحسن من بلاش، ودخلنا المكتب يحدونا الأمل بقلب مفتوح.

استقبلنا الرجل بالأحضان، وعانق قائدنا وقبّل رأسه، وهو يقول بحب وحماس:

- رفعت رأسنا يا بطل.

فوجئ قائدنا وهو يرى الرجل الكبير يستقبلنا بهذا الحماس والعواطف، وقال بخجل:

- أنا ما فعلت إلا الواجب.

- بوركت، بوركت، والآن، ما آخر الأخبار وأخبارك؟

وبدا قائدنا يقص القصّة من الأول... حصار المستعمرات، خطة نخشون، تأمر الإنجليز مع اليهود لإخلاء البلد وتهجير الناس، تزويد اليهود بالمال والسلاح والطائرات والدبابات والبواخر، ونحن ليس لدينا ما يكفي حتى نستمر على الأقل بحرب عصابات. كل ما نطلبه هو بعض القطع من مخازنكم، وبهذا السلاح ننهي الإشكال، لأن حصار المستعمرات يوجعهم، والشارع اليهودي يتدمر ويطالب القيادة بحل سريع، ونحن ما زلنا بموقع القوة، لأننا بالفعل نخنقهم، لكن السلاح هو المشكلة، أرجوك يا حضرة الأمين العام، أعطونا بعضا مما لديكم يجزيكم الله، وهذا المعروف أنا لن أنساه طوال حياتي، هذا

الجميل في يوم ما سوف أردّه.
استغفر الله، استغفر الله، قال الأمين العام وهو خجل من
الموقف، ومن نفسه، ومن القادة العرب، وتعهد بالتوسط لنا حتى
نعود إلى فلسطين وبيدنا سلاح. لكن للأسف! بعد ساعات من الأخذ
والرد والاتهامات في اجتماع دام حتى الصباح، خرجنا من الاجتماع كما
دخلنا، صفر اليدين، مكسوري الفؤاد والخيال، وبدون سلاح.

49

الاجتماع الثالث من أجل السلاح كان يوم 5 نيسان، في الصباح التالي للاجتماع السابق، ولم نكن قد نمنا سوى ساعتين. أيقظنا خبر سقوط القسطل، وأخبار مشؤومة عن سقوط قتلى وجرحى مدنيين وعدة شهداء. هرعت وربيع إلى قاعة الإفطار على أمل ألا نجد قائدنا هناك، ولم يكن. عدنا إلى غرفته فوجدنا الباب موروباً غير مغلق، والقائد بملابسه العسكرية كما لو لم ينام، أو نام بها، بدون الحطة، شعرة واقف، يذرع الغرفة كنمر هائج. حين رأنا بدأ يهدر ويصرخ، ويقول هذه بداية النهاية، ويشتم ويهدد ويتوعد. استمعنا لنزيفه بصمت مطبق والخوف والأسى يعتصرنا. وقف قبالي، ووجهه يتفجر بالحمرة، وعيناه كما لو كان يبكي أو يعاني رمداً ربيعياً، فطأطأت رأسي ولم أنظر خوفاً منه أو خوفاً عليه، فقال لي بصوت هادر:

- اطلب لي المفتي والأمين العام ودبر لي اجتماعاً من تحت الأرض.

هرعت إلى التلفون، وبدأت أجري الاتصالات. وبعد أقل من ساعة تمكنت من تحديد موعد لاجتماع جديد، وهمسيت للمفتي بالسماحة بأن وضع القائد جداً مقلق، ورجوته أن يكلمه حتى يهدأ وألا يقوم بعمل خطير متسرع. قال المفتي دعني أكلمه. فكلمه طويلاً وحذره من القيام بأي عمل مخل لأن الوضع لا يتحمل. نحن بحاجة لكسب الآخرين، قال له، وأعاد تذكيره بالأمثال المألوفة مثل الحق العيار لباب الدار ونريد العنب لا مقاتلة الناطور وما شابه. كما أن ناسنا هناك بحاجة لقيادة تترى في معالجة الأمور، ومقاتلوننا يواجهون

أصعب الظروف بعد القسطل، والبلد بحاجة لحكمتنا والصبر والأناة والتدبر. وأنهى المكاملة بآية قرآنية، فرأينا القائد يهز برأسه ودموع شفافة في عينيه، ويقول همسا: آمين، آمين.

رغم هدوئه الشكلي كنت أعرف أنه يحس بحزن مضاعف. حزن على الأهل والقسطل، وحزن وقهر مما واجهناه هنا في الشام. حزن هناك وحزن هنا، ونحن في حيرة من أمرنا، أنا وربيع، ولا نعرف كيف نتصرف. هل نرجوه النزول معنا لقاعة الإفطار حتى يهدأ ونسري عنه، أم نحضر له الإفطار لغرفته، أم نجلس أمامه في الغرفة بانتظار هدوئه وما يأمر به؟

بعد دقائق من الصمت بدت كالدهر قفز عن سريره، وقال

لنا:

- يا الله يا شباب، يا الله نفطر. نحن بحاجة لبعض الطاقة حتى نستمر بهذا الصراع. هذا اليوم هو الحاسم. ومشى أمامنا فلحقنا به، وأكلنا لقيحات معدودات وشربنا الشاي، ثم توجهنا لاجتماع جديد، وصراع جديد من أجل السلاح، ومن أجل البقاء.

ابتدأ الاجتماع كالعادة بالوجوه نفسها وعلى الطاولة نفسها ونفس الأجواء، مع القهوة والشاي والزهورات والقيصر والابتسامات والمصافحات، التي غالبا ما تنتهي بالقبْل وكأنهم لم يروا بعضهم منذ أشهر، والقائد العام بوجه مشرق، وشعر ممشوط ومسبب بالبريل كريم، وقطع ملونة كالسيفساء تزين صدره تشير لمكانته وإنجازاته. وراعى في هذا اليوم، وهو الحاسم، أن يزيد عددها ويبرزها بشكل ملفت حتى يقنعنا ويفحمننا فنغض النظر عن تياساته ثم نجثو على ركبنا نلهج بالحمد وأمجاده.

بعد شرب القهوة والشاي والقائد العام يتصدر الطاولة، وبسمة واسعة على شفثيه بدأ الاجتماع. كان منشرح الأسارير بشكل ملفت كما لو كان سقوط القسطل انتصارا له وهزيمة كاسحة لخصمه تساهم في تثبيته تحت قدميه بعد أن دُل وهزم وكُسرت عينه. بدأ الاجتماع بقول يقطر بالسم والتشفي. قال:

- الآن وقد سقطت القسطل، قل لي يا سيد عبد القادر، (قال "سيد" لا للاحترام بل للتنديد) قل لنا بوضوح إن كان بإمكانك أن تسترجعها، لأنها كما كنت تقول هي الأهم والأقوى بين كل القرى في المرتفعات. قل لنا بوضوح، هل تسترجعها أم أن نقوم نحن بذلك؟¹¹ احمرو وجه قائدنا لكنه تمالك أعصابه، والتفت عن القائد العام، وتوجه بالكلام للآخرين:

- القسطل يا بشوات مأخوذة من كلمة "castle" ومعناها حصن. بناها الرومان لمنعتها، وما زالت القلعة موجودة وليس من السهل استرجاعها ببنادق إيطالية وتركية وألمانية اشتريتها من السوق السوداء ولملمتها من الصحراء الليبية. هذا طبعاً بالنسبة لنا، أما بالنسبة لمن لا يعرفون طبيعة البلد ومسارها فمن الصعب عليهم الوصول لها، لأنهم يجهلون الدروب المفضية إلى القمة. أما نحن، أبناء البلد، وخصوصاً أهالي المنطقة من المجاهدين، فباستطاعتهم التسلل من بطن الجبل واختراق الدروب الخلفية. وأنا أعدكم وأتعهد لكم باستردادها فوراً وفي أسرع وقت إذا قدمتم لنا مدفعية وبعض قطع السلاح من مخازنكم. أنا أتعهد باحتلال القسطل وكامل المستعمرات وأقدمها لكم مستسلمة قبل 15 آيار، وإذا فشلت حاكموني واشنقوني هنا في الشام،

١١ كلمات الحوار في معظمها حرفية، أوردها أمين سر الجهاد المقدس

قاسم الرياوي في: مخطوط عبد القادر الحسيني ١٩٥٠

في أكبر ميدان من ميادين الشام، واجعلوا مني فرجة لكل العرب والمسلمين.

عاجله القائد العام خلف ظهره بقولٍ أحد من الخنجر:

- يا أهل فلسطين! لا شغل لكم إلا طلب السلاح، وليس لدينا المال والسلاح، نخلقه لكم؟!

قال قائدنا ببرود شديد دون أن يلتفت خلف ظهره:

- واجبك كقائدنا أن تعيرونا السلاح إن نحن طلبناه أو احتجناه. أعيرونا السلاح، إعارة فقط، ونحن نرده بعد التحرير مع بوسة يد. نحن ندافع عنا وعنكم. وهذا السلاح جمع باسمنا واسم فلسطين.

القائد العام، حتى يلفت النظر إليه ويبعد الآخرين عن الاستماع لقائدنا، أخذ يقوم بحركات بهلوانية برفع يد وإنزال يد ويقبض على الهواء بقبضته، ويقول ضاحكا:

- هذه دبابات، خذها، تفضل.

ويرفع يده اليسرى ويقبض على الهواء، ويقول ضاحكا:

- وهذه مدافع، خذها حبيبي، خذها، تفضل. تريد سلاحا؟ ما فيه سلاح. تريد مالا؟ ما عندنا مال. نحن نعرف شغلنا ونعرف الحقائق ولدينا ما يكفي من المعلومات.¹²

نظر إليه قائدنا باحتقار وقرف، وقال وهو يشنك حاجبيه وزوايا شفتيه:

- ما هذا الهراء! ما هذا العبث بمصير الناس والأوطان؟! ألا تحجلون؟ هل أشحذ منكم ما ليس لكم؟ هل أشحذ منكم أموال

١٢ كلمات الحوار في معظمها حرفية، وردت في مخطوط أمين سر الجهاد المقدس: عبد القادر الحسيني ١٩٥٠

الشعب؟ أين ذهبتم بشانمئة بندقية ومئة وعشرين رشاشا تبرع بها أخوتنا اللبنانيون واشترطوا أن تسلم لنا، لي شخصا، وليس لكم؟ مخازنكم مليئة بأنواع الأسلحة فلماذا تصادرون ما ليس لكم؟ لديكم أسلحة في مخازنكم تكفي جيشين، بل عشرة، رأيت بعيني.

قال القائد العام ببلاهة أخجلت الحضور، فغضوا النظر، وأخذوا يتهامون فيما بينهم، لكنه واصل بصفاقة:

- هذا السلاح يلزمني لأفواج جديدة سأشكلها. أف يا سما نزل مورتر لعبد القادر!

لم يجبه قائدنا وتجاهله ووجه كلامه للمجموع، وقال بلهجة يائسة وصوت مبحوح:

- لا تعطوني سلاحا من مخازنكم؟ على الأقل أوعزوا لقيادة جيش الإنقاذ حتى يعيرون مدفعية لمساعدة المجاهدين في جبال القدس.

سأله القائد العام وراء ظهره:

- تستعيرون المدفعية؟ وماذا لو استولى عليها اليهود. التفت قائدنا وواجهه مباشرة، وسأله سؤالا حاول أن يرده إلى صوابه:

- ومن الأهم؟ القدس وفلسطين أم مدفعيتكم؟
رد الآخر بنبرة متشككة كما لو كان مدفوعا بالحرص والتدبر:
- وماذا لو انتصر اليهود وأخذوها؟
- وما فائدة المدفعية إذا انتصروا؟
أسقط في يده فزهقت روحه، وقال غاضبا:
- خلاص ماكو، ماكو مدفعية، ماكو سلاح وماكو مال وماكو قنابل.

جن جنون قائدنا، وبدأ يصيح كنمر هائج:
- سيسجل التاريخ أنكم السبب في ضياع القدس وبقيّة
فلسطين. أنتم المسؤولون عما سيحل بنا وبكم. أنتم متآمرون مع
بريطانيا. أنا سأموت ولن أستسلم. سأحتل القسطل بلحمي ودمي
ولحم رجالي ولن أستسلم، وسيسجل التاريخ ما فعلتم. أنتم متآمرون.
أنتم خونة.

وسحب الخريطة الممدودة على الطاولة، قبض عليها، لوح بها
ثم قذفها في الوجوه وهو يصرخ:
- أنا مستقيل من قيادتكم.¹³

وخرج من الباب وصفقه بعنف فاهتز البناء، ومشى أمامنا
كأنه يركض، ونحن لحقناه حتى خرجنا، ووقفنا على الرصيف تحت
السماء ونحن نلهث. وبعد دقائق من الصمت والوجوم والتنفس
سمعناه يقول:

- اسمعوا يا رفاق. هذه بداية النهاية وليس أمامنا إلا التالي:
إما أن نتحرر هنا في الشام، أو نذهب إلى بغداد ونختفي فيها، أو نعود
إلى فلسطين ونموت هناك، ماذا ترون؟

وقبل أن يسمع إجابتنا، سمعناه يقول:

- نذهب إلى فلسطين ونموت هناك.
ومشى أمامنا كأنه يركض، ونحن أسرعنا ولحقناه به.

١٣ كلمات الحوار في معظمها حرفية، وردت في مخطوطة قاسم الرياوي
أمين سر الجهاد المقدس: عبد القادر الحسيني ١٩٥٠

50

طريق الرجوع كانت صعبة. كنا كحفنة أيتام مطرودين من حفل لئام. كانت قلوبنا مكسورة وإحساس بالخذلان والمهانة يجللنا. أحسنا أننا بلا أهل ولا صاحب وبلاد العروبة تلفظنا. لم يبق لنا ما نقاتل به إلا ما قال قائدنا، لحم الأجساد والإيمان وإرادتنا. هل كان يصدق ما قاله، أن الأجساد والإيمان وإرادتنا ستكون المعجزة وتنقذنا؟ لو كان يصدق ما قاله، فهل كان ينفخ ويتنهد وما بين الفينة والأخرى يطلق حوقلة وتكبيراً أو يدمدم بأبيات شعر يحفظها أو قرصها حين كان مشرداً في غربته وعاد هنا ليعيش فجيرة أوطانه؟

قلت له وأنا أسمع أبيات الشعر تنطلق منه، بيتاً وراء بيت ثم البسملة أو التكبير، وتعود الأبيات لتندحرج كحبات عقد مفروطة تقفز قفراً، تسلم من الخيط وتندحرج:

- لمن هذا الشعر يا قائدنا؟

لم يجبني بل التفت إلي يتأملني بعينين ساخرتين وبسمة صفراء محزونة. كان جميلاً حتى في حزنه وانكساره. الوجه الأبيض وقد خلت منه الحمرة يعلوه الشحوب، والشارب الأسود الممتد على شفثيه يبرز حيويته وعنفوانه، وعينه الصاحيتان الناعمتان الحساستان كعيني أب حنون أو شاعر. لا خشونة فيه ولا قسوة، ولو لم أكن أعرف ماضيه وحاضره وأعماله وقابله مصادفة في الشارع أو في أحد البيوت، لقلت رب أسرة متفرغ، وأب لعشرة أطفال أو أكثر، وزوج سعيد في زواج مريح! كل مرة أكتشف وجهها جديداً أقول لنفسي هذا هو الأصل. وبعد يومين أو ساعتين أو دقيقتين أكتشف وجهها لم أنحيله أو أحلم به.

وجه العسكري، وجه الوالد، وجه القائد، وجه العالم في مختبره، وجه الدبلوماسي الواضح، لأن الأشياء حين يقولها تخرج من قلبه وضميره. يدخل في الناس ويتشكل في أي إناء بدون ادعاء وتصنع، مع الفلاحين والبسطاء ووفود النساء والقناصل والصحفيين ثم الشاعر.

سمعته ينشد، ونحن نخرج من درعا ونشرف على الرمثا وسهل الأردن:

حدثيني عن بلادي حدثيني
خبريني كيف سادتها عداها
حدثيني كيف داسوا في حماها
حدثيني يا بلادي حدثيني
سألته متهيئا:

- عبد الرحيم محمود؟

التفت إلي وابتسم برقة ولم يجب، فتوقعت أن يكون الشعر لعبد الرحيم محمود، لأنني أعرف كم كان مغرما بعبد الرحيم محمود، لكنه واصل الإنشاد بأبيات لا تشي بعبد الرحيم محمود وأسلوبه. كانت أبسط، كانت أوضح، كانت تشير إلى نفسه بأسلوب دقيق ومباشر، وكأنه يعالج بها هبوطا في النفس ليرفعها:

إني الصبور على البلى وكأنني الطود الأشم
هوج الرياح تحطمت والطود ثابت لم يضم
تزداد نفسي منعة ما حل خطب وادلهم

رددت البيت الأخير من خلفه بنبرة ساخرة حزينة، وكأنني أقول لنفسي هذا مكابرة وادعاء، هذا عبث. فالتفت إلي وحقق في وجهي يتفرسني. ورأيت في عينيه الحائيتين نظرة أب يؤنب ابنه فلم أستطع منع نفسي عن التعبير عما بي، فأعدت البيت وأنهيته بعلامة

سؤال وتعجب: تزداد نفسي منعة ما حل خطب وادهم؟! فأجابني
بأبيات ربما كتبها لأولاده، وها هو يوجهها إلي كما لو كنت واحدا منهم
أو شبيها لهم:

بني خذوا مني نصيحة والدٍ عركتُ نواصي الدهر والدهر
قلْبُ

كما الدهر عبد للجلود فإنه وإن جمَعَ الويلات بالحزم
يغلبُ

حينذاك تأكدت أن الأبيات له فقلت مذكرا:

- يا قائدنا أنت تشعر!

هز رأسه وقال بإحساس:

- ومن منا يا ولدي لا يشعر؟

أحسست بكلمة ولدي تنزل على رأسي كالسكين، اخترقت
قلبي وهزتني لأني تذكرت أولاده وتذكرت أني أصغره لا في السنين
فحسب، بل بالإيمان. هو كان مؤمنا وصادقا حين قال سأقاتل بلحمي
ولحم رجالي، وأنا شككت بكلماته وعقلي المرتاب أو عزلي: أمن المعقول
أن نقاتل الطيارات والدبابات والمدافع بلحم الأجساد؟ لكنه هو لم
يشكك، بل آمن أن الويلات بالحزم تغلب. فمن أين الحزم يا قائدنا؟
من أين الحزم؟

قلت له وأنا أعتصر مرارتي وأفتح قلبي وأعترف له أني شكاك
ومتقلب. أحيانا أندفع كالمجنون، وأحيانا أتحاذل وأتذبذب وأشعر
بالضعف فأترجع. ماذا أفعل؟ هل أنا سيء؟ تأملني باسمها وقال بحنان:
- وما وجه العيب في ذلك؟ كلنا نضعف.

- لكنك أنت لا تضعف!

- من قال لك؟

- أنا أقول، لأنني أراك كالصخرة لا تتزحزح.
- من قال لك؟
- تواجه اللثام ولا تفتر.
- من قال لك؟
- وتظل تقول إن الولايات بالحزم تغلب.
- هذا قلبي.
- ظننته عقلك.
- العقل يشك، العقل يمحص ويحلل، لكن القلب إذا آمن لا يتزحزح، يصمد كالصخر.
- لكني أنا . . . أنا أصغر منك.
- طبعاً أصغر.
- لم أقصد العمر.
- لا تتواضع. أنا أثق بك. أنت الأمين على سري، وأخوك رفيقي وصديقي وأختك داوتني وأنقذتني، هل تتذكر؟
- أنا الأمين على سرك لكنني أعترف، وبحزن أقول، لست الأمين على سري. أنا دوماً أشك وأتأرجح. لا أصمد يوماً على فكرة.
- غيرت حزبي عدة مرات.
- أهنأك سبب؟
- أبحث عن حزب يقنعني، يملأ قلبي، يجيب أسئلتني وظنوني. أريد أن أجد ما يملأني كالحب العظيم، كحنان الأم، ثابت، واضح، لا يتغير، كحنان الأم، أنت تعرف!
- لا لم أعرف. أنا عشت يتيماً من صغري، لكن جدي وجدتي لم يشعراني بغياب الأم. كنت محاطاً بدفء الجدين وربما من كثرة الدلال أفسداني.

- أنت أفسدت؟ من يصدق!
- بلى أفسدت. حصلت على كل شيء بلا تعب وبشكل سخي. كانا يريدان تعويضي عن حنان الأم فنشأت مدللاً نزعاً أتته دلالة وفخارا. مال وجاه وفتوة. كنت متباهيا مزدهيا إلى أبعد حد، وشبابي ساهم بالتغريب. كنت جميلا تلك الأيام.
- قلت بحماس:
- ما زلت شابا وجميلا، ما زلت، ما زلت.
- هز رأسه كما لو كان ابن ثمانين وقال بحسرة:
- كانت أيام! كنت صغيرا ثم اكتشفت أن كل ذاك وهم زائل. رأيت أبي الشيخ الجليل المتنفذ يضرب بالعصا مثل العبيد، فقلت لنفسى، إن كان هذا الرجل وهو الأبرز، وهو الأهم والأغنى يضرب بالعصا كما لو كان عبدا أو دابة، ولم يشفع له غناه ومركزه، فكيف يعاملون من هم أضعف؟ كيف يعاملون البسطاء والضعفاء والمحتاجين؟ كنا في المظاهرة نعبر بطريقة سلمية ولم نلجأ للعنف، فداسوننا بالخيول وضربونا بكعوب البنادق والسنجات، ثم الرصاص كزخ المطر، وأبي وقع على الأرض بعد الضربة، لم يحترموا شيخوخته وضعفه، وأنا صغير ومراهق. فبدأت أتمرد وأتتمرّد وفي الجامعة...
- في الجامعتين.
- في الجامعتين، ربما تعرف.
- سمعت من الناس.
- وأبي الجليل مات بعد الضربة بأيام، وأنا أتحدى وأتمرد وخرجت على العرف والمألوف فاتهموني بالرعونة والتهور، لكن الثورة أخذتني وأبو كمال تبناي. أبو كمال الرجل الكبير الكريم الحنون المتقشف، أعطى كل شيء ولم يأخذ.

- وأنت مثله.
- تعلمت منه. فما نفع المال والوجاهة؟ ما نفع الأملاك والعقارات؟ متاع الدنيا، وهم زائل. أبو كمال باع أراضيه قطعة قطعة ولم يأخذ شيئاً لنفسه. باع الدنيا ونسي عائلته وأولاده ووهب نفسه لجهاد الحق. ذاك الرجل، ذاك العظيم، كيف أنساه!
- ورغم ذلك لم يقدره ولم يحترموه وعاملوه كما عوملنا.
- وربما أكثر! نحن لدينا الجهاد المقدس والانتصارات، ولم تبق صحيفة في العالم العربي إلا ذكرتنا ومجدتنا. لم نخسر معركة واحدة. بعد معركة بني نعيم لم نخسر موقعة قط وتعلمنا. وباعترافهم نحن الأبطال، والورقة الراحبة في أيدينا. مئة ألف أسير في قبضتنا والناس يشيدون بقيادتنا ويثقون بنا. علمناهم معنى الثقة، أثبتنا لهم فجادوا علينا بكل ما لديهم وأعطونا. لكن السلاح، مشكلة السلاح هي المشكلة. وأبو كمال واجه ما واجهناه، فذهب إليهم يستنجد بهم، وها أنت ترى ما فعلوا بنا.
- ثم انتحر؟
- يقولون انتحر. ربما انتحر. لو كنت مكانه ألا تنتحر؟
- أنا قد أهرب.
- تهرب؟ إلى أين؟ كانت الثورة قد فسدت، وتناحر الزعماء والمخاتير والمشايخ، فذهب إلى الشام يستنجد بهم، ذهب كما ذهبنا، وعاد محزوناً كما عدنا، ولم يبق لديه أمل في شيء. ربما أحس أنه بحصار فلم يهرب، واجه قدره.
- الناس يقولون لو انه هرب لكان أشرف.
- أشرف؟ أشرف! لكن إلى أين؟ الثورة كانت في ورطة. فوضى وسرقات واغتيالات وخراب داخلي وتدمير وقطاع الطرق

وأمثال الزبيق وأبو جلدة صالوا وجالوا، كانت النتيجة محتومة. لم يبق لديه أمل في شيء. لو هرب واختبأ ثم ماذا؟ أن يعتقلوه ويشنقوه أمام الناس وهو القائد؟ أن يذلوه ويسحلوه، فيقدم للناس أبشع صورة؟ عاش عزيزا ومات عزيزا. ظل بعزته وكرامته. حتى الإنجليز انحنوا له، احترموا شجاعته وعزة نفسه. قائد الحملة الإنجليزي وقف أمام جثته وأدى السلام العسكري لجثمانه. أهنك شرف أكبر وأعظم من هذا الشرف؟

- وهل نحن بحاجة لاعترافهم حتى نكون أشرف وأعظم؟
هل كان عليه أن ينتحر؟

- ما كان لديه سوى ذلك. واجه قدره، وهو مؤمن.
توقفت عن النقاش ولذت بالصمت. تذكّرت ما قال حين خرجنا من الاجتماع مهزومين مذلولين مكسوري الفؤاد والخاطر. قال لنا: إما أن نتنحّر هنا في دمشق، أو نذهب للعراق ونختفي فيها أو نعود إلى فلسطين ونموت هناك. فهل نحن عائدون لنموت هناك؟ إذن ما قاله عن الطود الأشم وتزداد نفسي منعة ما حل خطب وادلهم ليس أكثر من مكابرة وشحذ للهمة وهبوط النفس. أما الحقيقة والواقع فهو ما لاقاه أبو كمال. أحس أنه محاصر فلم يهرب، واجه قدره.
قلت أذكره:

- وماذا نفعل بأحبّتنا؟ إذا متنا نحن فمن يبقى لهم؟
قال بقلوب:

- لهم المولى. ربك يرحمنا ويرحمهم.
والتفت إلى النافذة، وكنا قد وصلنا ضواحي القدس، ورأينا أفواج الفلاحين يحملون الصرر والفؤوس ويمشون ببطء، يجرّون الأقدام وبضعة حمير وأغنام وكلب جائع أمام الجمع، يركض وأنفه

مغروس في التراب يبحث عن عظمة أو كسرة خبز. النساء يحملن الصرر والأطفال وأكوام القش، والرجال يحملون العصي والمعاول ويسوقون الحمير المحملة بأمتعة قليلة، حصر وفراش وباقات قمح خضراء لم تحصد بعد، كانت مجزوزة من جذورها، لم تنضج بعد. أشار بأصبعه وقال بوجوم:

- أترى هؤلاء؟ هذا بالضبط ما سيحل بنا إن نحن تخلينا عن حصار المستعمرات. إن سقط الحصار حاصرونا، نصبح مثل هؤلاء بلا مأوى نبحث عن عمل وعن لقمة، ونأكل القمح وهو أخضر، ونصبح كالشركس والأرمن، لا أهل ولا أرض ولا مأوى.

عزّ علي ما كان يقول، فقلت محتجا بحرارة:

- لكن الشركس والأرمن كانوا بلا

ولم أكمل، ونظرت ثانية لما وراء الزجاج أتأمل المشهد أمام عيني وخلف ظهري، وهمست بحزن:

- مثل الأرمن!

قال بعد فترة صمت، وهو ما زال ينظر من النافذة ويرى الربيع يملأ بالخضرة أراضينا:

- هذا نيسان، بداية الربيع ودوران الحياة. أنا ولدت في نيسان، أنا أول برج في الأبراج.

- يعني الحمل!

سأل باسم:

- تعرف بالأبراج؟ ماذا تعرف عن برج الحمل؟

- برج الريادة والقوة والحب والعشق والتهور. برج الاندفاع والتحدي، برج الطاقة، برج العشاق.

سأل بسخرية:

- يعني الحمل ليس وديعا وليس بريئا!
- بل هو بريء يا قائدنا، ووديع وأليف كحمامة، لكنه حين ينقر، يصبح كالصقر إذا تهيّج، يصبح كالنسر، يصبح كالغول. أطلق قهقهة مكتومة:
- أتراني كالغول يا سليل اللسان؟
- قلت بإحساس:
- بل كالحمل على صدر المسيح. ألم تر كيف يصوره الأوروبيون؟ هم يقصدون أن المسيح هو الحمل. نظر إلي بطرف عينه:
- وقتلوا المسيح، وقتلوا الحمل!
- قلت ملغزا:
- لكن حملنا لن يقتل، لأنه كالنسر في أجوائه، فوق أرضه، فوق ربيع. هذا نيسان يا قائدنا، هو بدء الربيع ودوران الحياة. أطرق متأملا:
- أو بدء الموت.
- وأضاف ووجهه لصق الزجاج:
- أهنأك حياة إلا بالموت؟
- والتفت إلي:
- إن مر نيسان على خير، قل مر الخطر ونسينا الموت. وواصل ببطء وهو يلتفت بعيدا عني:
- وإن لم يمر، فخذ حملك يا شاعر وودعنا.
- وصمت وصمت ولم أنطق، لأن العبارة صدمتني وجعلتني أشك، فماذا لو غاب وودعنا؟ ماذا لو لم يمر نيسان على خير وذهب الحمل وودعنا؟ ماذا نفعل؟ ماذا إذن سيحل بنا؟ تحل علينا لعنة نخشون؟

51

وصلنا القدس فوجدنا المقر خلية نحل . مجاهدون ومتطوعون و فرق الإسعاف المتناثرة ونساء الوفود والجمعيات إلا ليزا . ليزا تتركنا في هذا الوقت وتذهب إلى لبنان وسعادة؟ هل فقدت الثقة بنا إلى هذا الحد حتى تنضم إلى سعادة؟ ماذا باستطاعة سعادة أن يفعل في هذا الوضع؟ وهل سيقدم أكثر مما قدمناه؟ نقتم على سعادة وزوبعته وعلى لبنان وسوريا وكل الجامعة العربية. بدت لي القدس رمادية، فراغ موحش، والناس ضياع وبرد قارس.

نظرت حولي، فرأيت نساء الجمعيات، ونساء الوفود والمرضات يحطن بالقائد، يتعبدنه بعيونهن، وينظرن إليه كما لو كان يسوع المخلص! ماذا رأيين؟ رأيين الجمال والقوة؟ لو أنهن رأين كيف صلبوه في مقر الشام!

خرجت من القاعة أتنفس. الجو المشحون في الداخل يخنق الأنفاس. أحسست بالاختناق. في غرفة القيادة شد وجذب ونقاشات صاخبة، ونساء الوفود كأزيز النحل، ودموع ساخنة وعواطف. لم أطق الحم. نيسان الربيعي بدا ساخنا في ذلك الوقت. خرجت من القاعة أتنفس. وقفت على درج المدخل ورأيت السماء والكيما وغيوم الصنوبر والازراب. وشممت رائحة البارود مختلطة بأعشاب الربيع المحترقة. كان نيسان في هذا الوقت، في كل ربيع، يملأ جبالنا بالألوان. أخضر وأحمر وأزرق وأصفر، شقائق نعمان وقرن غزال وخبيزة. نتسلق الجبال كما الماعز ونقطف الفجيلة ونأكلها، ورجل الحمامة والشومر. نأكل، نقطف، ونجمع الأزهار في باقات ملونة بألوان البر وشعاع الشمس.

وتكون الصخور مبللة بندى نيسان، وفي أحضانها نُقِرَ مليئةً بماء الشتاء نشرها كطيور الحجل والزواحف، نقعي على الصخرة بأربعتنا ونلحق الماء كما الغزلان والماعز. كان نيسان عطر الجنة، ونزهات ربيع جبلية، واحتفاء بالأرض والطبيعة، وجو دافئ من بعد البرد، وفرح بقدوم الصيف. لكن الآن ماذا لدينا؟ ربيع البارود والتفجيرات وهدير مدافع وطائرات؟ وهل هذا نيسان طبيعتنا؟ وهل نشهده حتى تمامه؟

نادتني وداد. كانت تقف عند السور بلباسها الأبيض وقبعتها ترفرف في الهواء وتلمع في الشمس. كم اختلفت وداد وكم كبرت، ابتتها صارت مراهقة وهي ما زالت كالطفلة. كبرت، صحيح، لكن طفلة. نجحت وأبدعت في مهنتها، وتعلمت الكثير في المستشفى والجمعية. لكن العمق، لكن الثقافة والخبرة، من أين لها وهي هنا في هذا الحصار! أختي وداد ليست ليزا! ليزا كانت مثل الشمعة، حالة فريدة، زهرة برية تتضوع في جو غريب. ربما لهذا فضلت بيروت. نحن الحصار يحاصرنا!

نادتني وداد ثانية، وأشارت بيدها تستعجلني. ذهبت إليها واستندت إلى السور بجوارها أنعم بالشمس، ونظرت إلى البناء. كان ما زال يعج بالوافدين والمتطوعين والمجاهدين. فوق الدرج وحول البناء وفي الساحة وأصوات الناس والطائرات وجو احتفالي قاتم، مليء بالشك. عاد القائد، لكن لا سلاح ولا نجندات ولا إنقاذ. جيش الإنقاذ يقف بعيداً، حول قرية جبع. وجبع بعيدة عن حدود القدس. جيش الإنقاذ ينقذ نفسه. حتى هذه لا ينقذها. ونحن هنا بتنا كالسيخ بلا غاندي، ماذا يحدث إن غاب الحمل وودعنا؟

سألتني وداد:

- متشائم؟

لم أجبها. كنت أغرق في أسئلتي وعمق ظنوني. أنا أشك، أنا متشائم. لم أرد أن أثبط عزيمتها. هي أيضا تناضل بطريقتها. تجمع المعونات، ترافق الجمعيات وفرق الإسعاف، تركض من مكان لمكان ويعلموها الشحوب، تخاف وتتطير وتتذمر. ما زالت تؤمن بالتعاون وبالأحلام. ما زالت تؤمن بالأرواح مثل أمي. ما زالت تؤمن بالمرأة.

قالت بوجوم:

- أمي اتصلت، وقالت رأيت حلما أسود. قالت رأيت طيرا كالرخ، أسود كالليل، كبير كالفيل وجناحه مثل الوطواط، غطى السماء مثل الغيمة، غيمة سوداء مثل القطران. أمك خائفة مذعورة، وتقول حسنا، وتقول وحيد، وتقول القائد والأقصى. لم أفهم منها ولم أسمع إلا كلمات، كانت تهذي، وانقطع الخط. أرجوك يا أمين، اتصل بها. قل لها كلمات تطمئننها. قل لها إنك بخير، ووحيد بخير، والقائد بخير، ونحن بخير. نحن بخير، أليس كذلك؟

لم أقل "بخير" لأننا لسنا كذلك. أنا أشم رائحة الموت. لكنني وعدت أن أتصل بها، أقصد أمي، وأن أذهب لأطمئن على وحيد في المحاجر. رجالنا نسفوا محاجر الجيشار اليهودية، ونسفوا جسرا قرب قالونيا يصل المستعمرات اليهودية، جبعات شاؤول ومتفيوري وبيت هاكيرم، نسفوه حتى لا يستخدمه اليهود لفك الحصار. لكن اليهود أعادوا بناءه في نفس اليوم، وأرسلوا المؤن والتعزيزات بطائرات إنجليزية وأميركية. فلماذا أقول الوضع بخير؟ ليس كذلك.

قالت وداد:

- حسنا ذهبت، أثقلها الحمل. بطنها كبير كأنه توأم. أنا أعتقد أنه توأم. كنت أعتقد أن أمي ستفرح، لكن أمي مذعورة، تقول حسنا، وتقول وحيد، وتقول القائد والأقصى. قلت لها حسنا بخير، ستلد

قريبا، ربما توأم، لكن أُمي لم تفرح. تقول رأَت حلما أسود، طيرا كالرخ
فرد جناحيه مثل الغيمة وغطى الأقصى. قالت وحيد والقائد، القائد
بخير، أليس كذلك؟
حاولت أن أداورها وأنسيها. سألتها عن ليزا فحدجتني،
وقالت بأسف وتذمر:

- ما زلت تحبها؟ هي ليست لك.
لم أجبها، فعادت تزن وتذمر:
- أنا قلت لك مئة مرة هي ليست لك، هي أكبر منك وأعقل
منك.

- يعني أنا صغير وعقلي صغير ولا أستحق؟
- أنت حالم، كبيرة عليك، وهي ليست من طيتتنا.
- قصدك الدين؟
- أليس مهما؟
- بالنسبة لي؟ أهذا هو الفرق؟ حين ننتهي من هذا المهم
سألق بها.

- وما الفائدة؟ تعذب نفسك. اعقل يا أمين، اصح، فكر،
أنت لست لها وهي ليست لك. أين عقلك؟
- وهل ظل عقل؟

التفتت إلي وحدقت في وجهي ولمست كتفي:
- ماذا تقصد؟ لم تجبني، هل نحن بخير؟ هل حصلت على
شيء؟ جئتم بالدعم؟ أسلحة؟ دواء وذخيرة؟ هل جئتم بشيء؟
هزرت رأسي يمينا وشمالا، فصاحت بدهوة مليئة بالذعر:
- لم تجيئوا بشيء؟ كيف؟ لماذا؟ هل غضبوا منكم أم ماذا؟
ماذا فعلتم؟ ألم تقنعوهم؟ ألم تشرحوا الأوضاع وتستعطفوهم؟ ألم

تقولوا لهم أنتم الأهل والأخوة والعشيرة؟ من لنا غيرهم؟ انظر اليهود،
يأتيهم الدعم من الغرباء، الانجليز والفرنسيين والروس والأميركان
ومن كل مكان، من كل دين وجنسية، ونحن العرب، ماذا فعلتم؟

- لم نفعل شيئاً، خذلونا. قالوا الإنقاذ وجيش الإنقاذ. جيش
الإنقاذ سينقذنا، وينقذ القدس وحيفا ويافا.

فتحت عينيها وصاحت في وجهي كما لو كنت أنا جيش
الإنقاذ:

- جيش الإنقاذ؟ جيش الإنقاذ ينقذنا؟ أين هو جيش الإنقاذ؟
ماذا فعل جيش الإنقاذ؟ ألم تقولوا لهم؟
- قلنا، قلنا.

- وماذا قالوا؟

- قالوا الإنقاذ.

- يعني فشلتم!

- ماذا نفعل؟ هذا هو الوضع.

- إذن القائد . . .

ووضعت قبضتيها على صدرها، وأخذت تلهث. وحاولت
أن تكمل جملتها لكنها لم تتمكن إلا من ترديد كلمتين اثنتين:

- يعني القائد، يعني القائد . . .

وسكتت وما زالت تشد قبضتيها إلى صدرها وهي تلهث.

التفت إليها لأرى ما حل بها، فوجدت رأسها مشدوداً إلى قبضتيها
وظهرها يهتز. سألتها وقد انتقل إلي انفعالها:

- تبكين؟ لماذا تبكين؟ ما زلنا بخير.

هزت رأسها، وهي ما زالت مطأطئة والقبعة البيضاء ترتعش
بارتعاشاتها، وقالت بصوت مكتوم متعشج:

- ما زلنا بخير؟ وهو بخير؟ كيف يكون بخير وقد خذلوه؟
بماذا يقاتل؟

ومرت طائرة فوق رؤوسنا، فاهتز الشجر، وارتعش السور
خلف ظهرينا، ورفع الناس رؤوسهم ينظرون بقلق، ورفعت وداد
وجهها، فرأيت وجهها الشاحب أصلا وقد احمر والدموع جامدة في
عينها، وهمست بذهول:

- إذن صحيح حلم أُمي. قالت الرخ، طيرا كالرخ، وأجنحة
الوطواط، وغيمة سوداء تغطينا، تغطي القائد وتغطي وحيد وتغطي
القدس. ماذا سيحل بنا يا أمين؟ إن مات وحيد ومات القائد؟ إن
مات وحيد أُمي ستموت. وإن مات القائد كلنا سنموت. إن مات هو
من يبقى لنا؟

- هو رجل واحد، إن ذهب هو يأتي غيره.
التفتت إلي وقد كسا وجهها تعبير الأسف:
- أنت تقول هذا؟ أنت!

أحسست أنها تتهمني بالخيانة والغدر. رأيت في عينها
نظرات الشك كما لو كانت تقول: أنت يا أمين أمين سره، أنت يا أمين
مستشاره، أنت يا أمين أقرب الناس إلى قلبه! وضع فيك ثقته. أنت
المثقف والشاعر، أنت الحساس، أنت الأخلاقي المتعلم وابن الأصول.
أنت يا أمين؟ أنت؟ أنت!

- هذا واقع، وعلينا أن نكون واقعيين ونفكر إن ذهب هو ماذا
نفعل؟

حملقت عينها، وقالت برعب:
- كيف تقول هذا يا أمين؟ أنت تقول عليه! كيف تفكر انه
يذهب؟

- كلنا نذهب في يوم ما، هل هو خالد؟
- صاحت بغضب، وشفتها تشنجان، ووجهها أحمر:
- طبعاً خالد. هو كل شيء. هو الدنيا.
- نظرت إليها أستوعب ردة فعلها الغريبة، ورددت من خلفها:
- هو الدنيا؟!
- وخطر لي أن إحساسها تجاه القائد أكثر من إحساس مواطنة
- مخلصة تثق به، وأكثر من مشاعر ممرضة أسعفته واعتنت به، وأكثر من
- ناشطة تدور في فلكه وتؤمن برسالته وإيمانه. أتكون ودا، هي ودا،
- وهو القائد؟!
- قلت برفق كي أسحب منها ما لا أعرفه:
- هو رجل فقط، ليس نبيا، ولا خالدا، رجل واحد.
- استدارت بوجهها، وقالت همسا:
- هو الرجل.
- يعني ماذا؟
- هو أعظم رجل وأقوى رجل وأحلى رجل. هو كل الدنيا
- وما فيها.
- ليس الدنيا.
- بل كل الدنيا وما فيها. إن مات أموت من بعده.
- لزمت الصمت. عقدت الدهشة لساني. اكتشفت سر الم أفهمه
- وكان أمامي، أمام عيني، واضح كالشمس ولم أفهمه ولم أستوعبه إلا
- الآن. لماذا؟ الآن ودا أختي الصغرى، أصغر مني، وأضعف مني،
- وأقل وعيا وثقافة؟ لأنها ودا المهجورة؟ لأنها شاحبة محدودة؟
- لأنها ليست لامعة مثل ليزا؟ لأنها بسيطة وعادية ولا شيء يميزها
- عن الأخريات؟ لكنها ناضلت باجتهاد حتى تخرج من محنتها وتتفوق

على ظروفها وأزمتهما. وجدت لنفسها طريقا نجحت فيه وآمنت به. ألم تسعفه؟ ألم تجازف بإسعافه وتمريضه وهو الطريد الملاحق واعتنت به في مخبئه وتسترته عليه؟ ألم تخدمه طوال أسابيع وعرفت داخله وخارجه وداوت جراحه وأسعفته؟ ألم تكتشف عظمته ورجولته؟ هو الرجل، قالت بحرارة وعواطف، هو أقوى رجل وأعظم رجل وأحلى رجل. قالت أحلى، هكذا تراه، أحلى رجل. هو الرجل. هكذا تراه وتحس به، فلماذا أستكثر عليها أن تحس به؟ لو كنت امرأة مثلها وعرفته عن قرب، ألا أحسه؟ وكل هؤلاء النساء، لم يعرفنه عن قرب، لكن عيونهن تتوهج وهن ينظرن إليه كما لو كن يرين النور في عينيه والشمس تطلع من وجهه، ألا يحببته ويتمنييه ويحلمن به؟ ربما بالنسبة لهن هو المثال والنموذج؟ وهذا المثال إذا ضاع واختفى وانطفأ نوره ماذا يحل بهن؟ ماذا يحل بنا؟ وهل نختلف جميعا عن وداد وعن نساء الجمعية؟ ألا نرى فيه الدنيا، لأنه القائد والراعي والبديل الفذ عن الوالد؟ وإن غاب الراعي والوالد؟ أليس هذا ما قالوه؟! أليس هذا ما قالته خطة نخشون؟ أليس هذا ما خططوه وما درسوه وما عرفوه؟ أليس هذا هو الواقع؟ أما وداد، أختي وداد كيف تحبه؟ تحب رجلا كبيرا، أكبر منها، أكبر بكثير، من طينة ليست طينتها، كما أحببت أنا ليزا؟ إذن تحرق وتتعذب كما أحترق وأتعذب؟ وأحسست بإشفاق مضاعف، إشفاق علي وعليها، فسألت بلطف:

- تحبينه؟

خفضت رأسها كما لو كانت تداري ذنبا أو خطيئة، وقالت

همسا:

- أنا أعبد.

قلت أذكرها بواقعها كما ذكرتني بواقعي قبل دقائق:

- هو ليس لك، ولا أنتِ له!
هزت رأسها يمينا وشمالا، ورفعت عينيها ونظرت إلي كي
تفهمني وقالت بصوت متقطع:
- هو يا أمين .. حبي الأول!

52

عادت ياسمين لتطمئن على الساخن، وتقول إنها وجدت طبيبا
في الحارة، وسيأتي في الصباح لزيارتنا. وجدنتني أبكي في العتمة والرجل
العجوز يتنفس بصوت مسموع. وقفت حائرة مذعورة، وسألت همسا:

- ما به؟ سيموت؟

رفع رأسه، وقال فجأة:

- لم أمت بعد، اطمئني، أنا كالعفريت.

رفعت صوتها وأشعلت النور واقتربت مني، وقالت بحنان:

- ما بك يا نضال؟ هو لن يموت.

شهقت، وقلت:

- أمي، أمي.

- ما بها أمك؟

لم أجبها، لكنه هو من خلف اللحاف، قال ضاحكا وبصوت

أخن:

- أنا قلت لها، أمها عشقته.

أثيرت ياسمين وقتلها الفضول، فاقتربت مني وركعت عند

قدمي، وقالت بلهفة واستجداء:

- أمك عشقته؟ عشقت من؟

مد أصبعه من تحت اللحاف، وأشار إلي، وقال مغيظا:

- عشقتني أنا.

ضحكت ياسمين وضحك هو، وأنا بكيت ولم أضحك.

53

تمكنت من الوصول الى محاجر الجيشار بشق الأنفاس.
أنزلي السائق على الشارع العام وأشار إلى الهضبة، وقال لي: احذر،
اليهود من جهة الشرق والمجاهدون من كل الجهات، والقرى العربية
والمستعمرات، أنت الآن في أخطر نقطة من الحصار.

مشيت أستظل بأغصان الشجر وفجوات الصخور، وبدأت
أتسلق سفح الهضبة حتى أصل المحاجر في المرتفعات. من بعيد، بدت
المحاجر كأفواه وحوش خرافية، سوداء عفراء بلا أسنان، وخطوط
الهضاب المناسبة تهشمتم في عدة نقاط، وبدت محروقة ومسودة،
وصخور ضخمة مقتلعة وقد تدرجت من أماكنها وقفت مقلقلة
يسندها حجر أو شجرة. درت حولها بحذر وسكون خوفا من نسمة
ترحزحها أو نائمة صوت، لكن الحجارة والشظايا تحت قدمي تصدر
أصواتا مقرقة ودحرجات قد تصل الواد، فأتوقف حتى أسمع رنين
الصدى، وأتلفت فأرى نفسي في البرية، بين الصخور، فوق الأعشاب،
وأمامي خضرة فضية وأخرى خضراء مسودة لأشجار السرو، وهضاب
ملساء مستديرة تهبط بانسياب وتلمع بالندى كالمرايا لشعاع الشمس،
وألوان ضاربة في الزرقة في أبعد نقطة نحو الغرب، وتلال الصنوبر
والزيتون تشكل لوحات سماوية أتأملها باندهاش حزين، وأشرب
التفاصيل وأستوعبها، كأني جئت لأبلعها كي تستقر في أعماقي حتى
تصبح جزءا مني، في ذاكرتي، ونسيج الخيال. وفي يوم ما أكتب عنها،
أشعر لها، أكتب وأقول بأشعاري هنا كنا، منها أتينا، وإليها نعود.
رأيت في البعد، نقطة سوداء فوق الهضبة يعلو المحجر، يستظل

شجرة بلوط منفردة في لوحة زرقاء سماوية في ذاك العراق. يشرف على القرى والمستعمرات اليهودية وخلفه مجاهدان أشعلا موقدا من أعواد القش والصنوبر لصنع الشاي، وقد أسندا بندقيتهما إلى صخرة وجلسا على حجرين متقابلين يستمتعان بدفء الشمس. أما هو فكان وحيدا، يحتضن رشاش برن لا أدري من أين اشتراه أو حصل عليه؟! في هذا الشح وهذا الغلاء، يصبح الرشاش مهما كان قديما ثروة مباركة تستحق الثناء.

رأني أقرب فوقف بتكاسل يلاقيني. لم يبد عليه أنه فوجئ بمجيئي. ربما كان يتوقعني، أو أن أحدا أو عز إليه أي آت، أو أن الرصد المتخفي في ثنايا الشعاب كان يراقب تحركاتي منذ قدومي ونقلوا إليه خبر وصولي.

مد ذراعيه يستقبلني، فرأيت خطوطه واهية مثل الأشباح. وحين اقتربت هالتني لحيته الكثة وسواد المآقي تحت عينيه. لم يكن أسمر بهذا الشكل، وشعره الكستنائي الفاتح أملس وكثيف. لكنه الآن يبدو أسمر كما لو كان بدويا أكلته الشمس، وشعره الكثيف بدأ ينحل وغزاه الشيب، وجسمه الطويل بدأ أطول بسبب نحوله، وحين ابتسم، بدت وجنتاه محزتان بخطوط غائرة مفعورة وأسنانه كبرت عن فكه. ماذا دهاه؟ كان جميلا ومليئا بالصحة والعافية، وآثار الحب والزواج السعيد تبدو واضحة على وجهه. لكن المعركة الأخيرة حول القسطل، وسقوط القسطل وإعادة بناء جسر قالونيا جعل الأوضاع مهزوزة. لكن الحصار ما زال مستمرا رغم الاختراقات الجزئية والإمدادات بالطائرات والتحركات المشبوهة حول القرى المتاخمة للمستعمرات، ثم الطلعات الجوية لرصد الأجواء.

جلسنا نستند إلى صخرة، وأحضر لنا أحد المجاهدين قدحي

شاي بالميرمية، وعاد لموقعه بعيدا عنا عدة خطوات.

كان معكر المزاج بسبب ضياع القسطل من أيدينا وسقوط عدد من الشهداء. في كل مرة يسقط شهداء يتأثر ويبدو كيتيم فقد أهله. وتذكرت ما قاله في ذاك المساء في صانور داخل الإسطل عند الشهباء، كيف يفقد رجاله ويودعهم فيودع أجزاء من قلبه. بهذه النفسية ورقة القلب كيف يستطيع أن يقتل ويقاتل؟ هو الجهاد كما فسر لي، وعبور الدنيا إلى الجنة.

سألته عن حاله، فقال لا بأس. وسألني عن الرحلة فوصفت له ما مر بنا ووضع القائد وحال القادة في مقر القدس، فلم يبد عليه التأثر أو التشكك كما كنت أشك، بل ظل يقول إن الله لن ينسانا وأنه سيرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل. وأن المعركة حول القسطل ليست النهاية بل البداية، وأن النبي، حتى النبي، خسر معركة أحد ثم دحر الأعداء ودخل مكة.

لم أشأ أن أهبط معنوياته بوصف تفاصيل ما ذقناه والحالة النفسية لقائدنا، والارتباك في مقر القدس والنقاشات الدائرة المحمومة وقلق الناس، بل هونت الأمر بأن أوصلت له سلامات أمني وتحيات وداد، وسألته عن حسننا وخالتها، ولماذا لم تذهب إلى نابلس لتضع المولود عند أمني، لأن نابلس أهدأ من هنا وأبعد عن الاشتباكات وأزير الرصاص؟ فقال إن حسننا تفضل البقاء قريبا منه ونزلت في ضيافة أقاربها في دير ياسين، وحين تلد، ستعود إلى الساحة كما اعتادت، لأن حسننا لا تستطيع البقاء ساكنة من غير حراك. والتفت إلي، وقال باسما: أنت تعرف حسننا وما تفعل، ولولا الحمل لكنت معنا تشرب الشاي وتحمل هذا. وأشار إلى البرن في حضنه، وابتسم بفخر.

قلت له إن دير ياسين وقرى القدس المحيطة بالمستعمرات

ليست مكانا آمنا لامرأة حامل على وشك الوضع، فالاشتباكات مستمرة، واتساع الحرب يبدو حتميا مع اقتراب 15 آيار وجلاء الانتداب، واستعدادات اليهود على قدم وساق، ومعسكرات الانجليز في وادي الصرار وصرفند ورأس العين باتت مفتوحة على وسعها لمصلحة اليهود. اليهود يعترفون منها ما يشاءون، وأخذوا كل شيء حتى البراكسات. كما جاءوا بجنود مدربين من شرق أوروبا على حرب المدن والشوارع. كل هذا من أجل مستعمرات القدس وفك الحصار. إذن ستكون المعركة هنا في محيط القدس، والقرى العربية ستتأثر. وبقاء حُسنا في دير ياسين ليس سليما، قرار خاطئ، وعليه الآن أن يرسل لها مرسالا يدعوها لمغادرة دير ياسين والتوجه شمالا، إلى ذنابة أو دار العائلة في نابلس. وأكدت له أن الشمال أقل خطورة، على الأقل محمي بالقواقجي¹⁴ وجيش الإنقاذ.

لم يبد عليه التأثير من تنويعاتي وتحذيراتي كما لم يبد عليه أنه تشكك بقدرات جيش الإنقاذ، ولم يبد عليه أنه فقد الثقة بسلامة الوضع وحتمية الانتصار لأن الله، كما كرر، لن يخذلنا، وجيش الإنقاذ لن يخذلنا، وقرى العرب فيها رجال تحت الندهة، ما أن تقول "عليهم يا شباب" حتى يتمنطقوا بما لديهم ويهجموا على الأعداء مثل الأسود كعادتهم. وأن لولا هؤلاء الرجال لما انتصرنا في معركة كذا وكذا، وأن اليهود جبناء ورعديدين بعكسنا نحن. اليهودي لا يفارق مصفحته، أما القروي فيهجم على الموت ولا يخاف إلا من الله. تراه يقاتل مثل الأسد، ببندقية يقاتل، بمسدس يقاتل، بعصا، بسكين، حتى بمنجل. هم أهل الأرض والوطن والحق، ويعرفون البلد شبرا شبرا بمزارعها

١٤ القواقجي: قائد عسكري عربي أوكلت إليه قيادة جيش الإنقاذ بدلا من الحسيني.

ومغاورها وكهوف الجبال والمحاجر. يعرفون البلد كما تعرف الأم وجه ابنتها، ويققدسون التراب، ويتممون به، ويجعلون من الكوفيات أكفانا ومن الأقصى مزارا شريفا يحجون إليه كما الكعبة.

وجيش الإنقاذ؟ سألته عن جيش الإنقاذ، فقال إن جيش الإنقاذ على علاقته، شحيحا كان، بعيدا كان، غير مدرب، مليئا بالصعاليك والمرتزة، مفككا مندثرا غير مدرب، إلا أنه، كل نفر فيه عن عشرة يهود. وسألني، وهو يحدق في وجهي:

- تعرف لماذا؟

وحين لم أجب، قال بإيمان:

- لأنه عربي مسلم، ولأن الساعة حين تدق سيهرعون إلينا لنجدتنا، فنكون معا كالحصن المنيع، كالصحابة.

قلت أنبهه:

- لكن القدس هي وجهتهم، وكل السلاح والمدافع والطائرات وخبراء الإنجليز صاروا معهم، عينك عينك، بلا خجل ولا مداراة، يقاتلون معهم إلى جانبهم، وأعداد اليهود صارت بالألوف، 60 ألف أو أكثر غير الإنجليز، أما نحن، فماذا لدينا؟ 700 مقاتل نظامي بعضهم ما زال في بيرزيت وبقية القوى من القرى والفلاحين، وتعاد القصة من الأول كما حدث لنا سنة 29، وكما حدث لثورتكم في يعبد سنة 35، وكما حدث في نهاية 39، ثم ما حدث في صانور، ألا تذكر؟ وأخذت أعدد مواقعنا وما حدث للناس في القرى والمدن وضحايا الحرب في معارك غير متكافئة لم ترحمنا، وكيف امتلأت الساحات بقتلانا وأصبحت سماء التراب الأرض.

التفت إلي وحملى في وجهي وصاح بصوت سمعته الجبال:

- اسكت، اسكت، هل أنت أخي؟ أنت طابور خامس

وعميل اليهود؟ لم تبق أملاً واحداً لم تقدحه وتجرّح فيه. ماذا لديك يا متفلسف؟ بماذا تقاتل؟ بقصيدة شعر أم بمقال لا يقرأه إلا المتفلسفون أمثالك؟ حرب قدرة فرضت علينا فماذا نفعل؟ نسكت، ننخ، أم نقاتل؟ وبماذا نقاتل يا أستاذ؟ قل ما عندك. ماذا نفعل؟ أنا أستغرب كيف اختارك القائد وضمك إليه وجعلك مستشاره! كيف تكون مستشاره وأنت كالسوس تنخر في العظم؟ أنا حين أراه سأقول له، سأقول له إنك جبان وطابور خامس. أنت لست أخي، أنا لا أعرفك! وصل الحديث إلى هذا فأحسست بالدنيا تدور بي وأخي الحنون بات كحيوان هائج، فماذا فعلت؟ ماذا قلت حتى يبدو كما لو كان سيجرم بي؟ هل أنا مخطئ؟ هل باغته؟ هل شوشته؟ هل لمست فيه نقطة ضعف فهاج وماج وهددني أنه سيشكوني إلى القائد لأنني مدسوس وطابور خامس! وهذا يعني أنه يشك مثلي وأكثر، وأنه خائف، وأنه مثقل بأعبائه، وأنه محزون ومحروق القلب لأنه خرج من القسطل ويحس أنه مسؤول عن أخطائه. فلذت بالصمت، لأنني اكتشفت كم أنا ساذج وقصير النظر. ألم أكن أعرف تفاصيل الوضع؟ ألم أكن أعرف أنه مرهق وحزين ومشوش؟ ألم أكن أعرف أن قلبه مليء بالغضب والشك فجئت أفجر أورامه وأفلي نفسي المضطربة أمام جراحه؟ كم أنا سخيّف! كم أنا مخطئ.

لمست ذراعاه حتى يهدأ، وبقيت صامتا انتظر استرداده لمشاعره وأعصابه. وأخذت أردد كلمات رقيقة تذكره بأنه أخي الكبير وحيبي، وأني لم أقل كل ذلك إلا لأني خائف عليه وعلى نفسي وعلى القائد، وخائف على حسننا وعلى الناس وضياع القدس. خائف من الإنجليز وقد غدروا بنا، ومن اليهود وقد باتوا قوة لا يستهان بها، فماذا لو فكّوا الحصار وحاصرونا بدلا منهم؟ وقلت متأملا وهو صامت يستمع إلي

- ووجهه يتطلع إلى الأفق بلا تعبير:
- هذا الحصار يحاصرنا!
- استجاب، وقال بضع كلمات، لكنها كافية لكسر الجمود:
- أتظن أنني لا أعرف؟
- والفتت إلي، لكن عينيه ما زالتا مسدلتين نحو الأرض كأنه خجل أو خائف:
- قد يكونون اليوم هم، وغدا نحن!
- قلت مشجعاً:
- وبعد ذلك يكونون هم، ولسنا نحن. الدنيا تدور.
- الفتت إلي وسأل بلهفة:
- هذا رأيك، الدنيا تدور؟
- ما يدرينا؟
- كيف والإنجليز معهم على طول الخط؟
- وحتى الإنجليز، الدنيا تدور.
- وهل نظل ننتظر حتى الدنيا تدور وتنصفنا؟
- لا ننتظر.
- وماذا نفعل؟
- ما نفعله الآن، نظل نحاول.
- هز رأسه وقال بأسف:
- وهم يحاولون. بالأمس الشباب قتلوا يهوديا كان يحاول.
- كان يستكشف الوضع ويتسلل. لا أعرف كيف لقطوه، لكن قتلوه.
- أحضروا الجثة لأفحصه. شاب مسكين ابن 16، أبيض وأشقر ولا يلبس ثياباً عسكرية. ربما حاول أن يتسلل للحصول على شيء ما، ماء أو غذاء أو دواء، أنا لا أعرف. ربما كان ولداً مغامراً شقياً وهرب

منهم، يعني غافلهم وتسلل. هم منضبّطون، أنت تعرف، لكن الولد، هو ولد فقط، ولد وشاب ككل الشباب في أول عمره يحاول أن يصبح بطلا، أو ربما ككل شبابهم مخطط له وهذا دوره. ربما بعثوه ليستكشف. لكن لديهم طيارات ولماذا يرسلون ولدا مثله؟ أنا لا أعرف. المهم في الأمر أن الشباب قتلوا الولد واحضروه وفتشناه. أبيض وأشقر وعمره 16 واسمه دافيد ونسيت بقية اسمه، من يهود رومانيا أو بولندا. هويته جديدة، جديدة جدا، كأنهم طبعوها يوم أمس. الشباب كانوا يضحكون وهم يفتشون حوائجه وأنا أتفرج. أنا لم أضحك، قلت المسكين هذا ولد! قال أحمد: ونحن يا شيخ، ألسنا أولادا مثله؟ سكت وقلت، طبعا أولاد، كلنا أولاد حين بدأنا وما نحن كبرنا وختيرنا، بدأنا نختير. ماذا نفعل؟ هذا قدرنا وقدرهم، ولا احد يهرب من قدره.

- هذا قدرهم؟ هم جاءوا إلينا ولم نذهب نحن إليهم!
- هذا قدرهم، لو أن الله لم يرد لهم المجيء لما جاءوا.
- هم جاءوا إلينا برجليهم.
- لو لم يرد لهم المجيء لما جاءوا.
- ولماذا يريد لهم المجيء؟
- ربما ليمتحن إيماننا وصبرنا وتقوانا.
- كل هذا الدم حتى يمتحن إيماننا وصبرنا وتقوانا؟
- اسكت، لا تبدأ بالكفر والتفلسف. هو يمتحننا ويمتحنهم.
- وهذا الولد، الولد دافيد، ربما خرج ليحصل على شيء ما، على ماء أو دواء أو غذاء.

- ليسوا بحاجة، الطيارات تنزل لهم ما يحتاجون.
- هذا كلام، حكي فاضي. أتظن أن الطيارات تنزل لهم كل ما يحتاجون؟ هم مئة ألف، مئة ألف وربما أكثر. وماذا ستفعل الطيارات

لئمة ألف؟ نحن نمسك بخط التموين، خط التموين في أيدينا. حاولوا الكثير بالدبابات والمصفحات، لكننا نحن دوخناهم، أذقناهم الويل، يأكلون العشب، ألا تعرف؟

- ربها غدا نأكله نحن.

- لا سمح الله. فال الله ولا فالك.

- ربها نأكله إذا هزمننا.

- لن نهزم قط.

والتفت إلي ليرى وجهي، ويرى تأثير كلماته، فحاولت الهرب لموضوع آخر، موضوع حَسْنَا وولادتها، فقلت وأنا أشير للشايبين كي يحضرا مزيدا من الشاي:

- أنا أقول حَسْنَا تذهب عند أمي أو ترجع للقدس عند وداد.

وداد ممرضة تعرف لها وتولدها.

- كانت مع وداد.

- لماذا تركت؟ أرسل لها، دعها ترجع، وداد تقول ببطنها

توأم. ربها تحتاج لمستشفى. دعها تعود لتكون في القدس أو في نابلس.

- تريد أن تكون مع خالتها وأقاربها.

والتفت إلي ليشهدي ويشكو إلي كعادته تصرفات وداد:

- وداد هججتها بنكدها، أنت تعرف، وداد نكدة.

- وداد نكدة؟ طبعاً أعرف أنها نكدة، لكنها أفضل من دير

ياسين. دير ياسين قرية صغيرة بلا أطباء ولا مستشفى. ودير ياسين في محيط اليهود. ماذا لو تمكنوا من فك الحصار وهجموا على قرانا كعادتهم؟

ماذا لو هجموا على دير ياسين والقرى المحيطة لينتقموا؟ أنت تعرف ما خططوا بخطة نخشون. سيعملون على إفراغ البلد بترويع الناس. هذا مخططهم، ترويع الناس، وسلب ونهب ومذابح. دير ياسين في محيط

- القدس، دعها ترجع.
- لا لا أبدا، دير ياسين لديها تعهد من المستعمرات أنها لا تؤذى ولا تؤذي. حتى أننا لم نستفد من دير ياسين بأي مقاتل. قالوا لنا نحن قرية صغيرة ومعظمنا نساء وعجائز، ولدينا تعهد من اليهود وعاهدناهم، لا نتعدى عليهم ولا يتعدون علينا وتفاهمنا، لدينا اتفاق وتعهد. قالوا هذا، يعني دير ياسين آمنة جدا، آمن قرية في محيط القدس.
- وتصدقهم؟
- أهل دير ياسين يصدقون فأصدقهم. هم أدرى الناس بمصالحهم وأدرى الناس بجيرتهم. هم كالجيران وعاشوا مع بعض مدة طويلة بأمان وسلام.
- لكن الآن مع هذا الحصار والحرب والقتل و15 آيار؟ اقرب الوقت. ساعة الحسم قد اقتربت. إذا خرج الانجليز وهم ما زالوا محاصرين ترجح كفتنا ونهزمهم. أما إذا خسرنا وفكوا الحصار، فأول ما يفعلونه هو تنفيذ خطة نخشون.
- ربك يستر. لكن أمني أن جيش الإنقاذ لن يقف مكتوف اليدين يتفرج. جيش الإنقاذ سيدخل على الخط ويهزمهم، والجيش العربي سيهزمهم.
- ما زلت تقول جيش الإنقاذ؟!
- لديهم كل شيء، مال وسلاح ومدافع وعددهم ما شاء الله، أكثر منهم، أكثر من اليهود، أكثر بكثير.
- عددهم لا يتجاوز 5 آلاف. هم يكذبون. يقولون 15 ألف و50 ألف وهم لا أكثر من 5 آلاف. هم يكذبون. هم يكذبون. أنت لا تعرفهم يا وحيد، هم جهلة وسفلة وأميون. أتصدق أن القائد العام للقوات العربية قال لنا أنهم لن يساعدونا لأن القدس ليست على

البحر؟ لو أن القدس على البحر لساعدناكم، هذا ما قال. لكن بما أن القدس ليست على البحر، فهي بلا قيمة ولا تصلح.

- القدس بلا قيمة ولا تصلح؟

- هذا ما قال.

- هذا يمزح.

- أبدا، أبدا، لم يكن يمزح. وقال أيضا: دعوا القدس تسقط

فنحررها، ونحرر حيفا يافا وكل فلسطين. هذا ما قال: دعوها تسقط

فنحررها. هذا ما قال، قالوا هذا!

- هم يعرفون ما يقولون. أنا لا أشك بقوتهم.

- أنت لا تشك! تذكر ما فعلوا بأبو كمال!

- ماذا فعلوا؟

- ما فعلوه بنا؟ خذلوه وأهانوه كما أهنا. هم يا وحيد أهانونا.

أبو كمال انتحر لأنه فقد الأمل منا ومنهم. أنت تعرف.

- خلص، خلص، بدأت تحرف. أنا لا أحب سماع قصصك.

أنت تبالغ. أنت تتخيل وتتوهم. أبو كمال رجل مؤمن. كان مؤمنا وتقيا

ولا ينتحر. أبو كمال واجه قدره. واجه الانجليز وواجه قدره. لم يخف

من الانجليز ولا من قدره. الناس يقولون انتحر، هو لم ينتحر، لأنه

مؤمن، أبو كمال واجه قدره.

صمتُ ولم أكمل لأنني أحسست أن من العبث أن أناقش.

أنا وهو طرفا نقيض. أنا شكاك متوجس، وهو مؤمن. أنا أستند إلى

الحقائق، وهو يستند إلى الأمنيات وإيمانه. من منا المبالغ والواهم؟ من

منا الخيالي والشاعر؟ لكنه مرتاح بإيمانه، ليتني مثله!

54

أتخذ القرار بشن الهجوم لاسترجاع القسطل ولم يمض على رجوعنا من الشام إلا ساعات. حاول البعض ثنيه عن الدخول في معركة غير متكافئة ومتسعة بهذا الشكل فقال مويخا:

- ألم نهب دماءنا وأرواحنا منذ البداية؟ فلماذا نبخل ونتردد الآن وقد آن الأوان؟ 15 آيار على الأبواب. إذا سقط الحصار سقطنا معه، وإذا سقطت القدس سقطت فلسطين!
قال أحدهم محاولا الإرجاء والتمهل:
- بعثنا مرسالا إلى الجيش العربي في رام الله، فلنتنظر، ربما يأتيون.

نظر إليه من تحت حاجبيه، وهو ما زال مستغرقا في قراءة ما قدمته من تقارير وقال ساخرا:

- الجيش العربي وغلوب باشا؟ إنس الموضوع!
وأردف بأسيا:

- وأوعى تقل لي جيش الإنقاذ!
لم يجبه الآخر خوفا من إثارة غضبه وتفجير مرارته.
التفت إلي وقال متذمرا وهو يطلع على الأرقام:

- هذا كل شيء؟

قلت متمتا وكأن الذنب ذنبي:

- هذا كل شيء.

فأخذ يقرأ:

- 123 مجاهدا من سرية الروضة، 125 من القطمون، 40

من واد الجوز، 40 من الشيخ جراح، 50 من البقعة، 18 من الثوري،
10 من دار الهيئة العربية العليا. . .

ونظر إلى ببسمة متواطئة وعلق ساخرا:

- قل السفلى، بإذن الله هي السفلى، وماذا بعد؟ ماذا لدينا؟
2 في عمارة الأوقاف، 20 في مامبلا، 15 في الشماعة، 35 في المصرة
وباب الزاوية، يعني كم مجاهد يا جماعة؟ قل لي يا أمين كلنا على بعضنا
كم عددنا؟

كنت مستعدا لذاك السؤال، فأجبت فورا:

- 506 مجاهد هنا والبقية في بيرزيت. المتواجدون ليسوا
جميعا مسلحين. السلاح يكفي 300 فقط. يتناوبون على السلاح.¹⁵
- وعدد اليهود؟

قلت بدهشة:

- عددهم؟ أنت تعرف.

نفض يده بفارغ الصبر:

- عددهم في القدس، فقط في القدس.

أجاب الآخر، من حاول أن يثنيه عن بدء الهجوم المتسرع

بالتحذير:

- عددهم بالآلاف يا قائدنا. ما بين 60 ألف إلى 70 ألف،

وكلهم مدربين على يد الإنجليز أحسن تدريب!

تجاهله والتفت إلي:

- عددهم في القدس، فقط في القدس.

- ألف من الأرغون يا قائدنا، وألف من الهاغاناه، وما لا يقل

عن 500 من شتيرن، وما لا يقل عن 300 من البالماخ.

١٥ أعداد الأسلحة والمجاهدين حقيقية وموثقة.

- والسلاح، السلاح، ماذا لدينا؟
- يعني بالقطعة وبالحبة؟
- نعم بالقطعة وبالحبة.
- 19 رشاش، عدد غير مؤكد من البرنات والهوشكس والبراوننج لا أعتقد أنه يزيد عن عشرة، ومئة وخمسين قنبلة يدوية غنمناها من معركة موتزا، لكن أكثرها في بيرزيت.
- بعثت تطلبها؟
- بعثت، بعثت.
- وعند اليهود؟
- أجاب آخر غير المحذر والمنبه:
- أنت عارف يا قائدنا، كل ما جاءهم عبر السنين وما أخذوه مؤخرا من معسكرات الإنجليز. يعني سلاحهم واصل لشوشتهم، غير المصفحات والدبابات والطيارات.
- نهره معاتبا:
- ومالك تقولها وكأنك خائف؟! قال الآخر متراجعا:
- أنا أقولها للتذكير.
- ابتسم وقال كأنه يلقي بنكتة:
- ونحن لدينا مصفحة الشيخ سلامة، خير وبركة.
- ونظر إليهم عساهم يضحكون، لكن أحدا لم يضحك. التفت إلي:
- طب والنجادات من القرى وبدو السواحير؟
- مئة أو مئتين على الأكثر، بسلاح عتيق وذخيرة خردة ومحدودة.

- وذخيرتنا؟
- صندوقين ذخيرة انجليزية، وصندوق فرنسي، وصندوق ألماني، هذا كل شيء.
- هز رأسه مفكراً، وقلب كفيه وقال كأنه يخاطب نفسه:
- لا مفر، لا مفر، هذا هو الوقت، وبلا تأخير.
- والتفت إلي:
- وأخوك جاهز؟
- جاهز جداً، ومتحمس.
- طيب وأنت؟
- شعرت بوجهي يحمّر فضحكوا بصوت خفيض وبعضهم ابتسموا بعطف، فقلت بسرعة:
- وأنا متحمس.
- رفعت عيني فرأيتهم ما زالوا يبتسمون، فقلت بجدية وبدون ابتسام:
- أنا مدرب.
- قال القائد:
- أنت تظل هنا في المقر ترسل البيانات والتحذيرات لبقية الجبهات والصحافة. دورك مهم، وليس بأقل.
- ونظر إلي فوجدني محمراً ومتضيقاً، فقال ملاطفاً:
- مالك محمّر؟ مالك؟ احكّ.
- قلت بصوت متهدج:
- أنا يا قائدنا أتفق معك في تحليلك. ساعة الحسم قد اقتربت. الحصار هو الورقة الوحيدة في أيدينا. معركة الحصار هي الحاسمة، إذا خسرتها خسرنا كل شيء. تريدون أن أقعد هنا لإرسال

البيانات والتقارير للجرائد والإذاعات؟ أقعد في المقر كأني حارس؟
حتى حراس المؤسسات والهيئات استعدوا بما لديهم من مسدسات.

- وماذا لديك تقاتل به؟

قلت باعتزاز:

- لدي برن أخذته من أخي.

قال بدهشة ضاحكة مفتعلة:

- لديك برن؟! عظيم، ممتاز، مع ذخيرته؟

- عدة أمشاط.

- يعني تكفي؟

- طبعاً، تكفي.

تفحصني غير مصدق ما أقول، لكنه سلم أمره وأرجع لي

التقارير، وقال عابساً:

- طيب إذن، على بركة الله، تظل معي، خلف ظهري،

مفهوم؟ والآن نراجع الخطة كما اتفقنا:

الميمنة بقيادة بركات والشيخ قحطان، وتهجم من جهة الشرق.

الميسرة بقيادة بن جازي وتهجم من الجنوب الغربي. القلب بقيادة

أبو دية وتهجم من الناحية الجنوبية. والقيادة بقيادتي وقيادة العمري

والموسوس والعمد، وأمين وربيعة معي، خلف ظهري. والاحتياط

من قالونيا بقيادة أبو جبارة والشيخ المزرعاوي . . . وإذا تمكن الشيخ

سلامة من المجيء بمصفحته بهذا يسندنا ويحمي ظهرنا.¹⁶

ثم أنهى تحديد المواقع وتوزيع المسؤوليات بقوله مسلماً:

- وقل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون. صدق الله

العظيم.

١٦ عدا عن أبطال الرواية المتخيلين، أسماء القواد حقيقة.

فقلنا جميعا: صدق الله العظيم، وبهذا انفض الاجتماع وبدأنا
الهجوم في مساء 7 نيسان 1948، ولم يكن قد بقي على موعد انتهاء
الانتداب إلا أسابيع معدودة هي الحاسمة، وبعدها نتحرر بإذن الله، أو
نموت بإذن الله! صدق الله العظيم.

55

توجهنا نحو القسطل. كان ذلك قبل منتصف الليل بقليل والناس نيام، وهدوء حذر يحيط بالقدس وروايبها. كانت القسطل قد سقطت، وكذلك قريتي خلدة ودير محسن، وتمكن اليهود من كسر الحصار وإدخال قافلة مؤلفة من 40 شاحنة كبيرة محملة بالمؤن والذخائر تساندها طائرة هاجمت مواقع المجاهدين وتعقبتهم ولم تبق لهم أثرا يذكر.

حين تقدمنا من الموقع كان الهدوء يسيطر على المنطقة بأكملها، وأضواء المستعمرات تشعشع بالليل، وتكشف الأبراج المنصوبة والأسلاك الشائكة والأسوار، بعكس القرى العربية التي لاذت بالظلمة واعتراها الخوف، ورجالها قضوا ليلتهم في العراء فوق الأسطح وبين الصخور وشجر الصبار وأيديهم على بنادقهم ومناجلهم، وما إن رأونا حتى انضموا إلينا رغم تحذير قادتنا بأن ما لدينا من ذخيرة بالكاد يكفي بنادقنا، ورغم ذلك انضموا إلينا ولزموا الصمت.

كنت مع القائد في سيارته، وكان صامتا طوال الوقت، وحين نمر بنور ضئيل الملح وجهه أو شبخ وجهه قريبا مني، وأرى شفتيه تتمتان بسور القرآن أو الأشعار، لم أتين، وعيناه مصوبتان إلى الأمام بشكل جامد. كنا نجلس في الخلفية، وسائقنا ربيع وحارسه عوض في المقدمة، وبقية القواد والفصائل تسبقنا أو تلحق بنا، وسكون قلق يشوب الشوارع والطرقات، وظلام مطبق يغطي الهضاب وما عليها من قرى وبيوت ومزارع.

ابتدأ الهجوم بتقدم قوات الميمنة بقيادة بركات وأخي وحيد.

بدأوا بإطلاق نار كثيفة من جهة الغرب حتى يوهوا اليهود بأن الهجوم سيكون من جهة الغرب، وبدأ كما لو أن المعركة الرئيسية ستدور على أطراف القرية الغربية. في تلك الأثناء أحطنا بسفح القرية من كل الجهات وانتظرنا تقابل الميمنة بالميسرة ودخول القلب إلى القسطل، إلا أن اليهود كانوا بالانتظار وانقضوا على قوات القلب وقتلوا العديد من أفرادها وجرحوا قائدها أبو دية، فانفرط الجمع وتناثرت القوات وقد نفذت ذخيرتها وتساقط رجالها على الأرض ما بين قتل وجريح ومتعثر. تراجع من فروا ببنادقهم الفارغة وبدأ كما لو أن الحملة قد فشلت من بدايتها.

احتد القائد وارتفع صوته، وبدأ يهدد ويتوعد، ثم استعاد هدوءه ووقف لحظات يفكر وأنا أراقبه ويدي على قلبي ويدي الأخرى تشد على البرن بعصبية.

ناداني، وقال:

- ما رأيك؟

قلت:

- نتقهقر ونعود ثانية بعد أن نتقوى ونتسلح ونستعد بشكل أفضل. يبدو أنهم محصنون بشكل جيد ومستعدون لأي اختراق أو تسلل. القافلة زودتهم بالموء ومزيد السلاح، وها أنت تراهم كالمتاريس البشرية.

هز رأسه وكرر العبارة من خلفي: متاريس، متاريس، نعم المتاريس. وأمسك بذراعي من ساعدي، وقال: تعال. وسحبني حتى وصلنا سيارته، حيث كنا نقف قبل قليل، وفتح صندوق الخلفية وقال: احمل. رأي أقف حائراً مرتبكاً والبرن بين يدي أشد عليه خوفاً من أن يسقط أو يهرب، فقال موبخاً:

-
- هذا البرن شاغل بالك، ارم البرن واحمل معي!
 قلت مرتبكا:
 - هذا برني!
 خطفه من يدي وهو يدمدم بشكل ساخر:
 - برته، برته، فهمنا برنك. لا أحد سيأخذ برنك ويخطفه منك.
 احمل معي، احمل، احمل.
- صناديق الألغام، فهمت قصده، هو سيعالج الموقف بالألغام.
 ألغامه الشهيرة لا تخطئ، مفعولها أكيد ومحدد، وكم قلنا عنها وكم قالوا،
 كم تفاخرنا بها، لكن الألغام في هذا الليل، في هذا الوضع، في هذا البعد،
 ونحن في الأسفل وهم أعلى، هم في القسطل وقبالتهم محاجر جيشار
 المحروقة، يعني محصنون بالطبيعة والقلعة وتلك المتاريس والأبراج
 وأطنان السلاح. ألغام صحيح، على رأسي وعيني تلك الألغام، لكن
 من سيوصلها إلى القمة؟ من يثبتها ويفجرها؟
 سألته بحذر:
- من يحمل الألغام ويوصلها؟
 أطلق ضحكة خافتة من أنفه وقال مازحا:
 - أنت وأنا.
 همست بذعر:
 - أنت وأنا؟ أنا لا أعرف بزرع الألغام! كيف نبثها ونشبكها
 ونوقتها؟ أنا لا أعرف.
- سمعت صوته يعبث بي ساخرا:
 - ألم تتدرب؟ ألم تقل إنك تدربت؟
 - على بث الألغام؟ أنا تدربت وتعلمت كيف أصوب،
 وكيف أستعمل هذا البرن.

قال بغیظ:

- ملعون أبو البرن! انس البرن واحمل معي.

سألته ثانية وأنا أحمل أول صندوق:

- أنا وأنت؟

لم يجبني، بل وضع الصندوق من يديه على مقدمة السيارة وقال

لي:

- اسرع نادي لي عوض واليازوري وأبو طربوش، يا الله،

بسرعة.

وضعت الصندوق من يدي على مقدمة السيارة بجوار صندوقه وهرعت نحو عوض، حارسه الخاص، وكان يقف أمام شاحنة الإسعاف وحوله مجموعة مقاتلين، بعضهم يجلسون على سلسلة حجرية، وآخرون على الصخور يراقبون المعركة في الأعلى وتقهقر الفارين وهم يتدحرجون والحجارة تقرر تحت أقدامهم وفروع الشجر تهتز وتتكرر مع مرورهم وترنحهم. كان عوض ومن حوله يراقبون المشهد المعتم أمامهم كما لو كانوا يشاهدون لعبة كرة لا تعجبهم وهم متوترون ويشدون على أكتاف بعضهم بصمت ووجوم.

كان الصمت يخيم على الجميع، وعيونهم شاخصة إلى أعلى، والليل يخيم عليهم ونور القمر الشحيح يلقي عليهم ضوءاً رمادياً شاحباً، ورغم الرصاص ودوي المدافع، كانت أصوات تنفسهم ولهائهم تصل واضحة إلى سمعي، أو تخيلت. تمكنت من الاقتراب من عوض بدفع الأكتاف من حوله. لمست كتفه فقفز واستدار بعنف ونقزني. كان متوتراً هائجاً ويتمتم بالسباب والشتائم. قال بحدة حين رأي: نعم؟ نعم؟ أبلغته بما أبلغني القائد فمشى خطوات وعاد بصحبة اثنين آخرين، توقعت أن يكونا اليازوري وأبو طربوش، وكانا طويلين

عريضين ومسلحين.

وقفوا حول القائد وأنا خلفهم ألتقط ما يقوله ويتها مسون به. وسمعتة يقول وهو يشير بيده إلى أعلى، إلى جهة الشرق: هذا المتراس. ففهمت أن مسؤولية زرع الألغام وتثبيتها وتفجيرها لن تقع على كاهلي وعلى كاهل القائد، فهدأ بالي قليلا لكن القلق ظل يحاصرني لأنني لم أسمع عما حدث للميمنة بقيادة بركات وأخي وحيد. كما أنني لاحظت الوجوم يحيم على الجميع فاعتقدت أن المعركة قد انتهت بفشلنا لأن العديدين قتلوا وجرحوا وسقطوا على الأرض. وكان الناجون والمصابون يصلون تباعا فيهب الرجال لنجدتهم ويسحبونهم لشاحنة الإسعاف حيث وقف خوري مع راهبته. هذا فقط ما كان لدينا من إسعاف، شاحنة مغلقة وطبيب خوري يلبس معطفا أبيض فوق رداءه، وراهبة واحدة بالأسود، ويود وحقن وضادات. كنا 300 مقاتل بذخائر محدودة وإسعاف شحيح، شبه معدوم، وقائد عنيد رفض الاستسلام وتجاهل نصحي بالتهقير، وعدة صناديق من الألغام، ألغامه، كان صنعها وركزها في مختبره، وها هي الآن في المعركة الفاصلة في القسطل، وستعمل على نصف المتاريس، تلك المتاريس، أراها بعيدة عنا بعد جهنم، وأظن أن المعركة قد انتهت وأن اندحارنا شبه أكيد ومحتم.

رأيتة يشير بيده ثانية نحو المتراس الشرقي وأضواء البرج، فأفرغ الرجال عبوات الصناديق في جيوبهم وساروا بها نحو المرتفع من الجهة المعاكسة للمعركة والمتقهقرين الفارين وأزيز الرصاص يلاحقهم، ودوي مدافع هنا وهناك تصيب صخرة أو تحفر الأرض. فيصلنا الرذاذ والشظايا فنبتطح أو نختمي خلف الصخور والسيارات. لم يكن القمر بدرا، ربما بثلته أو رבעه، لكن نوره والكشافات في الأعلى كانت تضيء بعض الملامح فأرى الأشباح تتحرك أو تنبتطح

وتحتبئ خلف شاحنة الإسعاف، وضوء شحيح من باب الشاحنة يظهر الراهبة تجلس بداخلها تمسك بمسبحة وتسبح. تذكرت وداد، وكذلك نساء الجمعيات اللواتي شكلن فرق الإسعافات الأولية والتضميد، لكن أحدا من هؤلاء لم يحضر. كان تحركنا سرياً، وقرار الهجوم لم يعرف به إلا القواد، وحتى الأنفار والمجاهدين لم يعرفوا بالأمر إلا حين تجمعوا في ساحة المقر وأركبهم الشاحنات إلى القسطل. ولم يحضر للإسعاف إلا خوري واحد كان يعمل في مستوصف أحد الأديرة، كان عضواً في إحدى اللجان القومية أُعلم بالأمر متأخراً فجاء وأحضر معه راهبة وعدة إسعاف وضادات.

انتظرنا طويلاً ولم يحدث الانفجار في المتراس الشمالي واستمر القصف بتقطع، وبدا واضحاً أن المعركة قد حسمت، وجرحانا وقد نالوا بعض الإسعاف ركبوا شاحنة أقلتهم إلى مستشفى القدس، لكن أحداً من الميمنة لم يظهر بعد، فبقينا ننتظر حتى نرى أحداً منهم مع انبلاج الفجر حتى نللم قتلانا وجرحانا أو نسمع انفجار الألغام في المتراس. وكنت أسمع القائد يكلم نفسه: يا الله يا عوض، يا الله يا زوري وأبو طربوش. لكن لا عوض ولا اليازوري ولا أبو طربوش بان لهم أثر ظاهر، ولا انفجار الألغام، وبقي المتراس على حاله أمام أعيننا مضاء بكهارب وكشافات، وما بين الفينة والأخرى صلية رشاش أو قذيفة بعيدة عنا، كما لو كانت لجهة الغرب، فتوقعنا أن تكون الميمنة ما زالت مخبئة أو محاصرة في مكان ما، وهذا ما جعل القائد يرسل الرجال إلى قالونيا طلباً للمعونة والنجدة.

فجأة ركب السيارة وركبنا معه أنا وربع وثلاثة آخرون. كنا خمسة وهو السادس. قاد السيارة بنفسه باتجاه محاجر الجيشار المقابلة للقسطل. رأيت الشجرة على القمة حيث جلسنا أنا ووحيد أمس

صباحا، وتذكرت ما قاله وحيد بالأمس وما سمعته منه أول مرة في الإسطنبول في صانور. تذكرت ما قاله عن فقدان والخسارة وما كان يحس به حين يفقد واحدا من رجاله. وللغربة، لم يكن إحساسي كما وصفه. لم أكن أحس إلا بالخوف ودقات قلبي والظلمة وأنا أغوص عاريا بهاء ساخن، ثم بارد، وعرق يسيل عن ظهري، وما بين الفينة والأخرى أنتبه للآخرين وهم حولي أسمعهم يتنفسون أو يحولون أو يتهايمسون، ثم أغيب في ملكوتي داخل نفسي. ورأيت شبح القائد أمامي وقد خلع حطته عن رأسه وبدا شعره منكوشا منفوشا كطائر ضخم مصاب بالبرد، وتذكرت أنه لم يحلقه مذ غادرنا إلى دمشق قبل عشرة أيام أو أكثر، وأغلب الظن بلا حمّام، وأنا كذلك، ورائحة البارود تحفي رائحة جسمي وانسكاب العرق من إبطي، وندى نيسان يغمري بهاء بارد، ونظراتي زائغة وأفكاري بين الجيشار وأخي وحيد والشجرة، وأضواء القسطل مشعشة كما لو كانت تحتفل بعرس أو زفة.

قفز من السيارة بسرعة، ونحن تبعناه، ودخل غرفة فارغة مرتفعة، غرفة حارس أو حراث لا شيء فيها سوى فرشاة، كانت تطل على القسطل فوق الجيشار.

أمسك بمنظاره وتطلع فيه بضع دقائق، وبصمت تام تخلى عنه وأعطاه لواحد من رفاقه وقال: انظر، انظر، تأمل هناك من جهة الشمال وجهة الشرق. نظر الرجل في المنظر وقال: رأيته، وأعطى المنظر لصاحبه ثم آخر وآخر وأنا وربيع. وبسرعة عدنا من حيث أتينا وتوجهنا مباشرة إلى سيارته.

فتحنا صندوق الخلفية وتناولنا عدة صناديق أفرغنا عبواتها في جيوبنا، وبدون سؤال أو جواب مشينا معا، هو أمامنا ونحن خلفه، وبدأنا نسلق المرتفع نحو القمة حيث المتاريس.

ما كدنا نمشي عدة خطوات حتى لحق بنا العمري والعمد والموسوس وهم يصرخون: استنوا، استنوا! وقفنا ننتظر، فاندفع الثلاثة كالمجانين وأحاطوا بالقائد يستحلفونه أن يعود وألا يجازف بنفسه لأنه القائد، ولا يحق للقائد أن يجازف. وسمعت أحدهم يصرخ بتعجب واستهجان: هذا لا يمكن وغير معقول! هذا انتحار! أنت القائد! تخلص من طوقهم وهو يلوح بذراعه ونحن خلفه، وظل الثلاثة خلفنا يستغفرون ويحوقلون وأحدهم يصرخ بصوت عال: هذا انتحار! ماذا نفعل؟ إذا حدث لك شيء ماذا نفعل؟!

في منتصف الطريق توقفنا عند مغارة ونزعنا الحطّات عن رؤوسنا حتى لا يكشفنا بياضها في سواد الليل، وتوزعنا. ثلاثة باتجاه المتراس الشمالي، وهو وريبع باتجاه الشرقي وأنا خلفها أحمل نصيبي من الديناميت وبرني العزيز فوق ظهري نتسلق المرتفع مثل القطط ونزحف على بطوننا مثل الثعابين.

قبل الوصول إلى القمة وقف وأعطاني مسدس إشارات، وقال لي أن أطلق طلقتين حين أراه يلوح بيده وأظل مختبئاً خلف الصخرة حتى يشير ويناديني. فجلست أنتظر وأترقب وأتمتم بالبسملات وأتذكر كل ما مر بنا طوال الأسبوع وأراقبه وهو يكمل التسلق مع ربيع نحو القمة. كان يسبق ربيع ثم تباطأ وسبقه ربيع. ربيع أصغر، أصغر بكثير. هو لم يبلغ الأربعين، يبلغه اليوم مع هذا الفجر. قال لي ونحن في طريقنا من دمشق إلى عمان أنه سيبلغ الأربعين في هذا اليوم، وأن زوجته اتصلت به وطلبت منه أن يكون معها ومع الأولاد في هذا اليوم. ستطبخ له أكلة يحبها، جزر محشي بدبس رمان، وكعكة تفاح بالقرفة وجوزة الطيب فوقها شمعات، أربع شمعات، كل شمعة عن عشرة. والتفت بعيداً عبر الشباك وقال بأسى: مسكينة وجبهة كم صبرت علي! أحسست

أن ضميره يؤنبه، فحاولت التسرية عنه بأن ذكرت له ما أعانيه أنا. قلت له إني أنا لن أتزوج لأنني أحب حبا مستحيلا يحرق قلبي. التفت إلي يتألمني، وقال ساهما كأنه يتذكر ويذكرها: الحق معك، الزواج في وضعنا هذا غير مناسب. ولكن، ألا تعتقد أنها كبيرة عليك؟ لم يقل الدين كما قالت وداد، ولم يذكر اسمها، لأنه كما يبدو يعرفها ويعرف عني. الجميع يعرفون، وربما يسخرون خلف ظهري، وربما ليزا أيضا تسخر، لكنني الآن في هذا الليل، في هذا الجبل، فوق الأشواك وبرودة الصخر تجمد بطني، وهذه الألغام تنخز فخذي، لا أرى أمامي إلا ليزا. لا أرى صورة أمي ولا وحيدا ولا وداد ولا حتى القائد أمامي، ليزا ما أرى، فقط ليزا، بعينيها وبسمتها وشعرها القصير وشففتها وهي تناقش، وهي تضحك، وهي تقرأ مقالاتي وأشعاري وتبتسم لي، وتقول مشجعة: برافو يا أمين، برافو، برافو. فأحمر وأصفر وأشعر بالنقمة والحسرة، لأنني أحس أني صغير، أصغر بكثير.

أشار إلي يناديني، فعدت أتسلق من جديد ورآني أتعثر بما أحمل. جيوب مليئة بالديناميت والبرن ينزلق عن ظهري ويرتطم بالصخر فأخاف عليه، هدية وحيد الأخيرة، حرم نفسه وأعطاه لي!

قال يستحني:

- مالك؟ تعبت؟

قلت وأنا أحاول أن أبدو ظريفا وغير خائف:

- هذا البرن شاغل بالي!

ردد الكلمات من خلفي:

- هذا البرن شاغل باله! ملعون أبو البرن، لكن للحق هذا

البرن يساوي ثقله، لعنة الله عليهم كلما حل ذكرهم. السلاح لديهم يصل السقف وبخلوا علينا بكم مدفع وستن وبرن. هذا البرن يساوي

ثقله، دير بالك عليه.

قلت بحنان وأنا أتذكر الميمنة وما حل بأخي:

- هدية من أخي الله يخليه. برأيك هربوا أو قتلوهم؟

قال بجدية:

- لو قتلوهم لكننا عرفنا. أكيد في كمين، أكيد يتتظرون وصول الاحتياط والنجادات من قالونيا. هذا البركات أنا أعرفه، شاطر وخبيث وعنده تجارب. يعرف يداور ويناور. لا خوف عليه وعليهم، اطمئن، اطمئن، المهم الديناميت ونسف المتاريس. إذا نسفنا المتاريس والاستحكامات ندخل فيهم، ندخل على طول. المهم الديناميت. كيف الديناميت؟ أو عى يسقط.

ربتُ على جيوبى المنفوخة وقلت بقلق:

- المشكلة ليست أن يسقط، مشكلة المشاكل إذا انفجر بنا.

قال مطمئنا:

- لا ينفجر إلا إذا نحن أشعلناه وفجرناه. اطمئن، اطمئن.

أضفت بقلق:

- أو إذا اليهود أصابونا.

نهرني ساخرا:

- امش، امش، واحد خويف! أنت شاعر وكاتب مقالات

ولا تصلح إلا للمكتب والملفات. أنا قلت لك خليك هناك.

قلت وأنا ألث من حدة الصعود وثقل الديناميت وأتذكر ما

عيرني به وحيد:

- وما نفع الأشعار والمقالات؟ أنسف المتراس بقصيدة؟

أصبع ديناميت أحسن من كل القصائد والمقالات.

قال مشجعا:

- عفارم عليك، بطل وصنديد طالع لوحيد الشيخ قحطان،
وأختك وداد، يرضى عليكم.

فكرت بوحي وأحسست بقلبي يتقلص. هل صحيح أنهم
لبدو بكمين بانتظار النجدة من الاحتياط؟
قال وهو يلهث:

- أنا فعلا كبرت، اليوم طبقت الأربعين، اليوم عيدي، وإذا
مر اليوم على خير ورجعنا للقدس بالسلامة تأتي معي وتأكل جزر محشي
بدبس رمان، تحب الجزر؟

قلت مسائرا حتى لا أبدو قلقا ومتعبا ومتدمرا مما احمل:

- أامي لا تطبخ جزر محشي بدبس رمان.
سأل متعجبا بدهشة مبالغ فيها حتى يبدو الأمر طبيعيا وكأننا
في نزهة جبلية:

- لا تطبخ جزر بدبس رمان؟ ولا كعكة تفاح بالقرفة وجوزة
الطيب؟

لم أجبه، لأنني كنت أعيد وضع البرنّ فوق ظهري وأنا أزحف،
فأردف ضاحكا، أو ما اعتقدت أنه يضحك، لكن من لهجته وصوته
سمعتة يضحك:

- أنتم في نابلس بالكنافة، الكنافة وبس، لا كعك ولا جاتو ولا
مطبق، كنافه وبس، لكن اليوم، إذا الله نجانا وسلمنا ورجعنا للقدس
بإذن الله تأتي معي وتأكل الجزر بدبس رمان وكعكة تفاح بالبهارات.
مالك ساكت؟ خائف؟ قلقان؟ أوعى الصخرة. هذي الصخرة دبة
وزلقة، كلها طحلب، تعال من عندي. اسمع، اسمع.

سمعنا طلقات، ثم قذيفة. فجلس مكانه خلف الصخرة
وشنف أذنيه، وقال بقلق:

- هذي القذيفة على المتراس الشمالي الله العليم!
حاولت الالتفات والنظر باتجاه المتراس الشمالي أو تحته، فلم أر شيئا. كانت الظلمة تجلجلنا رغم أن الفجر بدأ يطلع.

قلت معلقا:

- لو أصابوهم لكان الديناميت انفجر فيهم، ولكن الصوت أعلى بكثير.

قال موافقا:

- مضبوط، مضبوط. يا الله نطلع ونلحق برييع.

والتفت إلي:

- إذا أصبنا أو استشهدنا أنا ورييع هذا المسدس للإشارات. تطلق منه طلقتين للجماعة، فاهم علي؟

أصبت بالذعر وأنا أتخيل أنه قد يصاب أو يستشهد ومعه ربيع وأظل وحيدا في العتمة عند اليهود أمام المتراس، أبقى وحيدا مع الجثمانين ويذهب المجاهدون ويتركونني ويجيء اليهود، أعوذ بالله. استغفر الله.

قلت بسرعة:

- فال الله ولا فالك يا قائدنا، إنشا الله العدو، أنا روحي فداك. إنشا الله أنا. إذا أنا رحت لا نتأثر، المعركة تستمر، لكن إذا أنت رحت راحت القدس وكلنا رحنا، أنت القائد.

قال مهونا:

- لا تتشاءم، حتى لو رحت، الحبل طويل وعلى الجرار. أنا متأكد. حتى لو استشهد كل القواد، البركة فيكم وفي الأجيال. قصة طويلة، وجماعة الشام، الحمير التيوس، بكرة تصلهم خطة نخشون. سيرتهم غم، انس الموضوع. لكن يا أمين، إذا صار لي شيء، هذا المسدس

للإشارات، وهذا الستن حافظ عليه، أعطيه لوحيد بدل البرن. هدية مني. أنت معك برن وهو معه ستن، حتى الإنجليز يخافوا منكم. المهم السلاح، آوالا لآ؟ آه الملاعين لو سمعونا وجبروا خاطرنا ونصرونا! الله شاهد، انس الموضوع.

قلت له وقلبي يخفق ويسقط في حفرة من الاكتئاب إن المعركة لا يقرها ستن ولا برن ولا حتى مدفع وطيارة. المهم القيادة والأبطال. المهم الشرف. المهم الكفاءة والإخلاص. المهم العلم والانضباط، لم يكن لنا قائدًا مثلك، كل الأبطال كانوا قبلك شرفاء وأمناء وأعطوا الكثير ولم ييخلوا، لكن على البركة وباب الله. لكن أنت، أنت غير شكل، وجماعة الشام مثل المومياء، خرج المتاحف والتصوير. ضحك وقال: حتى المومياء كثيرة عليهم. سيرتهم غم وحرقة قلب، انس الموضوع، يا الله وصلنا. هات ما معك. وأنت يا ربيع امسك هذا، اشبك معي، خلي الأصابع مرصوفة، وهذا الجانب، هات أعطيني، ثبت السلك وشده وإلويه، واسحب، إسحب، واعطيني باقي الأصابع، هات، استنى، خليني أشد. خلص، خلصنا، اسحب السلك، أوعى تقطع سلك الفتيل. يا الله نبعد. يا الله بسرعة. خلص خلصنا. هات الكبريت. جاهز؟ جاهز؟ أشبكوا أيديكم فوق روسكم، وأنت يا ربيع نم على بطنك وما تتطلع. واحد، اثنين، بم بم . . . بم بم!

56

انفجر اللغم وأضاء الكون. رغم وجهي المدفون تحت ذراعي
 رأيت الضوء البرتقالي يضيء الأرض وأحسست بالهواء الساخن
 يدفعني، ولولا انبطاحي على التراب لطيرني. وشممت رائحة البارود
 وأحسست بشظايا الصخر تتساقط فوق رأسي وظهري وساقَيَّ. وبعد
 الانفجار ساد صمت كصمت القبور، فلا مدافع ولا رصاص ولا
 صرخة جندي ولا زقزقة عصفور. توقف الكون تماما ولا شيء في
 صدغي وأذني إلا قلبي، قلبي يدق، وسكون تام. ربما الانفجار أعطب
 أذني. ربما الخوف شل قواي وما عدت أحس. لكن فجأة، سمعت
 صراخا بالعبرية وصلية رشاش فوق رؤوسنا، ثم أقدام تقفز على
 الأرض من خلفنا. رفعت رأسي، ومن خلال الأضواء وخيوط الفجر
 رأيت الأشباح تتحرك هنا وهناك وباتجاهنا، ثم سمعت أبو طربوش
 ينادي: وله يا ربيع. وربيع فوق رأسي يصرخ: جاهز! ثم قنابل يدوية
 انفجرت هناك على بعد عشرين متر أو أكثر، ورأيت أجسادا تتساقط
 كألواح الخشب، أربعة، خمسة، عشرة وعشرين، يسقطون على الأرض
 ثم يركضون، أمام عيني، ثم يسقطون، ويركضون، على بعد خطوات،
 وأنا أنظر فوق ذراعي ولا أدري كيف أصبح ذراعي تحت وجهي. وكنت
 أراهم يتساقطون وأنا أنظر بذهول ولا أسمع إلا قلبي، وأرى أشباحا
 تتساقط. ثم أحسست بركلة في جنبي أيقظتني، وألثفت لأراه يحرك
 شفتيه. كيف رأيته؟ وهم هل رأونا؟ تعطلت الرؤيا. انطفأ الكشف
 فوق مبني ولم أعد أراه، لكنني سمعته يصرخ ويركلني في جنبي: فز يا
 مجنون! أطلق الإشارات واضرب، اضرب. أفقت وجلست وأطلقت

الإشارات وأمسكت بالبرن وبدأت أرش كما تيسر، فوق رأسي، لا أرى أين، لكنني أرش، وهو يصرخ، وربيع يصرخ ويحدثهم كما لو كانوا يسمعون ويفهمون، وأنا أسمع.

صوّب عليهم يا أبل! سمعته يصرخ فانتبعت لما أقوم به. كنت أشد على الزناد وفوهة البرن منحدره لا تصيب شيئاً سوى الصخور والحجارة فرفعت لفوق، ورأيت جندياً يسقط من مئذنة المسجد حيث المدفع وضوء الكشاف، وسمعت هرولة من خلفي وتكبير الرجال: الله أكبر، الله أكبر! وأحسست بذراع تسحبني، وذراع أخرى تشد بظهري وتوقفني، ثم تدافع جماعتنا من خلفي وحولي وأمامي ودوي مدافع وقنابل من جهة الغرب، وهو أمامي يقفز عن الجثث والسلاسل، سلاسل حجرية واستحكامات، ومدافع متروكة مهجورة، هجرها الجنود أو سقطوا بجانبها، وهو يركض هنا وهناك وأنا أتبعه كما خياله. يقف فأقف، يقعي فأقعي، يرفس الجثث فأرفس مثله، وحولنا الرجال يصرخون: الله أكبر! وشتائم ومسبات دين وصيحات ألم، ولمعان مناجل والسنجات. سلاح أبيض. رجال القرى لا شيء لديهم سوى معاول ومناجل، سقط كثيرون وهم يصرخون ويتشهدون، جنون بجنون، لماذا جاءوا؟! وهو يركض وأنا خلفه. يطارد مجموعة تركض أمامنا كقطيع كلاب أو غزلان، وهو يصطاد وأنا أضرب، وهو يركض ويلاحقهم.

ابتعدنا عن المسجد وساحة القرية، ورجالنا ما زالوا بالسلاح الأبيض والسنجات. قتال شوارع وأزقة ومن بيت لبيت وأمام الدكاكين والأبواب المحترقة، بعضها مغلق بستائر صفيح وبيوت مخلة الأبواب والشبابيك. أين سكان القرية؟ لا أحد هنا إلا رجالنا يقفزون مثل الشياطين هنا وهناك، يلحقون بالجنود الفارين وهم يلقون

بأسلحتهم ويضعون أيديهم فوق رؤوسهم ويركضون، يصلون حافة المنحدر ويتدحرجون، ونحن نركض، والقرويون يلقون بفؤوسهم ويلمون الأسلحة المتساقطة عن الأرض، لا يطلقون، فقط يركضون خلف الفارين، ونحن ابتعدنا خلف الجنود، ثلاثة جنود، وهو يشير حيث اختبأوا، واحد هنا والثاني هنا والثالث هناك. أحدهم ألقى بقنبلة يدوية فلم تنفجر، رفسها القائد فطارت بعيدا مثل الكرة وتدحرجت واصطدمت بجدار، وهو يركض وأنا أركض، ويشير بيده إلى الجدار، ويقول تعال من هذي الدار. ودخلنا الدار، دار فارغة غير مسكونة، ما زالت على العظم بلا شبابيك ولا تبييض ولا أبواب. مررت أمام الشباك فأحسست برصاصة تخترقني، اخترقت كتفي ووقعت على الأرض. سمعته يصرخ: أخ يا مسكين! غبت عن الوعي، وحين أفقت كنت بجانبه على الأرض، هو جالس مثلي على الأرض، يستند إلى الجدار، ورجلاه ممددتان، ورأسه مائل ودم كثيف من أذنه وعلى صدره. كان بلا أذن. منظر مرعب! رأسه مائل، ويده تشد على بطنه، لكن عينيه مفتوحتان وينظر إلي.

قال بحسرة مبحوحة: أنا تصاوبت. نظرت إليه نظرة فارغة مذهولة. حاولت أن أفهم ما أرى، لم أفهم بعد. سمعت صيحات وزغاريد وتهليل وتكبير ونداءات. كان النهار قد طلع والأشكال واضحة ونور الشمس. نور على زجاج نافذة أمام عيني ومئذنة المسجد أراها وأرى فوقها علما يخفق، علمنا نحن، فقلت أحدثه حتى يفرح وينسى ألمه:

- هذا علمنا، أرى علمنا، أخذنا القسطل.

لم يجبني، وظلت عيناه مفتوحتين ودمه ينزف، ما زال يسيل، أحمر قان وبعضه أسود ورأسه مسنود على كتفه، وكان بلا أذن. حاولت

القيام فلم أستطع. كتفي المصابة، وذراعي الأخرى ترقد تحتي. قلت
معتذرا: أنا تصابوت. لم يجيني، وظل ينظر إلي ولا يرمش. حاولت
القيام ثانية فلم أقدر. أحسست بألم خارق يخترق روحي وأمعائي،
فقلت معذرا: مش قادر أقوم! لم يجيني، وظل ينظر إلي كما لو كان
يعاتبني، فقلت بحسرة: لو أقدر أقوم أنا دي الإسعاف!

ثم تذكرت أن الإسعاف بعيد عنا، والخوري بعيد وكبير في
السن، والراهبة تصلي وتسبح، أو تربط جرحا أو تضع اليود، كيف
يصعدان إلى القمة؟ وأصوات الرجال في الخارج يهزجون ويهملون
وأحدهم ينادي:

- تعال يا ربيع، تعال يا محسن!

وأنا وهو، في أبعد دار في القرية، من يرانا ويحس بنا؟ ودمه
يسيل وأنا ملقى ككيس فارغ، وبرني العزيز، أين برني؟ ضاع برني.
قلت أخاطبه:

- ضاع البرن!

ونظرت إليه، وكانت على وجهه بسمه ساخرة وحزينة، لعله
يقول: ملعون أبو البرن. ولم يقل. فقلت أواسيه:
- ستتك بحضنك والبراشوت.

مسدس بارشوت 8 ملم وستن رائع، أحدث موديل، لا
أعرف من أين اشتراه أو حصل عليه، ربما من موتزا. رشاش انجليزي
أحدث موديل و3 أمشاط، وأنا لدي مشط واحد. لم أكن جباناً. لم أكن
سيئاً. أفضل بكثير مما توقعت. لم يغمي علي سوى مرة، كيف أصيب
وكيف أصبت؟ أين إصابته بالتحديد؟ رأسه مائل ويده على بطنه
وبسمه ساخرة على شفتيه، يسخر مني، لأن البرن شاغل بالي، يسخر
مني.

قلت أطمئنه:

- سيأتي الإسعاف.

لم يجبني.

قلت لأفرحه:

- أخذنا القسطل وعلمنا فوق.

لم يجبني. تأملت العلم والسماء الزرقاء والشمس الذهبية على

المئذنة، وقلت بارتياح:

- الحمد لله خلّصناها.

اتسعت ابتسامته، أو تخيلت، فقلت أذكره أن اليوم هو

عيد ميلاده وسنعود إلى القدس لنأكل الجزر بدبس رمان، ونظفيء

الشمعات فوق الكعكة وأربع شمعات.

قلت أطمئنه:

- نرجع للقدس عند أختي وداد. أختي تداويك وتداويني.

وتخيلت وداد ترانا وتبكي ويغمى عليها. بدأت أبرد وأشعر

بالبرد فقلت له:

- الدنيا برد. الدنيا الصبح. نيسان بارد والدنيا الصبح.

وعدت أتأمل العلم فوق المئذنة وأقول لأفرحه:

- علمنا فوق، الدنيا برد.

لم يجبني، لكنني سمعت صوتا خلفي، صوتا يقول:

- هذا القائد!

أحدهم مر فوق وتعر بي فانفجر الجرح وغبت عن الوعي،

وحين أفقت سمعت نشيجا وصراخا: القائد مات، مات استشهد.

وغبت عن الوعي.

أفقت ورأيت وجه الراهبة وهي تدمدم: يا يسوع، يا يسوع، آه

يا عدرا، ودموعها تسيل على وجهي. لماذا تبكي؟ سألت بذهول: مات
القائد؟ لم تجبني، لكني سمعت أحدهم يقول: مات، أستشهد. إنا لله!
الله أكبر!

57

لم تمض سوى دقائق على استشهاد قائدنا حتى انتقل الخبر إلى القدس، وإلى كل عاصمة عربية، فأعلن الحداد على القائد البطل، وأذن المؤذنون في المآذن، ودقت أجراس الكنائس، وأحجمت الإذاعات عن البث لخمس دقائق، وتوقفت المدارس والمؤسسات عن العمل، وصدرت ملاحق طارئة لكل المجلات والجرائد تحمل النعي بالخط العريض وصورا وكلمات وقصائد. حتى القادة في مقر الشام ومكاتب الجامعة العربية وزعماء عرب ممن صدقوا ومن كذبوا، ممن خابوا ومن خانوا، رثوه بمراثٍ فردية وجماعية، وبرقيات ورسائل وأكاليل تمثل الشعوب وكلا منهم، وارتدت النساء الأسود في كل الجمعيات في كل العواصم العربية، وبدأ الاستعداد لجنائز ضخمة تضم القناصل العرب والأجانب وشيوخ الأقصى والأزهر وخوارنة المهد والقيامة في موكب مهيب تتقدمه موسيقى دار الأيتام الإسلامية والكشافة والنجادة وفرق المقاومة الشعبية، وبدأ أن الجميع يودعون فلسطين في القائد، ويودعون القسطل آخر ما دار في فلسطين من معارك. وهذا ما حدث فعلا، إذ أن الجميع تركوا القسطل ولم يبق فيها نفر واحد. كل المقاتلين تبعوا القادة الذين حملوا الجثمان مرفوعا على الأكف ونزلوا به من قمة الجبل حتى الشارع، ومن هناك نقلوه إلى القدس محفوفًا بكامل القوات وأسلحتها، ولم يبق في الساحة إلا القرويين الذين استمروا في مطاردة الجنود الفارين والاستيلاء على أحذيتهم وأسلحتهم، ثم الذهاب إلى قراهم بما غنموه وفي يقينهم أن التحرير انتهى بعد أن أدوا الواجب.

كنت ما زلت بجانب شاحنة الإسعاف بعد أن نلت العناية

اللازمة من الراهبة الباكية والخوري المرهق بين جرحى متناثرين على الأرض، وقد خلفتهم الشاحنات العسكرية وسبقتهم إلى القدس لحضور الجنازة، ومن هناك تمكنت من رؤية المشهد الذي انحفر في ذاكرتي لأنني رأيته يتكرر ويتكرر على مر العقود، في كل مسيرة عربية. في البداية رأيت القرويين وهم يطاردون الجنود الفارين والغنائم، ثم الحشود وهي تنزل من القمة كأسراب النمل محاولة اللحاق بالموكب. بعض المقاتلين المنسيين وما زالوا بملابسهم العسكرية وقد عرّوا رؤوسهم ولفوا كوفياتهم حول أعناقهم وحملوا ما تيسر من سلاح وجدوه ملقى على الأرض أو غنموه، وقرويين مدنيين هرعوا من مخابئهم وأماكن لجوئهم في القرى القريبة وبيوت المزارع، وتدفقوا يتدافعون في الطرق الترابية نازلين من المرتفعات متدحرجين بين الصخور في تسابق محموم إلى الشارع، وبدا كما لو أن كل القرى المحيطة بالمستعمرات قد أفرغت من المسلحين، لأن الجميع هرعوا ليشاركوا في الجنازة والموكب.

وحتى يكتمل المشهد الدرامي عبثية حلقت طائرات انجليزية - يهودية فوق الموكب والجنازة، وفوق كل قرية ومدينة فلسطينية تجمعت فيها مواكب وجنازات رمزية، وأخذت تلقي بنشرات تقول فيها إن القتال قد انتهى بموت القائد وهزيمة نكراء لكافة الدول العربية. ولم تمر أكثر من ساعتين على الخبر حتى تلقفنا أول نشرة وما زالت الحشود تتوافد كأسراب النمل إما للمشاركة في الجنازة أو لحاقاً بمن هرعوا لها وفي ظنهم أن النازلين من المرتفعات يهربون من وجه اليهود، ولم يبق في القرى إلا الحوامل والمرضعات ونساء محاطات بالأطفال والمقعدين والعجزة. لهذا حين هجم اليهود على تلك القرى لم يجدوا مسلحين يتصدون لهم، فصالوا وجالوا وسحقوا ومحقوا وسلبوا ونهبوا كما يفعل البدو في غزواتهم وجيش هولاكو، واقترفوا فظائع

ومذابح من بينها مذبحه دير ياسين، لكن هذه سأجيء على ذكرها فيما بعد، أما الآن فسأحاول اعتصار ذاكرتي لما حدث في ذاك اليوم في معمعة الفوضى والحزن الرهيب على القائد، وما رأيته وأنا أنتظر مع الجرحى قرب شاحنة الإسعاف بانتظار سيارات تنقلنا إلى المستشفيات والمستوصفات، أو اللحاق بالموعد المحدد لتشيع الجنازة والقائد.

في المساء، وكنت ما زلت في المستوصف، جاء وحيد برفقة ربيع بعد أن دارا على كل المستشفيات والمستوصفات بحثا عني. كانا قد شاركا في التشيع، وذرفا الدموع مع الباكين واستمعا للكلمات والخطابات، وقرأ بذعر المشورات، فتذكرا القسطل التي نزننا الدم الغالي من أجلها وبذل قائدنا روحه من أجل استرجاعها، وقد باتت خاليه مهجورة فهرعا إلى أحد القواد ممن لم يفقدوا صوابهم وأقنعاه بإرسال ما تيسر من مسلحين لحماية القسطل من غزو محتمل، وهما يودعاني لأنهما عائدان إلى القسطل وأوصياني بالذهاب إلى نابلس، لأن أمي في المستشفى، وقد أصيبت بذبحة صدرية إثر سماع الخبر المفجع، كما أوصياني بالبحث عن وداد المفقودة التي لم يجدا لها أثرا في أي مستشفى أو مستوصف.

ذهبا وخلفاني في مستوصف الدير. وبعد العصر أذن لي الخوري بالمغادرة، فخرجت إلى القدس أجوب شوارعها، وكانت خالية مهجورة، وقد ارتفعت فوق مبانيها أعلام سوداء وصور القائد، وفتات الأزهار من أكاليل الموكب، ومئات النشرات والقمامة، وما تبقى من أثر ألوف شاركوا في الجنازة. ورأيت بعض الأرصفة مكسرة ومقاعد البلدية مخلوعة وأعمدة الكهرباء والتلفون مائلة بسبب التدافع والتزاحم، وكل الدكاكين والمحال مغلقة مهجورة. غاب القائد فاختنقت القدس، ولم يبق فيها عرق أخضر. حتى الشجر المحيط

.....

بالشارع بدا عاريا، وتكسرت أغصانه بسبب تسلق الصبية الذين
استقتلوا على متابعة ما يجري في الموكب، وربما لاقتطاف بعض الفروع
لنشر الأوراق على قبره، أو لأن الشجر أبى إلا أن يساهم في التشيع،
فتهدل وانحنى وسقطت من حزنه أوراقه .

58

كان المصاب أليما. ذاك الرجل أحببناه بكل قوانا وآمنا به، ومع فقدانه فقدنا صوابنا وبتنا كالغنم بلا راع. وتذكرت ما قالته خطة نخشون عن أن العرب ينساقون كالغنم وراء الراعي، وأنهم بلا راعي يهيمون على وجوههم ويندثرون كعصف مأكول. وهذا ما حدث لنا، إذ بعد انفضاض الجنازة والموكب ذهب كل فرد إلى عائلته يحتمي بها أو يحميها، وهذا أيضا ما فعله أخي وحيد حين ذهب إلى زوجته في دير ياسين. لكنه قبل ذهابه إلى دير ياسين ذهب مع ربيع ضمن مجموعة الأربعين إلى القسطل وتمركز مع الرجال في القرية الخالية من السكان خلف المتاريس المهجورة. هناك جلس مع الرجال على الأرض وسط القرية وهم يتذكرون القائد وأقواله، ثم الجنازة والموكب، ثم الحيرة مما سيأتي وماذا يفعلون بعد غيابه. أشعلوا نارا صغيرة التّموا حولها يتبادلون كلمات التعزية كما لو كانوا في سرادق عزاء، وشربوا الشاي وهم مثقلون بالحزن والكآبة، وبدا كل واحد منهم كما لو تلقى ضربة على رأسه، وفقد توازنه وميزانه.

مع انسداد الليل رأوا مصفحتين قادمتين: واحدة انجليزية، والثانية يهودية، أخذتا تخليان القتلى عن المنحدرات والمصاطب. طاقما المصفحتين رأوا بمناظيرهم المكبرة خلو القرية من السكان. رأوا الشبايك معتمة والأبواب مغلقة محروقة، ومجموعة متناثرة من المسلحين أغلبهم قرويين يحيطون بنار شحيحة يشربون الشاي ويتسامرون.

رجالنا رأوا المصفحتين تقومان بجمع الأشلاء فأهملوا ما رأوا وعادوا لأحاديثهم حول القائد، والجنازة، ومن جرح، ومن فر،

ومن استشهد، وشربوا مزيدا من الشاي، وألقموا النار مزيدا من الأعواد وخشب الدكاكين المنهوبة والمحروقة، وعادوا لسرد ما رأوه وما سمعوه وما فعلوه وما يتوقعون أن يحدث. تناسوا أمر المصفحتين واعتبروا تواجدهما في الموقع أمرا طبيعيا ومرحبا به لنقل الموتى قبل نفسخ الأجساد وانطلاق رائحة التعفن.

بعد ساعة واحدة من انسحاب المصفحتين رأوا جحافل تقدر بالآلاف تتقدم من القسطل مدعومة بالمصفحات والدبابات وطائرة لرصد الأهداف وتحديد المواقع. قائد المجموعة قال لهم إن التصدي لهذه القوات أمر مستحيل، وأنه كمسؤول ينصحهم بالانسحاب من القرية من أقرب الطرق والمنافذ، بل ساهم في توجيههم إلى تلك الطرق وحمل بنديته وتقدم الآخرين لينجو بنفسه ورجاله. لكن وحيد انسلخ عن الرجال وتوجه من فوره إلى زوجته في دير ياسين لينقذها، وربع عاد إلى القدس ليعلمنا بما حدث لهم وهروب الرجال من القسطل.

سقطت القسطل دون إطلاق أية طلقة، فتوجهت القوات اليهودية إلى بقية القرى العربية، وهناك دارت اشتباكات لا تذكر، ومجزرة تاريخية في دير ياسين ذهب ضحيتها المئات من ضمنهم أخي وحيد، وهجرة من بقي من الأحياء إلى القدس وبيت لحم والخليل، ومذابح أخرى أقل ذكرا في طول البلاد وعرضها أدت إلى هجرة الألوف من فلسطين، وانتشار مخيمات اللاجئين في مدن وصحارى الدول العربية.

أما نحن، عيلة قحطان، بهذا بدأ تشتتنا. وحيد استشهد في دير ياسين، ووداد هجّت من القدس وقيل رأوها في كل مكان، وأمي قضت في المستشفى بعد استشهاد القائد وأخي وحيد، ونضال ألحقها بمدرسة الدير عند راهبات حيث عولجت، وأنا ذهبت إلى لبنان لألحق

بليزا وسعادة الذي وعد بتحرير القدس، ولم يبق في الدار، دار العيلة،
إلا كتبي وأوراقى وآخر ما بقي من القائد، رسالة كتبها بخط يده ولم
أرسلها، بقيت معي لتذكرنى بما حل بنا، وسأشرها في يوم ما مع ما
كتبت وما تذكرت، لأن التاريخ هو ما نكتب لا ما قلناه وخبأناه في
صناديق القلب المغلقة وانتقل معنا إلى الآخرة وظلام القبر.



59

أعود الآن إلى جوي ومريض نائم في سريري والدنيا ليل وبرد
وهواء وأصوات رصاص. نحن اليوم بعد الألفين لكن ما زلنا نعيش
في زمن الحصار. بالأمس هم، واليوم نحن، والدنيا تدور ولا تهدأ،
لكن الحلقة مفرغة والزمن شحيح. لم يبق من العمر إلا أقله، ولم يبق
أحد من أهل الدار إلا امرأة تقترب بحذر من السبعين. ولو لم يمت ذاك
الرجل، لو لم تسقط تلك القسطل، هل كانت أمي تهجري؟ هل كان
خالي يستشهد في دير ياسين؟ هل كان أمين يهجر القدس إلى لبنان وإلى
سعادة من أجل ليزا وتحرير القدس؟ والنتيجة، لا وجد ليزا ولا سعادة
ولا حرر القدس ولا فلسطين، وعاش وحيدا في الغربة كما عشت
أنا وربما أموت كما مات هو من غير القدس ولا وطن ولا حب ولا
سعادة، وتظل الدار، دار العيلة، بلا وريث ولا أي أثر من آل قحطان!
أوراق خالي تذكرني بما حل بنا، ولوحات صباي أعادتني لزمن
ولّى ما زلت أعيش تلافيته. هذا العجوز هو ذاك الصبا والحب الرهيف
قبل الغربة ورماد الروح. انطفأت الجذوة وأطفئنا، من يشعلنا من بعد
الخور؟ ذاك الرجل كان شعلة، سبق زمانه، وأمّي أحبته، هذا مؤكد،
ولو كنت أنا، بل كنت أنا، وأحس بقلبي يتململ ويشهق بالحب. أمن
المعقول أن نتخيل ما ليس لنا وما لسنا فيه؟ أنا لم أعش تلك الحقبة ولا
عرفت ذاك الرجل ولا صادفته، لكن قلبي يذهلني، يئن كما لو كان
يشكو الفرقة وهجر الأحباب! ذاك الرجل، كما لو كان حيا يرزق في
ذاكرتي، كما لو أكون أنا من أحببت وليست أمي! أليس غريبا أن نعيش
الخيال كما لو كان جزءا منا، من حاضرنّا، من ماضينا، كما لو كان كلا

فينا؟ أليس غريباً أن نتذكر ما ليس لنا؟ أليس غريباً أن نشعر بالحب لمن
رحلوا وعادوا إلينا بورق وصور؟ أنا لا أفهم!
تلملم في السرير وتمتم كما لو كان يهذي ويحلم:
- نضال!

همهمت ولم أجب حتى يعرف أي بجانبه لم أترشح.
مد يده وسحب يدي وقربها من فمه وقبّلها، وسأل همساً:

- الساعة كم؟
- ثلاثة وعشرة.
- من بعد الظهر؟
- من بعد الفجر.
- نمت عندي!

لم أجه. كنت أعرف ما يهفو إليه. يريد استدراجي للاعتراف،
ولن أعترف. أنا في القسطل، ما زلت هناك، وإحساسي مشوش وذاكرتي
وقلبي يذوب لكن لبعيد، لرجل مات قبل أوانه، قبل أن يطفئ شمعاته،
لرجل معشوق أُمّي أحبته، ونساء القدس، وأنا أحن وأتذكر ما كان لنا
وما لسنا فيه هذي الساعة وأحس بشوق وبغربة، وقلبي يذوب ويتنهد
كما لو كنت شابة صغيرة ابنة عشرين. أنا في حيرة! ما هذا الشوق؟
ما هذا التوق؟ أنا أحب أم أتوهم؟ وهل كان الحب إلا وهما وحلما
وسراباً وتخيل؟

سأل بدهشة:

- ما زلت هنا!
- أنا في القسطل.
- ووجدت أمك؟
- وجدت البطل.

-
- وأنا معه؟
 - طبعاً، أكيد، وكانت أمي.
 - وخالك وحيد.
 - في دير ياسين.
 - وأنت وأنا؟
 - وأنا وأنت.
 - ولم يغفل أحداً من العيلة إلا حسناً.
 - وماذا يقول؟ حسناً ماتت في دير ياسين؟ هذا مفهوم.
 - لا يا عمري، حسناً لم تمت في دير ياسين. حسناً خرجت مع من خرجوا للتشييع البطل والجنائز. جاءت للقدس ووحيد ذهب إلى دير ياسين. لم تمت حسناً في ذاك الحصار، حسناً ماتت في هذا الحصار.
 - يعني هو مات وهي عاشت؟
 - أهنأك حياة إلا بالموت؟
 - صدمتني الجملة وتذكرت أن القائد قالها لخالي أمين قبل وفاته.
 - هل كان يعرف أنه سيموت؟ وهل نعرف نحن متى سنموت وهل يكون الموت إلا بالموت؟ وماذا عنا؟ ماذا عن الناس في هذا الحصار؟ وماذا عن الدار إذا وليت؟ من يسكنها؟ من يحييها؟ من يرعى الخشخاش والياسمينه ويطعم الحسون على نافذتي ويضع له قطع التفاح وحببات القمح؟
 - ها أنا أقوم بترميم الدار، وأجدد وأجمل وأنظم، وأقلم الشجر والياسمينه، وأزرع الورد على الداير، وأضع البذور على نافذتي حتى أجذب ذاك الحسون، ثم ماذا؟ لو كنت صغيرة لتزوجت هذا الرجل وأنجبت منه وملأت الدار بأولادي. لكن الآن، وأنا أقرب من السبعين، وهذا المريض، هذا الساخن، عجوز مثلي ويكابر! لماذا يكابر؟

ألأنه يخاف من الكبر؟ ألأنه يخاف من الوحدة وهو فيها؟ ألأنه يخاف
من عجز الجسم وهو واقع؟ أم ألأنه - ككل الرجال - يخاف من العجز
والبروستاتا وما هو حاصل؟

ابتسمت في العتمة وأنا أتذكر ما قال لي في ذاك اليوم كم هو
فعّال ومجرب، وأنا فكرت: وكأن الرجولة في دبره! حمدا لله أنه نائم،
وشكرا للعتمة تسترني وتستر وجهي حتى لا يرى أنني أضحك، لكن
يبدو أنني ضحكت بصوت عالٍ فقال بدهشة:

- ما سر الضحك؟

كتمت صوتي وقلت ببسمة:

- لا شيء، لا شيء، فقط تذكرت أنني تأخرت على ياسمين
وأن ياسمين ستشكك بنا.

ضحك هو، لكن بسخرية ومرارة، لأنني ما زلت محصنة أمام
فحولته المزعومة، وقال مستنجدا:

- يا ريت، يا ريت!

ألم أقل؟ بعد يكابر!

60

فتحوا الإغلاق وذهب لداره، لكنه بقي على الشاشة. أهداني كمبيوتر سامسونج، أحسن كمبيوتر في العالم، هذا ما قال. وعلى الشاشة، أكبر شاشة وأحدث شاشة، أراه يوميا وأحدثه ويحدثني وأقول له ويقول لي وأشكو الوحدة ويشكو الغرام وأنا أضحك. وكم قلت له حتى أهدئه إن الزمن ليس زمننا، وإنا كبرنا على الغرام وحكاياته، لكنه يصبر ويقول لي:

- وحدك في الدار وأنا وحدي، ولن تجدي أحدا يحبك أكثر

مني.

أقول بلى، لو كان لي ولد أو بنت لأحباني أكثر بكثير من حب الرجل. حب الأمومة لا يفنى. حتى خالي، خالي الشاعر، قال هذا من تجربته حين كان يبحث عن ذاته. خالي الشاعر كان مزاجيا متقلبا ويبحث عن معنى لحياته. كان يبحث عن حزب أو فكر يملأ قلبه، ثابت وأصيل لا يتغير كحنان الأم. لكن لا حزب، ولا فكر، ولا حب رجل ثابت وأصيل كحنان الأم.

رأيت وجهه على الشاشة مثل الغربال، مليء بفجوات وتجاويع، لكن عينيه، صدقا أقول، كالجواهر. ما زال الاخضرار تحت العدسات مثل الألماس، مثل الياقوت والزمرد. لماذا نشيخ إلا العينين؟ وأنا أحب عيني الرجل وعيني المرأة وعيني الحمار. عينا الحمار فيهما جمال ورجولة، فلماذا نغض النظر ونستشهد بعيني الغزال؟ لأنه حمار؟ يضع سره في أضعف خلقه، أليس هذا ما نقول؟ وأنا أقول، يضع الجمال في البشاعة وعيني الحمار!

قال ضاحكا:

- يا ليتني كنت حمرا!

فضحكت كثيرا على الشاشة، وهو ضحك وحلق في الشاشة

وقال لي:

- في يوم ما سأتيك بعيني حمرا ليونسك ويملاً دنياك بالرقعة

وحنان الأم.

الحيوان! يقصد أنني أنا نضال، نضال القحطان، أم لهما!
هذا لأنني أرفض حبه وأرفض أن أكون امرأة عجوز يكحكح ويصاب
بالبرد من النسمة. لكنه فعلا فاجأني، إذ في الربيع، وكنت قد انتهيت من
الترميم وملأت داري بالياسمين وزرعت الورد على الدايير، وجذبت
الحسون إلى نافذتي، وكنت وياسمين وصديقها سعد نجلس في الساحة
نتشمس ونلعب شدة، ونسمع طريق المحبة تقول لنا عن حاجز هنا
وعن حاجز هناك ولا نتأثر، لأننا اعتدنا على جو الحصار، ولأن الحصار
لا يردعنا عن أن نعيش ونحلم ونحب ونتزوج، جاءني بمهر ذكرني
بالشهباء، وبأحلى هدية في الدنيا، جاءني بأولاد ملأوا حياتي وملأوا
لي الدار. كيف حصل ذلك؟ كنا كما قلت نلعب شدة في ساحة الدار
فاندفع باب البوابة، وإذا بربيع يدخل بمهر صغير ابن أسابع، بوجه
كالبدور، وعينين ساحرتين كحيلتين بلون الأبنوس، وقال مغیظا:

- حتى يملأ قلبك بحنان الأم ويذكرك بصباك وأيام زمان!

ياسمين ضحكت، وسعد ركض نحو ذاك المهر، وأخذ يناغيه
ويلاعبه كأنه حمل، وأنا بوزت لأنني ظننت أنه يسخر ويشمت من عقمي
وفراغ الدار. لكنني فوجئت بعد دقائق بسيل عرمرم من الزوار، كبار
وصغار، نساء ورجال، وأطفال رضع وحوامل. قدمهم لي، الأكبر
فالأصغر فالرضع، وأنا وياسمين ما زلنا مذهولتين ولا نصدق ما نراه

وما نسمع.

قدم لي أولاً رجلين كهلين في الستينات، وقال بفخر:
 - هذا التوأم، توأم حسنًا. هذان وحيد وعبد القادر، وهؤلاء،
 كل هؤلاء، أبناء وحيد وعيلة قحطان. هؤلاء أولاد وحيد وأحفاده،
 وأولاد عبد القادر وأحفاده، وعدّي يا نضال، عدي وسمي باسم
 الرحمن خوفاً عليهم من عين الحسود وعين اليهود.
 طبعاً بكيت من الفرح والتأثر، ولم أعد. كانوا أكثر من أي
 عدد، لأن الناس في بلدنا يلدون بال عشرة وبالعشرين. وأنا فعلاً أخاف
 عليهم من عين الحسود وعين اليهود. هذا ما نعرفه ويصل إلينا عن
 طريق المحبة والأخبار، وصحف كثيرة في تل أبيب التي ما زالت تنتظر
 القائد العام وجيش الإنقاذ ليمحقها. أما نحن في هذا الحصار فلا ننتظر
 إلا المواليد، مولود جديد في هذا الشهر، وثلاثة مواليد بعد شهرين،
 وعشرة مواليد في نفس الشهر، وأحياناً نفاجأ بتوائم. وكالعادة، نسمي
 الأولاد على اسم الجد أو الجدة، نسمي وحيد ونسمي وداد ونسمي
 كمال ونسمي نضال، وخير الأسماء عبد القادر. ومع كل ولادة لطفل
 جديد أذهب وربيع إلى ذنابة، أخصب قرانا الولادة، ونقدم هدايا
 للمواليد، ونزور أبو كمال مع الأطفال، ونضع الزهور على قبره، ونقرأ
 الفاتحة ونتذكر أن كان لنا في يوم ما رجال شرفاء أحببناهم وأحبونا
 وعاشوا معنا من بعد الموت.